

فى سيرة سيد الكونين

صلى الله عليه وسلم

﴿ دراسة تحليلية للسيرة النبوية فى ضوء الكتاب والسنة ﴾

للأستاذ الدكتور

جودة محمد أبو اليزيد المهدى

أستاذ التفسير وعلوم القرآن الكريم
عميد كلية القرآن الكريم بطنطا
عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الجزء الأول

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾

صدق الله العظيم

الاهـداء

إلى رحمة الله العظمى للعالمين . . إمام المرسلين وخاتم النبيين وقائد الغر المحجلين إلى جنات النعيم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ .

إلى النور الذى أخرجنا الله تعالى به من الظلمات إلى النور وهدانا إلى صراطه المستقيم إلى من هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم .. إلى الرءوف الرحيم ذى الخلق العظيم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ .

إلى من لا يعرف قدره إلا ربه عز وجل :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

إليك يا سيدى يا رسول الله أرفع هذه الأحرف الوضاءة بسيرتك قربان حب لجنابك الأرفع آملا أن أنال محبوبيتك العظمى وأظفر بشفاعتك الرحمى وأن أسير على هديك الأسمى حقيقة ومعنى وأن أحشر فى معيتك المشرفة يوم الدين فى زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين . اللهم آمين .

صلى الله تعالى وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم وأغدق وأنعم عليك وعلى آلك وصحبك وتابعيك فى كل وقت وحين دائماً أبد الآبدين بقدر عظمة الله العظيم ؟

إهداء محب من أمتك

جوده محمد أبو يزيد المهدى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وسيد ولد آدم أجمعين سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين : الشاهد البشير النذير ، الداعى إلى الله بإذنه والسراج المنير ، المنزل عليه القرآن العظيم ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط الله المستقيم فأحيا الله تعالى به أمة قد مزقها الشقاء وبددها الظلام لتتبوأ به ذروة الخيرية على سائر الأمم وأنار الحق تعالى به آفاق الوجود حتى ارتوت من فيض ضيائه مجادب القلوب ومعاطش العقول ، فقاد مسيرة النور على طريق الله مؤدياً للرسالة مبلغاً للأمانة صادعاً بالحق متخلقاً ومتحققاً بالقرآن العظيم . صلى عليه ربه وعلى آله وصحابته الغر الميامين وسلم فى كل وقت وحين .

أما بعد :

فما أعظم النور الذى يشع ويسطع من سيرة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه أبد الآبدين . وما أجل المقام الذى يستشرف فيه المؤمن أعلا الذرى ليحدق بعين بصيرته فى معالم عظمة المثل الأعلى والإنسان الكامل والأسوة الحسنة والقدوة العظمى لينعكس شعاع من نور الذات المحمدية على مرآة قلبه فتتحقق السعادة الأبدية .

إنه شعاع المعرفة الذى يضىء جوانب القلب بحب النبى ﷺ . وحب

النبى صلوات الله وسلامه عليه فريضة على كل مسلم ومسلمة ؛ وليس الحب فقط بل مرتبة أعلا هي إيثار الحب بمعنى أن يحب المؤمن رسول الله ﷺ أكثر من نفسه وأهله وماله والناس أجمعين . « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين[١] » .

ويوضحها الرسول الأمين ﷺ صراحة : « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده[٢] » وفى رواية (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين [٣]) أجل إن مقياس الإيمان الحق هو إيثار الرسول ﷺ بالحب على كل ما سوى الله عز وجل .

ولا ريب أن التحقق بهذه المحبة المشروطة للإيمان الصحيح رهن بمعرفة عظمة النبى ﷺ قدر ما تطيقه ذات المحب . حيث تكون المحبة ، على قدر المعرفة من ثم تأتى فرضية دراسة السيرة النبوية الشريفة ودخولها فى الصف الأول للعلوم الشرعية التى يتحتم على الداعية المسلم — عينياً — الإلمام بجوانبها ، والتفقه فى مباحثها ، والبصر بأحداثها ، وسبر أغوار أسرارها ، وجمع همة القلب على التعايش مع مشاهدها ، فإنه إلى جانب استيفاء مقتضى المحبة الإيمانية من دراسة السيرة المحمدية تجد العديد من البواعث تحفز بإلحاح إلى تلك الدراسة ، من أبرزها :

---

(١) سورة التوبة / ٢٤

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان من صحيحه ٧/١ ط حجازى .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان من صحيحه ٧/١ ط حجازى .

أن السيرة المحمدية تجسد المنهاج الأمثل للدعوة إلى الله تعالى وتبرز عطاء الربوبية للبشرية على يد المصطفى الأعظم صلوات الله وسلامه عليه وتجسد مراحل تبليغ الدعوة ووسائلها والصور المثلى لافذاذ السابقين الأولين رضوان الله عليهم الذين حملوا خلف القيادة المحمدية عبء الجهاد لنشر الإسلام ورفع لوائه .

* أن السيرة النبوية منهاج الحياة المثلى ومشكاة التأسى بالمثل الأعلى ﷺ واستقاء النور من فيضان سلوكياته العظمى ، ومنارة الاسترشاد بهديه الوضاء ، وأنى يمكن التعرف على جوانب الاقتداء دون الوقوف على سيرته الوضاءة ؟؟

إن فرضية التأسى التى قررتها الآية الكريمة « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »(٢) : وقف على استطلاع جوانب النور والعظمة فى شخص نبينا صلى الله عليه وسلم ليتسنى الاستمداد من أنوار هديه والسيرة على منهاجه الأقوم .

* إن التطواف حول معالم السيرة النبوية ضرورة مستلزمة للدراسة القرآنية ، التفسيرية ، حيث أن للسيرة العطرة حظاً وافراً من النصوص القرآنية ، فثمة الكثير من آى التنزيل قد عرض للتنويه بمكانة الرسول العظيم صلوات الله وسلامه عليه ، وهنالك الجانب الوفير الذى يعرض للغزوات وجوانب أخرى تعرض لصور عديدة من مراحل الدعوة ووسائلها ولأحوال النبى ﷺ مع قومه ، وأخرى تصور مشاهد من معجزاته ومنها الإسراء والمعراج إلى غير ذلك . كذلك حفلت السنة النبوية الشريفة بعرض واستقصاء جوانب وأحداث السيرة العطرة .

---

(١) سورة الأحزاب — ٢١

ثم هنالك الباعث الذى لا يتوقف عن الدعوة إلى درس السيرة المصطفوية ألا وهو الباعث الإصلاحى للأمة المحمدية ، فلن تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها !! فلننظر إلى مسرى النور وهو يهدى للتى هى أقوم ، ولنقترب من المثل الأعلى صلى الله عليه وسلم : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما »(١)

أجل : لنرمق بعين القلب و بصر العقل — ونحن بصدد تقويم حياتنا وعرضها على مقياس السيرة المحمدية — كيف تحولت على يد هذا الرسول العظيم صلوات الله وسلامه علية أمة من ظلام الجاهلية وحضيض الوثنية وضياع الهوية إلى خير أمة أخرجت للناس إيماناً وإسلاماً وعلماً وحضارة وقوة وعزة فأصبحت موصولة بالسماء ، وكنوز الدنيا بين يديها مسخرة لدين الله وتعمير كونه بطاعته ، تنشر ضياء المعرفة والهدى فى ربوع المعمورة ، وتفك قيود الأسر عن عبيد الخلق وترفع هاماتهم لعبادة الخالق وحده جل شأنه .

كيف أرسى هذا الرسول العظيم — صلوات الله وسلامه عليه — فى أصحابه أعظم المبادىء وأحيا قلوبهم وأرواحهم وعقولهم على هدى الله وشريعته وأشرب قلوبهم حب القرآن العظيم فتأسوا به ﷺ فى التخلق به . وتألقوا بهديه من خلف قائدهم العظيم والتفوا به كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم !!

---

(١) سورة الفتح / ٢٩

أرأيت إلى الصديق فى عظمته وإلى الفاروق فى شموخه وإلى ذى النورين فى نورانيته وإلى أبى الحسنين فى مجده ؟؟

أرأيت إلى سيد الشهداء حمزة وإلى أمين الأمة أبى عبيدة وإلى سيف الله خالد ؟؟.

ثم أرأيت إلى سيدى شباب أهل الجنة الإمامين الحسن والحسين ؟؟

إنها العظمة المحمدية تتجلى فيمن ربتهم يد المصطفى ﷺ بتربية رب العالمين فكانوا مثلا عليا تفجرت منها نورانية المثل الأعلى الأول سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وانصهرت ذاتيتهم فى ذاتة فاكتسبت ربانية الجوهر ومحمدية الهوية . فصلحت بهم الدنيا وصلحت لهم الآخرة وسخرت لهم الأكوان إذ سخروا أنفسهم للمكون ، وخدمتهم الدنيا بصدق خدمتهم لمولاهم وحسن تأسيهم بإمامهم وقائدهم ومرشدهم عليه أفضل صلوات الله وتسليماته .

إن عظمة الرسول ﷺ هى التى صنعت عظمة أمته وعظمته ﷺ من من صنع عظمة الله جل وعلا ، فلنرقب العظمة المحمدية فى سيرته الزكية لنستمد منها زادا المسير على نهجه الأسنى وصراطه المستقيم ، فحيثما توجهنا إلى جانب من ذاتيته الشريفة ممثلا فى أخلاقياته وأقواله وأفعاله وأحواله بهرنا النور وارتوت ذاتيتنا من النور فلنسر فى طريق النور .

ولقد صدق ابن حزم فى تبصره لجوانب العظمة المحمدية من خلال استشرافه للسيرة النبوية إذ قال :

(.. فإن سيرة محمد ﷺ — لمن تدبرها — تقتضى تصديقه ضرورة ، وتشهد له بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حقا ، فلو لم تكن له معجزة

غير سيرته ﷺ لكفى)(١) ! ! وقد نقل الإثبات عن الإمام الزهرى - الذى قيل إنه أول من ألف فى السير فى الإسلام - أنه قال : (فى علم المغازى(٢) خير الدنيا والآخرة)(٣) .

من هذا المنطلق وعلى هدى وبتوفيقه سبحانه ، نتناول بالدراسة جوانب من سيرة سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه فى ضوء القرآن العظيم والسنه المطهرة ، تناولا تحليليا لا يتوخى مجرد سرد الأحداث المروية ، فذلك حظ السيرة التاريخية .

وإنما القصد المبتغى من السيرة التحليلية : أن نعنى بتحليل الحدث ، أو بمعنى أدق : أن نسلط ضوء البحث على النص المعبر عن الحدث أو الموقف التاريخى فنتناوله بالتحليل والاستنباط لاستفراغ معطياته واستكناه حقيقته ، واستخلاص الحكمة والعبرة منه ، ومن ثم لا تكون دراستنا للسيرة دراسة تسجيلية تاريخية بل تنفذ إلى أعماق الحدث من خلال تدبر النص المعبر عنه .

وحيث أن درسنا للسيرة النبوية الشريفة إنما هو فى ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية فإن هذه الدراسة بالضرورة تكون دراسة قرآنية وحديثية للسيرة الزكية .

فالقرآن الكريم هو المصدر الأول لسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم والسنة الشريفة بيان وتفصيل له . وهل ثمة أوثق من الذكر الحكيم فى الحديث عن المصطفى الكريم صلوات الله وسلامه عليه ؟ ؟ حاشا وكلا .

---

(١) أنظر الفصل فى الملل والنحل لابن جزم ٢/ ٨٩ ط صبيح .

(٢) المقصود علم مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته الغراء .

(٣) أنظر إنسان العون فى سيرة الامى المأمون للامام الحلبى ١/ ٢

وهل ثمة أروع من أن نستمع إلى كلام الحق تعالى عن مصطفاه ﷺ أو أن ننصت إلى رسولنا ﷺ وهو يحدثنا عن نفسه بوحى الله الذى لا ينطق به عن الهوى ؟؟

ولأن الطابع الرئيسى الذى تتميز به هذه الدراسة ، هو الطابع التفسيرى القرآنى أولا : ثم الحديثى ثانيا : فإن المنهج التفسيرى سيفرض نفسه على بساط هذا البحث بطابعه التحليلى والمقارن ، بصدد عرض محصلات أئمة المفسرين وأقوالهم الكاشفة عن دلالة النص القرآنى المتعلق بالسيرة الشريفة . وكذا الأمر لدى تناول الحديث الشريف لها أيضا ، سنجد تحليل شراح الحديث للحدث .

وما أروع أن يسطع ضوء الوحى كاشفا عن صاحب الوحى صلى الله عليه وسلم وعن سيرته العاطرة .

اللهم ببركة الوحى وصاحبه هب لى من توفيقك ما يحقق لهذا العمل رضاء جزيلا ودائما منك ونفعا وقبولا عند خلقك وتقبله من عبدك قربان حب لك ولكتابك ولرسولك الأعظم صلى الله عليه وسلم واجعله نورا ساطعا فى صحيفتى يوم الدين .

والحمد لله رب العالمين

ربيع الأول ١٤٠٤ هـ (ديسمبر ١٩٨٣ م)

فى الرحاب الأحمدى المبارك

دكتور

جوده محمد أبو يزيد المهدى

أستاذ مساعد ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن الكريم

بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية بطنطا

الباب الأول

بين يدى ميلاد الرسول الكريم ﷺ

فى دراسة السيرة المحمدية الغراء يجد الباحث نفسه أمام شمس هذا العالم الساطعة بالأنوار ، المشعة بالضياء : كلما اقترب من ضيائها نهل من ينبوع النور والإشراق واستمد من عطائها على قدر طاقته إلى أن يجد نفسه فى عجز عن تحمل مالا يقوى عليه من النور فيقف على قدم الخشوع والإذعان مرددا (أن العجز عن الإدراك إدراك) !!

ولأن الشمس لا ينحسر ضوؤها عند نقطة ما من هذا الكون وهى فى أفق السماء ، إذ لا يبقى جانب منه إلا وقد امتد إليه شعاعها ما دام مستشرقا لها كذلك يرى الباحث بجلاء امتداد نور الشمس المحمدية فيما قبل الميلاد والمبعث فى مشكاة الوحيين النيرين .

ومن ثم نعقد فى نطاق هذا الباب عدة فصول .

الفصل الأول

فى التنويه بأولية خلقه ونبوته وأخذ الميثاق على النبيين بالإيمان به ونصرته وتبشير الكتب السماوية والأنبياء بظهوره صلى الله عليه وسلم .

* * *

أما التنويه بأولية خلقه صلى الله عليه وسلم فقد ارتبط بذكر الميثاق

فى قوله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا)(١) .

حيث قدم ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم على ذكر الأنبياء المذكورين معه فى الآية الكريمة رغم سبق أزمنتهم لزمن ظهوره صلى الله عليه وسلم ، فبعض المفسرين يرى أن التقديم فى الذكر ههنا التقدم فى الرتبة والشرف .

لكن فريقا آخر من أئمة المفسرين يروى عن السلف أن التقديم فى الذكر فى الآية الكريمة دال على التقدم فى الخلق أيضا مستدلا لذلك بالحديث الشريف .

فنجد الإمام الطبرى يروى لنا فى تفسير الآية الكريمة عن سيدنا قتادة التابعى رضى الله عنه أنه قال وذكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم : كان يقول : (كنت أول الأنبياء فى الخلق وآخرهم فى البعث)(٢) .

ثم يردف الإمام الطبرى ذلك برواية أخرى — بسنده — عن أبى هلال أنه قال : « كان قتادة إذا تلا هذه الآية : (وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح . .) قال : كان نبى الله صلى الله عليه وسلم فى أول النبيين فى الخلق »(٣) .

كذلك نجد الإمام الواحدى يقول فى تفسير هذه الآية الكريمة :

---

(١) سورة الاحزاب /٧

(٢) أنظر جامع البيان للطبرى ٢١/١٢٥ ط / الحلبى .

(٣) نفس المصدر .

« وقدم النبي صلى الله عليه وسلم فى الذكر لما روى قتادة عن الحسن عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى هذه الآية : « كنت أول المؤمنين فى الخلق وآخرهم فى البعث » قال أبو إسحق(١) .

فعلى هذا : لا تقديم فى هذا الكلام ولا تأخير ، هو على مانسقه »(٢) ا هـ .

ونجد الإمام القرطبى كذلك يقول فى تفسيره للآية الكريمة : « وقدم محمدا فى الذكر : لما روى قتادة عن الحسن عن أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح . . . » قال : « كنت أولهم فى الخلق وآخرهم فى البعث »(٣) .

وفى تفسير « الدر المنثور » للإمام الحافظ جلال الدين السيوطى رضى الله عنه نجده عند تفسير آية الميثاق المذكورة يسوق الحديث للشريف بتخريجه قائلا :

« وأخرج الحسن بن سفيان وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبو نعيم — فى الدلائل — والديلمى وابن عساكر من طريق قتادة عن الحسن عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قول الله « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم » الآية : قال « كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث » فبدىء به قبلهم »(٤) ا هـ .

---

(١) هو أبو اسحق الزجاج العلامة اللغوى النحوى .

(٢) أنظر تفسير البسيط للامام أبى الحسن الواحدى ٨/٧ (بالنسخة الخطية بدار الكتب) .

(٣) أنظر تفسير القرطبى ١٢٧/١٤ ط دار الكتب .

(٤) أنظر الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للامام السيوطى ١٨٤/٥ نشر دار المعرفة ببيروت .

كذلك أخرج الحافظ السيوطى الحديث فى الجامع الكبير عن قتادة من طريقين :

أحدهما بلفظ : « كنت أول الناس فى الخلق وآخرهم فى البعث » برواية ابن سعد عن قتادة مرسلا . والآخر بلفظ : « كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث » برواية ابن لال عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة مرفوعا(١) .

وأورد الإمام محمد بن يوسف الشامى هذا الحديث أيضا فى سيرته الجامعة — المشتملة على نحو ألف باب تحت عنوان : « الباب الأول فى تشريف الله تعالى له صلى الله عليه وسلم بكونه أول الأنبياء خلقا » فأورد الحديث برواية ابن إسحق عن قتادة مرسلا . بيد أن المحقق قد علق على تخريجه بإثبات اتصال سنده فى رواية أبى نعيم كما ذكره ابن كثير فى سيرته مرويا من طريق سعيد ابن أبى عروبة وشيبان عن قتادة — وساق نص الحديث مع التعقيب بقوله « وهذا أثبت وأصح »(٢) .

ثم نأتى — بعد الوقوف على التخريج — إلى فقه هذا الحديث الشريف الذى تتقاصر العقول الكلة عن الإذعان لمدلوله واستيعاب مفاده النورانى فلا تجد بدا من رفضه وتضعيفه .

---

(١) أنظر الجامع الكبير للحافظ السيوطى ٦٣٠/١ (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب) .

(٢) أنظر سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للامام محمد بن يوسف الصالحى الشامى بتحقيق د / مصطفى عبد الواحد ٨٩/١ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وأنظر سيرة ابن كثير ٣١٩/١ ، كذلك انظر تخريج الحديث فى كنز العمال ٤٥٢/١١

ونحن من جانبنا لا يسعنا إلا إثبات مانراه حقا ، وليس ذلك تفردا منا برأى شخصى ولكننا نقف من طائفة من الراسخين فى العلم من حفاظ الحديث الشريف وأهل الأثر من المفسرين ، ففى شرح هذا الحديث يقول الإمام الحافظ المناوى عليه الرضوان : — « كنت أول الناس فى الخلق وآخرهم فى البعث » : بأن جعله الله حقيقة تقصر عقولنا عن معرفتها ، وأفاض عليها وصف النبوة من ذلك الوقت . ثم لما انتهى الزمان بالاسم الباطن(١) فى حقه إلى وجود جسمه وارتباط الروح به : انتقل حكم الزمان إلى الاسم الظاهر ، فظهر بكليته جسما وروحا(٢) .

ويؤكد دلالة هذا الحديث الشريف على أولية خلقه صلى الله عليه وسلم ما رواه الحافظ عبد الرزاق بن همام - فى مسنده - بسنده عن سيدنا جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنه أنه قال :

« قلت يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى أخبرنى عن أول شىء خلقه الله تعالى قبل الأشياء . قال : يا جابر ، إن الله تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى . ولم يكن فى ذلك الوقت لوح ولا قلم ولا جنة ولا نار ولا ملك ولا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا جن ولا إنس . . .(٣) الحديث .

---

(١) أى بتجلى اسمه تعالى : « الباطن » الذى تستتر به حقائق الموجودات .

(٢) أنظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للحافظ المناوى ٥/٥٣ ط التجارية وأنظر هذا النص بزيادة حافلة فى المواهب اللدنية للامام القسطلانى ١/٥ — ٦ ط الشرفية .

(٣) أنظر تخريج الحديث عن عبد الرزاق فى المواهب اللدنية للقسطلانى ١/٩ وجواهر البحار للنبهانى ٢/٣٢٣ ط الحلبى .

ومما ينتظم مع التنويه بأولية خلقه صلى الله عليه وسلم فى عقد التشريف لقدره وإبراز مكانته عند ربه تصريح الأحاديث الصحيحة بتقدم نبوته صلى الله عليه وسلم على نفخ الروح فى سيدنا آدم صلى الله عليهما وسلم.

فقد روى الإمام أحمد فى مسنده والحاكم فى مستدركه عن العرباض بن سارية رضى الله تعالى عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إنى عبد الله لخاتم النبيين وإن آدم عليه السلام لمنجدل فى طينته»[1].

والمعنى: كنت خاتم الأنبياء فى الحال الذى كان فيه آدم عليه السلام مطروحاً على الأرض أثناء تخلقه لما يفرغ من تصويره وإجراء الروح فيه[2].

كذلك روى الإمام أحمد والحاكم عن ميسرة الفجر أنه قال: «قلت يا رسول الله، متى كنت نبيا ؟؟ قال: وآدم عليه السلام بين الروح والجسد»[3].

وهنا يطرح سؤال بصدد تقرير أولية خلقه وتقدم نبوته صلى الله عليه وسلم على نفخ الروح فى سيدنا آدم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، إذ يقال: —

كيف تقررت أولية خلقه صلى الله عليه وسلم على الأنبياء وتحققت نبوته صلوات الله وسلامه عليه قبل نفخ الروح فى أبى البشر عليه السلام مع أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن موجودا قبل ميلاده الشريف،

---

(١) أنظر المسند ١٢٧/٤ والمستدرك ٤١٨/٢ والوفا لابن الجوزى ٣٣/١

(٢) أنظر سبل الهدى والرشاد ٩٦/١—٩٧

(٣) أنظر المسند ٥٩/٥ والوفا لابن الجوزى ٣/١، والمستدرك للحاكم ٦٠٨/٢

والنبوة وصف لابد أن يكون الموصوف به موجودا بل وبعد بلوغ الأربعين سنة ؟ ؟

وقد أجيب عن ذينك السؤالين :

أولا : بأن المراد بالخلق ههنا : التقدير دون الإيجاد حيث أنه صلى الله عليه وسلم قبل ولادته لم يكن مخلوقا ولكن الغايات والكمالات سابقة فى التقدير لاحقة فى الوجود .

وثانيا : بأن مفاد قوله صلى الله عليه وسلم « كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد »(١) :

العلم بأنه سيصير نبيا فى المستقبل .

وهذان الجوابان مردودان ومتعقبان من أهل الرسوخ فى العلم ، فقد تعقبهما الإمام تقى الدين السبكى — رضى الله عنه — بقوله :

« قد جاء أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد ، فقد تكون الإشارة بقوله « كنت نبياً .. » إلى روحه الشريفة أو إلى حقيقة من الحقائق ، والحقائق تقصر عقولنا عن معرفتها ، وإنما يعلمها خالقها ومن أمده الله بنور إلهى .

ثم إن تلك الحقائق يؤتى الله كل حقيقة منها ما يشاء فى الوقت الذى يشاء .

فحقيقة النبى ﷺ(٢) قد تكون من حين خلق آدم آتاها الله ذلك

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن سعد عن ميسرة والطبرانى عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما (أنظر الجامع الكبير للحافظ للسيوطى ١/٦٣٠)

(٢) تعبير الإمام السبكى هنا وفيما سبق من قوله « فقد تكون الاشارة .. » الخ من قبيل أدب العلماء العارفين مع ربهم فى تناولهم للحقائق المستورة وليس المراد منه التقليل من الجزم بتلك الحقائق .

الوصف بأن يكون خلقها متهيئة لذلك ، وأفاضه عليها من ذلك الوقت ، فصار نبياً وكتب اسمه على العرش ، وأخبر عنه بالرسالة ليعلم ملائكته وغيرهم كرامته عنده ، فحقيقته موجودة من ذلك الوقت وأن تأخر جسده الشريف المتصف بها ، واتصاف حقيقته بالأوصاف الشريفة المفاضة عليه من الحضرة الإلهية حاصل من ذلك الوقت ، وإنما يتأخر البعث والتبليغ ، وكل ماله من جهة الله ومن جهة تأهل ذاته الشريفة وحقيقته معجل لا تأخر فيه وكذا استنباؤه وإيتاؤه الكتاب وإنما المتأخر تكونه وتنقله إلى أن ظهر ﷺ .

وقد علم من هذا : أن من فسره بعلم الله بأنه سيصير نبياً لم يصل إلى هذا المعنى ، لأن علم الله تعالى محيط بجميع الأشياء ، ووصف النبي ﷺ بالنبوة في ذلك الوقت ينبغي أن يفهم منه أنه أمر ثابت في ذلك الوقت .

ولو كان المراد بذلك مجرد العلم بما سيصير في المستقبل لم يكن له خصوصية بأنه نبي وآدم بين الروح والجسد ، لأن جميع الأنبياء يعلم الله تعالى نبوتهم في ذلك الوقت وقبله ، فلا بد من خصوصية للنبي ﷺ ، لأجلها : أخبر بهذا الخبر إعلاماً لأمته ليعرفوا قدره عند الله تعالى » (1) .

أجل : لقد كان رسولنا ﷺ متحققاً بالنبوة أثناء تخلق أبي البشر عليه السلام بالفعل ، وحقيقته الشريفة موجودة آنذاك كما قال الإمام السبكي يعرف ذلك العارفون ولقد قرر ذلك الإمام الصالحي في سيرته فقال بصدد رواية حديث ميسرة « متى كنت نبياً ؟ قال وآدم بين الروح والجسد .. » ما نصه : —

قال الإمام أحمد في رواية منها : وبعضهم يرويه : « متى كتبت ؟ » —

---

(1) أنظر المواهب اللدنية للقسطلاني ١/٧ وشرح الزرقاني على المواهب ١/٣٨

من الكتابة — « قال : كتبت نبياً وآدم بين الروح والجسد » فتحمل هذه الرواية من حديث العرباض السابق على وجوب نبوته ﷺ وثبوتها وظهورها فى الخارج ، فإن الكتابة إنما تستعمل فيما هو واجب إما تشريعاً كقوله تعالى : « كتب عليكم الصيام[1] » أو قدراً كقوله تعالى : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى »[2] .

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : « قالوا يارسول متى وجبت لك النبوة ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد » . رواه الترمذى وحسنه[3]

وعن الصنابحى مرسلا — وهو بضم الصاد المهملة وفتح النون وكسر الموحدة ومهملة - عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : « يارسول الله متى جعلت نبياً ؟ قال . وآدم بين الروح والجسد » رواه أبو نعيم[4] اه

من تلك الأدلة النيرة يستشعر القلب برد الرضا واليقين بأنه ﷺ أول الأنبياء خلقا — من حيث الحقيقة المحمدية المتقدمة على الظهور البشرى - وأولهم نبوة وكيف لا وهو إمامهم ، ورتبة الإمام التقدم على المأموم !!

ومن قبل قد استشعر سيدنا العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه هذه الأولية ، شأنه شأن العارفين بالحق وبالحقيقة ، فقد روى الطبرانى وابن الجوزى ونخبة من أصحاب السير عنه أنه قال :

---

(١) سورة البقرة / ١٨٣

(٢) سورة المجادلة / ٢١

(٣) أنظر سنن الترمذى ٢ / ٢٨٢

(٤) أنظر سبل الهدى والرشاد ٩٨/١ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية وانظر دلائل النبوة لأبى نعيم الأصبهانى ص : ١٧

يارسول الله إنى أريد أن أمتدحك ، فقال له رسول الله ﷺ قل لا يغضض الله فاك : فقال رضى الله تعالى عنه :

من قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع حيث يخصف الورق(١)
ثم هبطت البلاد لا بشر أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد ألجم نسراً وأهله الغرق(٢)
وردت نار الخليل مكتتما تجول فيها ولست تحترق
تنقل من صالب إلى رحم .. إذا مضى عالم بدا طبق(٣)
حتى احتوى بيتك المهيمن من خندف علياء تحتها النطق(٤)
وأنت لما ولدت أشرقت الأر ض وضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذاك الضياء وفى النو ر وسبل الرشاد نخترق

كذلك سجلت السنة النبوية الشريفة العديد من شواهد الأسبقية للنبوة المحمدية ودلالتها على عظم مكانته ﷺ عند ربه عزوجل ، حتى لقد صرح بعضها بتوسل سيدنا آدم واستغفاره بحق سيدنا محمد ﷺ .

---

(١) الضمير فى قوله (قبلها) إما للدنيا أو للنبوة أو للولادة ، والمراد بالظلال : ظلال الجنة وقد أشار بقوله (حيث يخصف الورق) إلى قوله تعالى : (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة)

(٢) السفين جمع سفينة ، ونسرا : اسم لأحد العباد من أتباع سيدنا نوح على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وقد صور أبليس صورته بعد موته ومثله من نحاس ووسوس بعبادته لأهل العصور اللاحقة مع تماثيل أقرانه ود وسواع المذكورين فى سورة نوح

(٣) الصالب هو الصلب . والطبق : الجماعة من الناس ، يقال للقرن طبق لأنه طبق الأرض

(٤) المراد بالبيت هنا : الشرف والمعنى : حتى احتوى شرفك الشاهد بفضلك على مكان من بيت خندف وهو اسم ليلى امرأة الياس بن مضر . انظر هذه الأبيات فى سبل الهدى ٩٢/١ والوفا بن الجوزى ٣٥/١ .

فقد أخرج الحاكم — فى مستدركه — والبيهقى — فى دلائله ، وكذا الطبرانى عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد إلا غفرت لى ، فقال الله : يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ قال : يا رب ، لأنك لما خلقتنى بيدك ، ونفخت فى من روحك ، فعت رأسى ، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . فقال الله : صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلى ، أدعنى بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك » (١) .

أخذ الميثاق على النبيين أن يؤمنوا به وينصروه ﷺ :

قال الله تعالى : « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين » (٢) .

روى الإمام الطبرى — فى تفسيره — بسنده عن سيدنا على كرم الله وجهه أنه قال فى تفسير هذه الآية الكريمة :

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٢/٦١٥) وعقب عليه بقوله : هذا حديث صحيح الإسناد كما رواه ابن الجوزى فى الوفا بأحوال المصطفى (ﷺ) ١ / ٣٣ وأخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير والبيهقى وأبو نعيم — كلاهما فى دلائل النبوة — وابن عساكر فى التاريخ وقد تعقب الحافظ عبد الله محمد الصديق حكم الذهبى بوضع هذا الحديث بالتفنيد وأثبت أنه حديث حسن لغيره إذ أيده بحديث قوى برواية ميسرة الفجر ، أنظر الرد المحكم المتين على كتاب القول المبين ص ١٢٠ .

(٢) سورة آل عمران / ٨١

« لم يبعث الله عز وجل نبيا — آدم فمن بعده — إلا أخذ عليه العهد في محمد : لئن بعث وهو حى ليؤمن به ولينصرنه . ويأمره فيأخذ العهد على قومه فقال : « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة . . » الآية[1] .

وقال الإمام القرطبي في تفسيره عند تفسير قوله تعالى : « ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمن به ولتنصرنه » من نفس الآية الكريمة ما نصه : —

« الرسول هنا محمد ﷺ في قول على وابن عباس رضى الله عنهما ، واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معين ، كقوله تعالى : « ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة . . . — إلى قوله — : ولقد جاءكم رسول منهم فكذبوه »[2] .

فأخذ الله ميثاق النبيين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام وينصروه إن أدركوه . وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم »[3] .

ويضيف الحافظ ابن كثير — في تفسيره — توثيقا وتأكيدا لما أورده الإمامان — الطبري والقرطبي — إذ يقول : —

« قال على بن أبي طالب وابن عمه عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — ما بعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق ، لئن بعث محمدا وهو حى

---

(١) أنظر جامع البيان للطبري ٣/٣٣٢ ط الحلبي .

(٢) سورة النحل / ١١٣

(٣) أنظر : الجامع لأحكام القرآن . للقرطبي ٤/١٢٥

ليؤمنن به ولينصرنه ،وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ،لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه »(١) .

وللإمام الحافظ تقى الدين السبكى - رضى الله عنه رسالة قيمة فى تفسير هذه الآية الكريمة عنوانها :

« التعظيم والمنة فى تفسير قوله تعالى : لتؤمنن به ولتنصرنه »(٢) قال فيها :-

« فى هذه الآية من التنويه بالنبى ﷺ وعظيم قدره مالا يخفى ، وفيه مع ذلك أنه على تقدير مجيئه فى زمانهم يكون مرسلا إليهم فتكون نبوته ورسالته عامة لجميع الخلق من زمن آدم إلى يوم القيامة ، وتكون الأنبياء وأممهم كلهم من أمته ، ويكون قوله صلى الله عليه وسلم : « بعثت إلى الناس كافة » لا يختص به الناس فى زمانه إلى يوم القيامة بل يتناول من قبلهم أيضا :

وإنما أخذ المواثيق على الأنبياء ليتعلموا أنه المقدم عليهم ، وأنه نبيهم ورسولهم .

وفى « أخذ » - وهى فى معنى الاستحلاف ، وإذا دخلت لام القسم فى « لتؤمنن به ولتنصرنه » - لطيفة أخرى . وهى : كأنها البيعة التى تؤخذ للخلفاء ، ولعل إيمان الخلفاء أخذت من هذا . فانظر إلى هذا التعظيم العظيم

---

(١) أنظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢-٥٦ ط الشعب .

(٢) توجد هذه الرسالة مخطوطة بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة فى المجاميع برقم ٣٦٤ . أنظر فهرس الخزانة التيمورية ، الجزء الأول (التفسير) ص ١٧٠

للنبي ﷺ من ربه ! فإذا عرفت هذا . فالنبي صلى الله عليه وسلم نبي الأنبياء ، ولهذا : أظهر ذلك في الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه ، وفي الدنيا كذلك : ليلة الإسراء صلى بهم ، ولو اتفق مجيئه في زمن آدم ونوح وإبرهيم وموسى وعيسى : وجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به ﷺ ونصرته. وبذلك أخذ الله الميثاق عليهم. فنبوته ﷺ ورسالته إليهم معنى حاصل له ، وإنما أمره يتوقف على اجتماعهم معه ، فتأخر الأمر راجع إلى وجودهم لا إلى عدم اتصافه بما يقتضيه ، وفرق بين توقف الفعل على قبول المحل وتوقف أهلية الفاعل ، فهنا لا توقف من جهة الفاعل ولا من جهة ذات النبي ﷺ الشريفة ، وإنما هو من جهة وجود العصر المشتمل عليه فلو وجد في عصرهم لزمهم اتباعه بلا شك . ولذا يأتي عيسى ﷺ في آخر الزمان على شريعته ﷺ » (١).

تبشير الكتب المنزلة والأنبياء به ﷺ :

صرح القرآن الكريم بثبوت ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتب الإلهية السابقة ومعرفة أهل الكتاب به صلوات الله وسلامه عليه من خلال وصف كتبهم له .

فمن ذلك قوله تعالى : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم

---

(١) أنظر هذا النص مطولا في : سبل الهدى والرشاد ١/١٠٩ — ١١٠ ومقتضبا في : المواهب اللدنية للإمام القسطلاني ١/٨ ط الشرفية .

والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون)(١) .

وجاءت السنة الشريفة بتبيان ما قررته الآية الكريمة ، فقد روى البخارى بسنده عن عطاء بن يسار أنه قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، قلت : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، قال : أجل . والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر . ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ، ويفتح به أعينا عميا وآذانا صما ، وقلوبا غلفا)(٢) .

وقد بينت الآية الكريمة (٣) عدة نعوت وأوصاف للنبى صلى الله عليه وسلم كان أهل الكتاب يجدونها عندهم(٤) فى التوراة والإنجيل ، منها

---

(١) سورة الأعراف /١٥٧

(٢) أنظر : صحيح البخارى : كتاب البيوع : باب كراهية الصخب فى السوق ٢/ ١٠ ط حجازى .

(٣) وهى آية الأعراف السالف ذكرها : (الذين يتبعون الرسول) الخ .

(٤) نقل الإمام الفخر الرازى فى تفسير الآية الكريمة عن الزجاج قوله : « يجوز أن يكون قوله « يأمرهم بالمعروف » استئنافا ، ويجوز أن يكون المعنى : « يجدونه مكتوبا عندهم »أنه «يأمرهم بالمعروف » اهأنظر مفاتيح الغيب، ١٥/ ٢٦ ط دار الفكر .

وأقول : إن المرجح هو الوجه الثانى عند الزجاج — لدينا — باعتباره تفسيرا للمكتوب وتفصيلا لإجماله .

ما بينه قوله تعالى : (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر) قال عطاء فى تفسيرها : (يأمرهم بالمعروف) : بخلع الأنداد ومكارم الأخلاق وصلة الأرحام : (وينهاهم عن المنكر) : عبادة الأصنام وقطع الأرحام .

والصفة الثالثة : بينها قوله تعالى : « ويحـــل لهم الطيبات » والمراد بالطيبات : ما كانت العرب تستطيبه يحسب الطبع مما حلله الشرع ، وقيل هى الشحوم التى حرمت على بنى إسرائيل ، والبحيرة ، والسائبة ، والوصيلة والحامى(١) .

والنعت الرابع : « ويحرم عليهم الخبائث » وقد فسر الإمام ابن عباس - رضى الله عنهما - الخبائث بالميتة والدم وما ذكر فى سورة المائدة إلى قوله : « ذلكم فسق .. »(٢) وقد كان اليهود يستحلونها(٣) .

والنعت الخامس : « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » والإصر : هو الثقل الذى يأصر صاحبه ؛ أى يحبسه من الحراك لثقله ، قال الإمام الفخر فى تفسيرها : —

« والمراد منه : أن شريعة موسى عليه السلام كانت شديدة ، وقوله : « والأغلال التى كانت عليهم » المراد منه : الشدائد التى كانت فى عباداتهم كقطع أثر البول وقتل النفس فى التوبة ، وقطع الأعضاء الخاطئة ، وتتبع العروق من اللحم ، وجعلها الله أغلالا : لأن التحريم يمنع من الفعل كما أن

---

(١) انظر الوفا لابن الجوزى ٣٧/١ .

(٢) سورة المائدة /٣ .

(٣) انظر الوفا لابن الجوزى ٣٧/١ .

الغل يمنع عن الفعل . وقيل : كانت بنو إسرائيل إذا قامت إلى الصلاة لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم تواضعا لله تعالى، فعلى هذا القول: الأغلال غير مستعارة »(١) .

تلك بعض معالم الرسالة المحمدية بنص التنزيل على وجودها فى نعت الرسول الخاتم ﷺ فى التوراة والإنجيل . ولا ريب أن فى هذا دلالة قاطعة على كمال صدقه ﷺ ؛ لأنه لو لم يكن مكتوبا عندهم لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قبول قوله ، لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات للمدعو ، والداعى الفطن لا يسعى فيما يوجب تنفير الناس عن قبول دعوته ، فلما جاءهم الرسول ﷺ بذلك دل على أن ذلك النعت كان مذكورا فى التوراة والإنجيل ، وذلك من الدلائل على صحة نبوته ﷺ ، بيد أن أهل الكتاب كانوا كما وصفهم القرآن العزيز يكتمون الحق وهم يعلمون : إذ قال تعالى موبخا لهم «يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون »(٢) .

ولقد صرح القرآن الكريم بمعرفة أهل الكتاب للرسول الخاتم سيدنا محمد ﷺ وذلك فى قوله تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون »(٣) .

قال الإمام الواحدى فى تفسير هذه الآية الكريمة من تفسيره « البسيط » : -

---

(١) انظر مفاتيح الغيب للامام الرازى ١٥/٢٧ - ٢٨ .

(٢) سورة آل عمران / ٧١ .

(٣) سورة البقرة / ١٤٦ .

« الكناية(١) فى (يعرفونه) تعود إلى محمد ﷺ عند أكثر المفسرين ، وكنى عن محمد - وقد تقدم ذكره فى الخطاب - على عادة العرب فى تكوين الخطاب .

ويشهد على صحة هذا التأويل : ما روى أن عبد الله بن سلام(٢) قال - لما نزلت هذه الآية وسئل عن معرفته محمدا ﷺ - فقال : والله لأنا بمحمد وصحة نبوته أعرف منى بابنى ؛ لأنى لا أشك فى أمره ، ولا أدرى ما أحدث النساء »(٣) .

وقال الإمام القرطبى فى تفسير هذه الآية الكريمة أيضاً : « وروى أنه عمر قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ابنك ؟

فقال : نعم وأكثر ! ! بعث الله أمينه فى سمائه إلى أمينه فى أرضه بنعته فعرفته ، وابنى لا أدرى ما كان من أمه ! ! (٤) .

كذلك نجد فى التنزيل تأكيدا لمعرفة أهل الكتاب من بنى إسرائيل بنبي الإسلام سيدنا محمد ﷺ قبل ظهوره ، لتبشير كتابهم به . وذلك فى

---

(١) المراد بالكناية هنا : الضمير ، وهو إطلاق نحوى

(٢) هو الصحابى الجليل سيدنا عبد الله بن سلام الإسرائيلى من سبط سيدنا يوسف بن سيدنا يعقوب على نبينا وعليهما السلام ، أسلم وأحسن إسلامه وكان حليفاً للأنصار (أنظر شذرات الذهب ١ / ٥٣)

(٣) أنظر تفسير البسيط للواحدى ١/٣٣٣ من النسخة المخطوطة بدار الكتب رقم ٥٣ تفسير

(٤) أنظر تفسير القرطبى ٢/١٦٣ ط دار الكتب

قوله تعالى : « ولما جاءكم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين »(١).

يقول الإما الطبرى فى تفسيره : يعنى بقوله جل ثناؤه : (وكانوا من يستفتحون على الذين كفروا) أى : وكان هؤلاء اليهود الذين لما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم من الكتب التى أنزلها الله قبل الفرقان كفروا به ، يستفتحون بمحمد ﷺ ، ومعنى الاستفتاح : الاستنصار(٢) ، يستنصرون الله به على مشركى العرب من قبل مبعثه ، أى : من قبل أن يبعث »(٣).

وقال الإمام القرطبى فى تفسيره :

« قال ابن عباس : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان ، فلما التقوا هزمت يهود(٤) فعاذت يهود بهذا الدعاء وقالوا : إنا نسألك بحق النبى الأمى الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم ، قال : فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء ، فهزموا غطفان ، فلما بعث النبى ﷺ كفروا ، فأنزل الله تعالى : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » أى : بك يا محمد ، إلى قوله : « فلعنة الله على الكافرين »(٥) » .

---

(١) سورة البقرة /٨٩

(٢) الاستنصار : هو طلب النصر ، فالسين والتاء فيه للطلب

(٣) أنظر جامع البيان للطبرى ١/ ٤١٠ ط الحلبى .

(٤) الفعل (هزم) مبنى للمجهول ، والمعنى : هزمت غطفان يهود .

(٥) أنظر تفسير القرطبى ٢/ ٢٧ وانظر الدر المنثور للامام السيوطى ١/ ٨٨

وقال الشهاب فى حاشيته على البيضاوى ـ عند تفسير الآية الكريمة ـ
« روى السدى رحمه الله أنهم كانوا إذا اشتد الحرب بينهم وبين المشركين أخرجوا التوراة ووضعوا أيديهم على موضع ذكر النبى ﷺ وقالوا : اللهم إنا نسألك بحق بنبيك الذى وعدتنا أن تبعثه فى آخر الزمان أن تنصرنا اليوم على عدونا ، فينصرون(١) » .

وروى الامام أحمد فى مسنده عن أبى صخر العقيلى أنه قال : حدثنى رجل من الأعراب قال : جلبت جلوبة إلى المدينة فى حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعتى قلت لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه ، قال : فتلقانى بين أبى بكر وعمر يمشون فتبعتهم فى أقفائهم(٢) حتى أتوا على رجل من اليهود ناشراً التوراة يقرؤها يعزى بها نفسه على ابن له فى الموت(٣) كأحسن الفتيان وأجمله ، فقال رسول الله ﷺ : أنشدك بالذى أنزل التوراة هل تجد فى كتابك ذا صفتى ومخرجى ؟؟

فقال برأسه هكذا ، أى : لا فقال ابنه : إنى ـ والذى أنزل التوراة ـ إنا لنجـــد فى كتابنا صفتك ومخرجك ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله(٤) !!

فقال : أقيموا اليهود عن أخيكم ، ثم ولى كفنه وحنطه وصلى عليه(٥) » .

---

(١) أنظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٢/٢٠٢ .

(٢) أى مشيت خلفهم .

(٣) أى : قارب الموت ولم يمت بعد

(٤) قال ذلك الشاب المحتضر ثم مات عقب ذلك مسلما فختم الله تعالى له بالايمان رضى الله عنه .

(٥) أنظر الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى للشيخ أحمد البنا ٢٠/٢٠٢

كذلك روى الإمام أحمد فى مسنده عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه أنه قال : إن الله عز وجل ابتعث نبيه صلى الله عليه وسلم لإدخال رجل إلى الجنة , فدخل الكنيسة فإذا هو بيهودى ، وإذا يهودى يقرأ عليهم التوراة ، فلما أتوا على صفة النبى صلى الله عليه وسلم أمسكوا ، وفى ناحيتها رجل مريض ، فقال النبى ﷺ . ما لكم أمسكتم ؟ ؟ قال المريض : إنهم أتوا على صفة نبى فأمسكوا ، ثم جاذ المريض يحبو حتى أخذ التوراة فقرأ حتى أتى على صفة النبى ﷺ وأمته فقال : هذه صفتك وصفة أمتك . أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، ثم مات ، فقال النبى ﷺ لأصحابه : لوا(١) أخاكم »(٢) .

وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن سهل مولى عثيمة : أنه كان نصرانيا ، وكان يتيما فى حجر أمه(٣) وعمه ، وأنه كان يقرأ الإنجيل ، قال : فأخذت مصحفاً(٤) لعمى فقرأته حتى مر بى ورقة فأنكرت كثافتها حين مرت بى ، ومسستها بيدى ونظرت . فإذا فضول الورقة ملصقة بغرا(٥) .

قال : ففتقتها ، فوجدت فيها نعت محمد ﷺ . أنه لا قصير ولا طويل ،

---

(١) أى : تولوا أمر أخيكم فى الإسلام رضى الله عنه وعنهم أجمعين .

(٢) أنظر : مسند الإمام أحمد ٤١٦/١

(٣) فى الخصائص الكبرى (فى حجر عمه) والمثبت هنا من السيرة الشامية ١١٩/١

(٤) المراد بالمصحف هنا معناه اللغوى وهو ما جمعت فيه الصحف أنظر القاموس المحيط ١٦٦/٣ ط الحلبى .

(٥) الغرا بفتح الغين مقصورة وممدودة : ما يلصق به .

أبيض ، ذو ضفيرتين ، بين كتفيه خاتم النبوة ، يكثر الاحتباء ، ولا يقبل الصدقة ، ويركب الحمار والبعير ، ويحلب الشاة ، ويلبس قميصا مرقوعا .

ـ ومن فعل ذلك برىء من الكبر ، وهو من ذرية إسماعيل ، اسمه أحمد ،

قال سهل : فلما انتهيت إلى هذا من ذكر محمد ﷺ جاء عمى ، فلما رأى الورقة ضربنى ، وقال لى . مالك وفتح هذه الورقة وقراءتها ؟؟ فقلت : فيها نعت بالنبى أحمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنه لم يأت بعد ،[1] .

ولقد نص للقرآن الكريم على اشتمال التوراة والإنجيل على وصف أصحاب النبى الخاتم سيدنا محمد ﷺ فى قوله تعالى شأنه :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ـ ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه افجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ،[2] .

فقد أخرج ابن إسحق وأبو نعيم ـ فى دلائل النبوة ـ عن الإمام

---

(١) أنظر : الخصائص الكبرى للحافظ السيوطى ١٥/٣ والوفا لابن الجوزى ٥٩/١ وسبل الهدى والرشاد للإمام الشامى ١١٩/١

(٢) سورة الفتح ٢٩ .

ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال . كتب رسول الله ﷺ إلى يهود خيبر .

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صاحب موسى وأخيه ، المصدق لما جاء به موسى ، ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة : وإنكم تجدون ذلك فى كتبكم — . « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم . . » إلى آخر السورة)(١) .

ومن تبشير التوراة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ما جاء فى السفر الخامس — وهو سفر الميعاد — : أن موسى عليه السلام خطب بنى إسرائيل فى آخر عمره — وذلك فى السنة التاسعة والثلاثين من سنى التيه — وذكرهم بأيام الله وأياديه عليهم وإحسانه إليهم ، وقال لهم فيما قال : —

« واعلموا أن الله سيبعث لكم نبيا من أقاربكم مثل ما أرسلنى إليكم يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر ، ويحل لكم الطيبات ، ويحرم عليكم الخبائث ، فمن عصاه فله الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة »(٢) .

ولا شك أن هذه الصفات مطابقة لما فى قوله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث . . » .

---

(١) أنظر : الدر المنثور للإمام السيوطى ٦/٨٢ — ٨٣

(٢) أنظر : شمائل الرسول لابن كثير بتحقيق مصطفى عبد الواحد ص ٣٤٣ — ٣٤٤ ط الحلبى .

وكذلك جاء فى آخر السفر الخامس ـ وهو آخر التوراة التى بأيديهم ـ « جاء الله من طور سيناء . وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران، وظهر من ربوات قدسه ، عن يمينه نور وعن شماله نار ، عليه تجتمع الشعوب » .

والمعنى : جاء أمر الله وشرعه من طور سيناء ـ وهو الجبل الذى كلم الله فيه موسى عليه السلام وأنزل فيه التوراة ـ وإشراقه من ساعير : ظهور دين المسيح عليه السلام من جبال ساعير وهى جبال بيت المقدس(١).

وأما استعلانه من جبال فاران : فهو سطوع وعلو أمره بظهور وبعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من جبال فاران وهى جبال الحجاز (مكة) ،

قال الإمام القرطبى : ولا اختلاف أن (فاران) : « مكة » وقد قال فى التوراة : « إن الله أسكن هاجر وابنها إسماعيل فاران »(٢).

ويعلق الحافظ ابن كثير على ما جاء فى تبشير التوراة المذكور آنفا بقوله :ـ

---

(١) ذكر الإمام القرطبى ــ فى الاعلام ــ أنها جبال الروم من أدوم ، وذكر ابن كثير أن ساعير هى المحلة التى كان بها عيسى عليه السلام . (أنظر المرجع السابق) .

(٢) أنظر : الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام واثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام . للإمام القرطبى المفسر بتحقيق د/ أحمد حجازى السقا : ص ٢٦٤ ط/ دار التراث العربى .

« فذكر تعالى هذه الأماكن الثلاثة على الترتيب الوقوعى ، ذكر محلة موسى ثم عيسى ، ثم بلد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولما أقسم تعالى بهذه الأماكن الثلاثة ذكر الفاضل أولا ، ثم الأفضل منه ، ثم الأفضل منه ، على قاعدة القسم فقال تعالى : « والتين والزيتون » والمراد بها : محلة بيت المقدس ، حيث كان عيسى عليه السلام ، « وطور سينين » وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى ، « وهذا البلد الأمين » وهو الذى ابتعث منه محمد صلى الله عليه وسلم .

قاله غير واحد من المفسرين فى تفسير هذه الآيات الكريمات(١) .

ونجد أيضا فى « الزبور » وهو الكتاب الذى أنزله الله على سيدنا داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام - تبشيرا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد سجل لنا القرآن العظيم ذلك فى قوله تعالى :

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »(٢) .

ففى تفسيرها : يروى ابن كثير عن الأئمة : ابن عباس والشعبى والحسن وقتادة رضى الله عنهم أجمعين : أنهم قالوا : الزبور : الذى أنزل على داوود والذكر : التوراة(٣) :

ثم يقول ابن كثير : « وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس :

---

(١) أنظر شمائل الرسول لابن كثير / ٣٤٤ ط الحلبى .

(٢) سورة الأنبياء / ١٠٥

(٣) أنظر تفسير ابن كثير ٥/٣٧٩ ط الشعب

أخبر الله سبحانه فى التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض : أن يورث أمه محمد صلى الله عليه وسلم الأرض ، ويدخلهم الجنة وهم الصالحون »(١) .

وصدق الله العظيم ، فقد نقل علماء المسلمين عن الزبور مباشرة نص البشارة مصرحا فيها باسم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نصا :

يقول الإمام القرطبى — فى الاعلام — « وفى الزبور — ترجمة وهب بن منبه - يقول الله تعالى لداوود عليه السلام - فى المزمور الخامس - « اسمع ما أقول ، ومر سليمان فليقله للناس من بعدل ، إن الأرض لى ، أورثها محمدا وأمته ، فهم خلافكم ، لم تكن صلاتهم بالطنابير ، ولا تقدسونى بالأوتار »(٢) اه

وأما بشارات الأناجيل بظهور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإنها عديدة ، منها ما جاء فى إنجيل يوحنا - ونقله الإمام القرطبى فى الإعلام - أن المسيح عليه السلام قال : —

« سينفعكم ذهابى ، لأنى إن لم أذهب لم يأتكم « البرقليط » . وإن ذهبت سأبعثه إليكم ، وإذا قدم سيعرف الدنيا بالمآثم والعدل والحكم . . » .

ثم يفسر القرطبى « البرقليط » قائلا : « فالبرقليط بالرومية(٣) : المنحمنا

---

(١) نفس المصدر ٥/٣٨٠

(٢) علق عليه المحقق د/أحمد السقا بقوله : بالمعنى ، وهو واضح فى المزمور السابع والثلاثين أنظر : الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام للإمام القرطبى ص ٢٦٨ .

(٣) أنظر الإعلام للإمام القرطبى /٢٦٨ .

(٤) فى تعليق محقق (الاعلام) على هذا النص : ذكر أن البرقليط — بكسر الباء — اسم محمد (ﷺ) وبفتحها : النائب عن المسيح عليه السلام — أقول =

بالسريانية وهو (محمد) بالعربية[٢] .

كذلك يثبت الشيخ رحمت الله الهندى مدلول هذه البشارة من الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا هكذا :

٧ (لكنى أقول لكم الحق ، إنه خير أن أنطلق ، لأنى إن لم أنطلق لم يأ ـكم الفارقليط ، فأما إن انطلقت أرسلته إليكم) .

٨ (فإذا جاء فهو يوبخ العالم على خطية وعلى بر وعلى حكم)[٣] .

كذلك ينقل موريس بوكاى هذه البشارة عن إنجيل يوحنا (١٦ : ٧ — ٨) بما نصه : —

« رحيلى فائدة لكم ، لأنى إذ لم أرحل فالبارقليط لن يأتى إليكم ، وعلى العكس فإذا رحلت فسأبعث به إليكم ، وهو بمجيئه سيدين العالم فيما يخص الخطيئة والعدل والحكم »[٤] ثم يردفه بهذه الفقرات :

« عندما سيأتى روح الحقيقة فسيجعلكم ترقون إلى الحقيقة بكاملها ، لأنه لن يتكلم بإرادته ، وإنما سيقول ما يسمع ، وسيعرفكم بكل ما سيأتى ، وسيمجدنى » (١٦ : ١٣ — ١٤)[٥]

وليس بالمراد هنا — ومعنى الرومية للغة اليونانية .. ويذكر موريس بوكاى فى دراسة (الكتب المقدسة ص ١٢٦) أنه نقل من ويعنى به اليونانية للفرنسية وسيطاً آخر .

(١) أنظر الاعلام ص ٢٦٩

(٢) أنظر إظهار الحق للشيخ رحمت الله الهندى بتحقيق د/أحمد السقا ص ٥٣٨ ط دار التراث

(٣) ، (٤) أنظر دراسة الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة لموريس بوكاى ص ١٢٦ ط دار المعارف

وعلى الرغم من تلك البشارات التي لا تزال بأناجيلكم — وهي جد عديدة — وقد نوهت بمجيء (البارقليط) أو (الفارقليط) فإننا نؤمن بقرآننا العظيم الذي صرح بأن سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام قد بشر برسولنا ﷺ باسمه (أحمد كما قال ربنا عز وجل في كتابه المبين :

« وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين »(١)

فأحمد : من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد روى الشيخان والترمذي والنسائي عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : —

« إن لي خمسة أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر . وأنا العاقب »(٢) .

و (أحمد) علم منقول من صفة لا من فعل ، فتلك الصفة : أفعل التي يراد بها التفضيل فمعنى (أحمد) أي : أحمد الحامدين لربه ، والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله ، ونبينا (أحمد) صلى الله عليه وسلم أكثرهم حمداً لله .

---

(١) سورة الصف / ٦

(٢) أنظر التخريج في الجامع الصغير للإمام السيوطي ١/٩٧ ط الحلبي ، والفتح الكبير للنبهاني ١/٤١٣

فمن أسرار تبشير سيدنا عيسى عليه السلام بنبينا ﷺ باسمه (أحمد) بالذات أن مدلول (أحمد) له التقدم الوجودى على مدلول (محمد)(١) .

ويوضح القرطبي ذلك بقوله : « ثم إنه لم يكن محمدا حتى كان أحمد . حمد ربه فنبأه وشرفه ، فلذا تقدم اسم (أحمد) على الاسم الذى هو (محمد) ، فذكره عيسى عليه السلام فقال : « اسمه أحمد » ، وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه تلك أمة أحمد ، فقال : اللهم اجعلنى من أمة أحمد(٢) ، فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد . لأنه حمده لربه كان قبل حمد الناس له »(٣) .

ولقد أخبرنا رسولنا صلى الله عليه وسلم عن تبشير الأنبياء به فى أحاديث عديدة ، منها ما رواه الامام أحمد ـ فى مسنده ـ عن أبى أمامة رضى الله عنه أنه قال :ـ

قلت : يا نبى الله : ما كان بدء أمرك(٤) ؟

قال : دعوة أبى إبراهيم وبشرى أخى عيسى ، ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام»(٥) .

---

(١) ذكر القرطبي فى تفسيره (٨٣/١٨) أن محمدا منقول من صفة وهى فى معنى محمود ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار ، فالمحمد ، هو الذى حمد مرة بعد مرة ، كما أن المكرم من كرم مرة بعد مرة .

(٢) من حديث مرفوع عن سهيل رواه أبو نعيم فى دلائل النبوة وابن الجوزى عن ابى هريرة فى الوفا ٣٩/١

(٣) أنظر تفسير القرطبي ٨٤/١٨

(٤) فسر الحافظ ابن كثير فى تفسيره (١٣٧/٨) هذا البدء بقوله : « يعنى فى الارض » . اى ظهر فى أهل مكة أثر ذلك ، ومن ثم لا يكون مطلق البدء .

(٥) أنظر : مسند الإمام أحمد ٢٦٢/٥ وتفسير ابن كثير ١٣٦/٨ ط الشعب .

أما دعوة سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام فقد سجلها القرآن الكريم فى قوله تعالى: «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم»(١).

ومرجع الضمير المجرور فى قوله تعالى «وابعث فيهم» هو الأمة المسلمة التى سبق ذكرها فى قوله تعالى: «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك..»(٢).

وقد روى الإمام الطبرى بسنده عن الربيع أنه قال فى قوله تعالى «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم»: هو محمد ﷺ، فقيل له: قد استجيب ذلك، وهو فى آخر الزمان»(٣).

وإنما دعا سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام لذريته أن يكون المبعوث منهم لا من غيرهم لعدة وجوه:

منها: أن تتبوأ ذريته المحل الأرفع فى الدين والمجد والشرف حيث يكون منها الرسول والمرسل إليه معا، بخلاف ما إذا كان الرسول من غيرهم.

ومنها: أنه إذا كان الرسول منهم فإنهم يعرفون أصله ومولده ومنشأه فيقرب الأمر عليهم فى معرفة صدقه وأمانته.

---

(٢) سورة البقرة /١٢٨

(٣) أنظر جامع البيان ٥٥٧/١ وأنظر تخريج الإمام السيوطى لهذا الأثر عن ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية، فى الدر المنثور ١٣٩/١

ومنها : أنه متى كان منهم رسولهم كان أشفق الناس عليهم وأحرص على خيرهم ممن يكون غريبا عنهم(١) .

ومن ثم فهذه الدعوة الابراهيمية تدل على مدى قوة الآصرة بين أبى الأنبياء وخاتمهم ﷺ : ولذا حق على هذه الأمة المحمدية أن تدعو فى صلاتها وتصلى على أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم وتقرن ذكره بذكر نبينا صلى الله عليهما وسلم فى التشهد لما أنه سبق أن دعا ببعث أشرف الرسل فينا ، فلما وجب للخليل على الحبيب حق دعائه له : قضى الله تعالى عنه حقه بأن أجرى ذكره على ألسنة أمته إلى يوم الدين(٢) ،

ثم إنه لما طلب سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه السلام - لذريته الأميين من فرع سيدنا إسماعيل عليه السلام بعثه رسول منهم إليهم ذكر لذلك الرسل جملة صفات :

أولها : ما تضمنه قوله تعالى : « يتلو عليهم آياتك » والمراد بالآيات هنا : إما الآيات التنزيلية وهى القرآن الكريم ، وما الآيات التكوينية ، وهى الأعلام الدالة على وجود الحق تعالى وصفاته وكمالاته ، ويكون معنى تلاوته عليهم إياها : دعوتهم إليها وتذكيرهم وحملهم على الإيمان بها .

أما التلاوة على الوجه الأول : فتشمل قراءته فى الصلاة وغيرها .

وثانيها : مافى قوله سبحانه « ويعلمهم الكتاب والحكمة » والمراد :

---

(١) أنظر مفاتيح الغيب للفخر الرازى ٧٢/٤ ط دار الفكر .

(٢) نفس المصدر .

تعليمهم ما فى القرآن الكريم من الدلائل والأحكام والحقائق والأسرار.
فمجمل الصفتين : أنه صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم الكتاب ويأمرهم تلاوته ويعلمهم معانى التنزيل وحقائقه(١).

وثالثها : تعليم الحكمة « والحكمة » قال المفسرون فى معناها أقوالا عديدة.

فقد روى الإمام الطبرى عن سيدنا قتادة. كما أخرج ابن أبى حاتم عن الإمام الحسن أنها السنة(٢).

وهذا متجه إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه فى تفسير الحكمة، إذ نقل الفخر عن الشافعية استدلالهم لذلك بقولهم : « والدليل عليه : أنه تعالى ذكر تلاوة الكتاب أولا وتعليمه ثانيا ثم عطف عليه الحكمة، فوجب أن يكون المراد من الحكمة شيئا خارجا عن الكتاب، وليس ذلك إلا سنة الرسول عليه السلام »(٣).

أما عند الإمام مالك رضى الله تعالى عنه : فيروى الإمام الطبرى عن ابن وهب أنه قال : قلت لمالك : ما الحكمة؟ قال : المعرفة بالدين، والفقه فى الدين، والاتباع له(٤).

---

(١) نفس المصدر ٧٣/٤

(٢) أنظر جامع البيان ١ / ٥٥٧ وأنظر الدر المنثور للامام السيوطى ١٣٩/١.

(٣) أنظر مفاتيح الغيب ٧٣/٤

(٤) أنظر جامع البيان ٥٥٧/١ والمصدر السابق.

كما يروى الطبرى عن ابن وهب أنه قال : « قال ابن زيد فى قوله : « والحكمة » الحكمة : الدين الذى لا يعرفونه إلا به صلى الله عليه وسلم يعلمهم إياها . — قال — : والحكمة : العقل فى الدين ، وقرأ « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا »(١) .

وقال العيسى : « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل »(٢) .

قال: وقرأ ابن زيد : «واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها»(٣) .

قال : لم ينتفع بالآيات حيث لم تكن معها حكمة . — قال — والحكمة : شىء يجعله الله فى القلب ينور له به »(٤) .

وأما الصفة الرابعة : فهى التزكية : « ويزكيهم » وقد فسرها الإمام الحسن وابن جريج بأنها : التطهير من الشرك بالله(٥) وقد علق الإمام الفخر على هذا التفسير بقوله :

« فدلت الآية على أنه سيكون فى ذرية إسماعيل جهال لا حكمة فيهم ولا كتاب ، وأن الشرك ينجسهم ، وأنه تعالى يبعث فيهم رسولا منهم يطهرهم ويجعلهم حكماء الأرض بعد جهلهم » .

أما الإمام ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما — فقد فسر التزكية

---

(١) سورة البقرة / ٢٦٩

(٢) سورة آل عمران/٤٨

(٣) سورة الأعراف/١٧٥

(٤) أنظر جامع البيان ٥٥٧/١

بالطاعة لله تعالى والإخلاص (١) تلك هى صفات الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم كما صورتها دعوة أبينا إبراهيم الذى سمانا المسلمين واستجابها رب العالمين فبعث سيد المرسلين سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم محققا لها ومؤكدا لمدلولها قائلا « أنا دعوة إبراهيم وكان آخر من بشر بى عيسى ابن مريم »(٢) .

---

(١) ، (٢) نفس المصدر ٥٥٨/١ ومفاتيح الغيب ٧٤/٤

(٣) خرجه الإمام السيوطى فى الجامع الصغير عن ابن عساكر عن عبادة بين الصامت ورمز له بالحسن أنظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للحافظ المناوى ٤٦/٣

الفصل الثانى

حالة العالم قبل البعثة المحمدية

كان العالم لدى مطلع الثلث الأخير من القرن السادس الميلادى قد بلغ سحيق الضياع حيث استبدت به أسباب الفساد من كل جانب ، واكتنفته الظلمة القاتمة : وعصفت به رياح الشرك والكفران ، فتداعى بناؤه العقدى والخلقى ، وتردى فى جاهلية عمياء ووثنية حمقاء ، وصار يترقب الهدم الذى يعقبه البناء ، إذ عمه الفساد فى كل الأرجاء ، كما قال عز شأنه: « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون »(١) .

فقد روى الإمام الطبرى — فى تفسيره — عن سيدنا قدادة رضى الله عنه أنه قال :

« هذا قبل أن يبعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، امتلأت ضلالة وظلما ، فلما بعث الله نبيه . رجع راجعون من الناس »(٢) .

وروى القرطبى عن الإمامين قتادة والسدى تفسير الفساد فى الآية الكريمة بقولهما : « الفساد : الشرك ، وهو أعظم الفساد »(٣) .

---

(١) سورة الروم / ٤١

(٢) انظر جامع البيان ٤٩/٢١ ط الحلبى .

(٣) انظر : تفسير القرطبى ٤٠/١٤

ويؤيد هذا التفسير تقفية الآية الكريمة بما يفيد سببية الشرك لما حاق بالأمم السابقة المكذبة من دمار شامل وهلاك محقق، إذ قال تعالى :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين »(١) .

كان الفساد والانحلال يكتنفان أرجاء المعمورة ، والعالم يتخبط فى ظلمات الكفر والظلم والباطل والضلال ، وكان ضمير الإنسانية المعذبة يستصرخ السماء لإرسال المنقذ الذى يخلصها من كل ذلك ، آملا أن تكون شدة الظلام إيذانا ببزوغ الفجر ! !

فإذا نظرنا إلى الأحوال الدينية السائدة فى العالم قبل الرسالة المحمدية: وجدنا ظلاما حالكا فى مختلف الأرجاء، حيث التبديل والتحريف فى العقائد والكتب السماوية السابقة وأضغاث عقدية زج بها الشيطان فى قلوب وعقول أخلدت إلى الأرض وانقطعت صلتها بالسماء فكانت أضل من الأنعام وأمعن فى التحجر من الأصنام .

وإليك حال بلاد الفرس فى المشرق : كانت من قديم مهداً للمجوسية ، فقد دان أهلها بإله قديم للنور سموه (يزدان) وبإله آخر مخلوق من الظلمة سموه (أهرمن) ، فيزدان عندهم : هو الله تعالى ، وأهرمن هو إبليس ، وكان أصل دينهم مبنيا على تعظيم النور والتحرز من الظلمة ، فأدى تعظيمهم للنور إلى عبادتهم للنار ، وظلوا كذلك حتى ظهر فيهم (زرادشت) الذى جاء بدين جديد قال فيه بإله واحد اسمه (أرمزد) وهو خالق النور والظلمة وأن يزدان وأهرمن هما : مبدأ موجودات العالم ، وقد حصلت التراكيب

---

(١) سورة الروم /٤٢

من امتزاجهما(١) . وقد ذكر الشهاب النويري : أن زرادشت هذا ـ الذي تزعم الفرس أنه نبيها ـ كان خادم شعيا ، فدعا شعيا عليه فبرص ، وكان صاحب نيرجات وسحر(٢) .

ثم جاء (ماني) الذي جاء بعد المسيح عليه السلام وأحدث دينا بين المجوسية والنصرانية فزعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة وأنهما أزليان لم يزالا ولن يزالا وبذا تعد المانوية فرعا من ديانة (الثنوية) التي يقول معتنقوها بأزلية الاثنين النور والظلمة(٣) وكان ماني يذهب إلى أن امتزاج الظلمة بالنور في هذا العالم شر ومن ثم حرم النكاح ليستعجل بقطع النسل فناء العالم(٤) . ومن العجيب أن مذهب ماني هذا قد عاش حتى القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي برغم مالقي من اضطهاد ، ومما يذكره ابن النديم أن بعض الزنادقة المتظاهرين بالإسلام كان على هذا المذهب وعد نفراً منهم صالح بن عبد القدوس والشاعر بشار بن برد وأبو عيسى الوراق(٥) .

وبعد ماني جاء (مزدك) الذي دعا إلى مذهب ثنوي جديد ، فكان

---

(١) انظر المختصر في أخبار البشر لأبي الفدا ١/٨٣ والملل والنحل للشهرستاني ٣/٦٠ط صبيح .

(٢) انظر نهاية الأرب ١٥/١٦٩ .

(٣) انظر : الملل والنحل للشهرستاني في ٣٠/٦٤ — ٦٥ ونهاية الارب ١٥/١٦٨ وفجر الإسلام/١٠٨

(٤) انظر الفهرست لابن النديم/ ٦٥ وفجر الإسلام/١٠٥

(٥) « « « « /٤٧٢ « « /١٠٤

يقول بقول المانوية فى الأصلين القديمين ، بيد أنه كان يقول إن النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق، وقد تمخضت عبقريته عن القول بأن أكثر المباغضة والخلاف والقتال إنما يقع بسبب النساء والأموال ومن ثم لابد أن يشترك الناس فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ ، فأحل النساء وأباح الأموال ، كما يحكى أنه أمر بقتل الأنفس ليخلصها من الشر ومزاج الظلمة(١) !! إنها شيوعية الأعراض والأموال(٢) !!

تلك آراء مزدك الذى ظهر فى أيام قباذ والد أنو شروان الذى حضر بعثة النبى ﷺ وتلقى رسالته بالسخط والوعيد (٣) .

لقد انحدرت بلاد الفرس بتأثير آراء مزدك إلى الحضيض اللا أخلاقى وهوت معه السلطة الحاكمة الممثلة فى (قباذ) وأعوانه إلى الدرك الأسفل من الفوضى الخلقية والانغماس فى الشهوات كما اغتنم الدهماء من سفلة المجتمع ذلك لتسعير شهواتهم وإطلاق غرائزهم الحيوانية إذ يقول الطبرى : « افترص السفلة ذلك واغتنموا وكاتفوا مزدك وأصحابه ، وشايعوهم فابتلى الناس بهم ، وقوى أمرهم حتى كانوا يدخلون على الرجل فى داره فيغلبونه على منزله ونسائه وأمواله لايستطيع الامتناع منهم ، وحملوا قباذ على تزيين ذلك ، وتوعدوه بخلعه ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستانى ٣/٧٤ .

(٢) لقد علق أحمد أمين على تعاليم مزدك (ص ١١٠) بقوله : (فترى من هذا : أن تعاليمه اشتراكية من أسبق الاشتراكيات فى العالم » .

(٣) انظر مطلع النور للعقاد ص ٤٤ ط الهلال .

صاروا لا يعرف الرجل ولده ولا المولود أباه ولا يملك الرجل شيئا مما يتسع به » (١) .

وكان الفرس ينظرون لأكاسرتهم نظرة تأليه وعبادة ، لادعاء أولئك الملوك الأكاسرة أنهم يجرى فى عروقهم دم إلهى ، ومن ثم كانوا يكفرون لهم ويتغنون بألوهيتهم ويرون تاج الحكم حقا لهم وحدهم بحيث لا يلبسه أحد من خارج «البيت الكيانى» ولو افتقدوا كبيراً من أسرة هذا البيت ملكوا عليهم طفلا أو امرأة كما حدث فعلا إذ ملكوا أزدشير بن شيرويه وهو ابن سبع سنين . وملكوا أبوران بنت كسرى (٢) وهيهات أن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ! !

هذا هـو الحال فى بلاد الفرس التى شاطرت الروم فى حكم العالم فى القرن السادس الميلادى . انحلال عقدى وهدم خلقى وعبث فى نظام الحكم . وتيارات من الفوضى والشيوعية الماجنة وبعد سحيق عن قانون السماء .

ثم فى الشرق الأقصى : تجد الصين فى القرن السادس تسودها ديانات ثلاث :

إحداها : ديانة «لاوتسو» الهابطة إلى وتنيه حمقاء يعزف أتباعها عن الزواج فلا ينظرون إلى المرأة أصلا زهداً وتقشفا ، ويهيمون فى أوهام نظرية لا تصلح أساسا لحياة رشيدة أو لحكم سديد .

---

(١) انظر الطبرى ٢/٨٨

(٢) نفس المصدر

وثانيتها : ديانة «كونفشيوس» الذى انحصرت تعاليمه فى تدبير الأمور الدنيوية المادية والسياسية والإدارية ، ووصل الأمر بأتباعه إلى عدم التقيد بعبادة إله معين ، يعبدون مايشاءون من الأشجار والأنهار ! !

وأما الثالثة : فهى البوذية ، التى لم يزل وجود الإله والإيمان به فيها موضع شك عند مؤرخى هذه الديانة ومترجمى مؤسسها ، والتى ابتلعتها البرهمية الموتورة فتحولت إلى وثنية خرقاء تحمل معها الأصنام حيث سارت ، كما أعتقدت (بوذا) مظهرا للآلهة ، وتسرب السحر إلى طقوسها وامتزج بأوهامها الضاربة فى الضلال البعيد[1] .

وأما الهنـــد :

فقد أجمع المؤلفون فى تاريخها على أن أحط أدوارها ديانة وخلقا واجتماعا ذلك العهد الذى يبتدىء من مستهل القرن السادس الميلادى فلم تبلغ الوثنية ما بلغته فى هذا القرن إذ بلغ عدد الآلهة ثلاثين وثلاثمائة مليونا ! !

فقد كان كل شىء يروق لهم يعبدوه فكان من معبوداتهم أشخاص تاريخية زعموا تمثل الله ـ وحاشاه ـ فيها ، وكان منها جبال ومنها معادن ـ كالذهب والفضة ـ زعموا تجلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها ، وكان منها نهر الكنج الذى يزعمون أنه خرج من رأس الإله «مهاديو» ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل والحيوانات ـ ولا سيما البقرة ـ والأجرام الفلكية .

---

(١) أنظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوى / ٤٤ — ٤٦ :

ولقد حكى الرحالة الصينى « هوئن سوئنج » الذى قام برحلته بين عامى ٦٣ ، ٦٤٧ م بعض أحداث الاحتفال الذى أقامه الملك « هرش » - الذى حكم الهند من عام ٦٠٦ إلى عام ٦٤٧ م مقال : « أقام الملك احتفالا عظيما فى قنوج ، اشترك فيه عدد كبير جدا من علماء الديانات السائدة فى الهند ، وقد نصب الملك تمثالا ذهبيا لبوذة على منارة تعلو خمسين ذراعا ، وقد خرج بتمثال آخر لبوذة أصغر من التمثال الأول فى موكب حافل قام بجنبه الملك « هرش » بمظلة ، وقام الملك الحليف « كاموروب » يذب عنه الذباب »[٢] .

وإلى جانب الوثنية المتطرفة فى الهند كان الانحطاط الخلقى على أشده حيث دخلت المواد الجنسية والمهيجات الشهوية فى صميم الديانة الهندية ، وبلغ التسفل مبلغا يندى الجبين لمجرد الحديث عنه ، فقد تناقلت الكتب الهندية أنباء اختلاط الجنسين من الآلهة ! ! .

وأدهى من ذلك وأمر : شيوع عبادة آلة التناسل لإلههم الأكبر « مهاديو » ! ! وبعض المؤرخين يذكر أن رجال بعض الفرق الهندية كانوا يعبدون النساء العاريات والنساء يعبدن الرجال العراة[٢] ! !

وشاع الفحش لدى كهنة المعابد الفسقة حتى ضجت المعابد من فسقهم

---

(١) نفس المصدر ص ٤٨ نقلا عن رحلة هوئن سوئنج « فوكوكى » الدول الغربية :

(٢) نفس المصدر ص ٤٩ نقلا عن كتاب : « ستيارته بركاش) لديانند سرسوتى الهندكى ص ٢٤٤

وزناهم بالراهبات والزائرات وإدارتهم بيوت العبادة لعبادة الجنس(١) . غفرانك اللهم ! !

كذلك كان النظام الاجتماعى للهند فى القرن السادس على نفس مستوى الجانبين الدينى والأخلاقى فى الانحدار والاضمحلال ، حيث عانت الأمة الهندية من ضراوة النظام الطبقى المستبد ، حيث كان ثمة طبقات أربع : أعلاها طبقة البراهمة وقد كفل لهم قانون البلاد المسمى (منوشاستر) حقوقا ألحقتهم بالآلهة فقرر أن ما فى العالم ملك لهم ، وأن البرهمى الذى يحفظ الكتاب المقدس مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله .

ثم يلى البراهمة طبقة رجال الحرب ، ويليهم طبقة رجال الزراعة ، ثم تقبع الطبقة الرابعة ـ وهى طبقة رجال الخدمة ـ فى الحضيض الأدنى فكانوا ـ بنص القانون ـ أحط من البهائم وأذل من الكلاب(٢) ! !

وكانت المرأة فى المجتمع الهندى دون منزلة الإماء تقتات ذلا ومهانة ، وتفتقد كرامة الآدمية ، فقد كان الرجل يخسر امرأته فى القمار ! ! كما كان للمرأة ـ فى بعض الأحيان ـ عدة أزواج ! ! فإذا مات زوجها أصبحت كالموءودة لا تتزوج ، وكثيرا ما كانت تحرق نفسها إثر وفاة زوجها تخلصا عما ينتظرها من شقاء وعذاب(٣) .

هذا هو حال بلاد الهند قبل البعثة المحمدية ! ! ظلمات بعضها فوق بعض .

---

(١) أنظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٤٩

(٢) نفس المصدر — ٥١٤٩

(٣) نظر . نفس المصدر ص ٥٢

وكذلك رزحت الأمم الأخرى فى آسيا الوسطى وفى الشرق ـ مثل المغول والترك واليابانيين ـ تحت ظلام الوثنية الموبقة والبوذية الضالة ، يعبث الشيطان بعقائدها وأخلاقها ما وسعه العبث : حيث لا بصيص من نور السماء ولا مخرج لها من الظلماء .

وأما أمة اليهود : التى تفرقت فى البلاد بعد الخراب الثانى لبيت المقدس على يد ملك الروم(١) وامتزجت بعد بأجناس العرب والروم والفرس ، وانتشرت فى ربوع آسيا وأفريقيا وأوربا : فقد آلت عقيدتهم ـ بعد قيام المسيحية فى معقـــل اليهودية الرئيسى ـ إلى الجمود والتحجر حيث ادعى اليهود أن الشريعة لا تكون إلا واحدة ، وهى ابتدأت بموسى ـ عليه السلام ـ وتمت به فلا يكون بعده شريعة أخرى(٢) .

ومن ثم : كان اليهود وقد رأوا أن الانجيل النازل على المسيح ـ عليه السلام ـ لم يختص أحكاما ولا استبطن حلالا وحراما ، ولكنه رموز وأمثال ومواعظ ومزاجر ، وما سواها من الشرائع والأحكام فمحال على التوراة : لذلك كانوا غير معترفين بنبوة سيدنا عيسى عليه السلام وادعوا أنه كان مأمورا بمتابعة سيدنا موسى عليه السلام وبموافقة التوراة فغير وبدل ، وعدوا عليه من تلك التغييرات : تغيير يوم السبت إلى الأحد ، وتغيير أكل الخنزير — فى زعمهم ـ وكان حراما فى التوراة ، ومنها الختان والغسل وغير ذلك(٤) .

---

(١) أنظر تفسير القرطبى ٢٢٢/١٠

(٢) أنظر الملل والنحل للشهرستانى ١٤/٣ ط صبيح .

(٣) نفس المصدر .

(٤) أنظر الملل والنحل للشهرستانى ١١/٣

والحق فى شأن اليهود : هو الذى أنزله ربنا عز وجل فى قرآنه العظيم معددا قبائحهم وفضائحهم ومبينا فسادهم فى الأرض وعبثهم التوراة تحريفا وتبديلا وإخفاء وكذبا على الله مما أحل بهم اللعنة والغضب من الله تعالى ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة بكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق ، فكانوا مضرب المثل فى الغدر والختل والنفاق والأثرة . والنهم بالمال والضراوة بالدم الإنسانى ، وقد أبرز القرآن الكريم كل هاتيك الصفات لا سيما جرأتهم على الذات العلية بأبشع الأضاليل والافتراءات ، وجسد التنزيل ما كانوا عليه فى القرنين السادس والسابع الميلاديين من تدهور عقدى وخلقى وفساد فى الأرض .

فقد خاطب الحق تعالى - فى القرآن الكريم - رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين الطامعين فى إيمان اليهود بقوله سبحانه « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون »[1] ؟ ؟

أجل : ما أشبه الليلة بالبارحة ! !

لقد أخذ بنو إسرائيل على عاتقهم تحريف التوراة وتزييف الوحى ، ثم هم من بعد يتهمون المسيح - على نبينا وعليه السلام - بالتبديل فى التوراة ! ! وأنى لهم أن يفلتوا من هيمنة القرآن على كتب الله وتنديده بمن بدل فيها وحرف ! ! لقد كشفهم كتاب الله الخاتم وقال فيهم : —

« من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا

---

(١) سورة البقرة /٧٥

وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا »(١) .

كما حكى التنزيل جراءتهم على الله تعالى ووصفهم له — سبحانه وتعالى عن وصفهم وقولهم علوا كبيرا — بالبخل والعجز بأبشع صورة إذ قال عز من قائل :

« وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين »(٢) .

لقد جسدت هذه الآية الكريمة العديد من مخازيهم وأبرزها عقيدتهم فى الله تعالى ، فإن حملت اليد فى قولهم « يد الله مغلولة » على الحقيقة — وهى الجارحة — فقد أبرزت جانبا من عقيدتهم فى الذات الإلهية وهو التجسيم ، وإذا ما حملت اليد على المجاز بأن أرادوا بغل اليد المجاز عن البخل : فقد أبرزت عقيدتهم فى الصفات .

وفى تفسير الآية الكريمة يقول الإمام أبو حيان « وظاهر قول اليهود إن لله يدا فإن كانوا أرادوا الجارحة فهو مناسب مذهبهم إذ هو التجسيم ؛ زعموا أن ربهم أبيض الرأس واللحية ، قاعد على كرسى ، وزعموا أنه فرغ من خلق السموات والأرض يوم الجمعة ، واستلقى على ظهره

---

(١) سورة النساء /٤٦

(٢) سورة المائدة/٦٤

واضعا إحدى رجليه على الأخرى للاستراحة ، ورد الله تعالى ذلك بقوله « ولم يعى بخلقهن » (١) ، « ومامسنا من لغوب » (٢) .

وظاهر مساق الآية : يدل على أنهم أرادوا بغسل اليد وبسطها : المجاز عن البخل والجود » (٣) .

ولقول اليهود هذه لقاله الشنعاء فى حق الله — تعالى عن قولهم — أسباب ومعان ذكرها العلماء منها مايدل على أن ذلك صدر منهم من قديم ومنها مايدل على صدوره منهم بعد مبعث النبى الخاتم ﷺ .

فمن القبيل الأول : ماروى عن الإمام الحسن من أن المعنى : مغلولة عن عذابهم إلا تحلة للقسم بقدر عبادتهم للعجل ، فهى فى معنى قولهم ، نحن أبناء الله وأحباؤه ! !

وكذلك ماروى عن الامام قتادة أنه قال : لما أعان النصارى بختنصر المجوسى على تخريب بيت المقدس قالت اليهود : لو كان صحيحاً لمنعنا منه فيده مغلولة (٤) !!

ومن القبيل الثانى ماروى عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما

---

(٢) جزء من الآية ٣٣ من سورة الأحقاف وصدرها : « أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى . . »

(٢) جزء من الآية ٣٨ من سورة (ق) وهى . « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » .

(٣) أنظر . تفسير البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ٣/٥٢٢ — ٥٢٣

(٤) هذان الوجهان ذكرهما أبو حيان فى نفس المصدر السابق وعقب عليهما بقوله (وهذان القولان يدفعهما قوله « بل يداه مبسوطتان » .

أن الآية نزلت فى فنحاص رأس يهود قينقاع . وعن مقاتل أنها نزلت فى فنحاص وابن صوريا وعازر بن أبى عازر قالوا ذلك ونسبت إلى اليهود لأن هؤلاء علماؤهم وهم أتباعهم (١) .

ومن جملة ذلك يؤخذ أن هذا الافتراء على الله تعالى هو دأب اليهود منذ نزلت لهم التوراه إلى أن نزل القرآن فأضحالهم ومنددا بمعتقدهم فى الذات الأقدس .

ثم يقـول الحق تعالى فيهم « وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » والضمير فى قوله « بينهم » إما عائد على اليهود والنصارى لأنه جرى ذكرهم فى قوله تعالى « لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء » (٢) ، وقيـل : الضمير عائد على اليهود . والمراد : وقوع العداوة بين فرقهم ، فإن بعض اليهود جبرية وبعضهم قدرية ، وبعضهم موحدة ، وبعضهم مشبهة (٣) .

ثم يقوله الله تعالى : « كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله » ! !

قال الفخر فى تفسيرها : « وهذا شرح نوع آخر من أنواع المحن عند اليهود » وهو أنهم كلما هموا بأمر من الأمور رجعوا خائبين خاسرتن مقهورين ملعونين كما قال تعالى : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا .. » (٤) .

قال قتادة : لاتلقى اليهود ببلدة إلاوجدتهم من أذل الناس (٥) ! !

---

(١) أنظر البحر المحيط ٣/ ٥٢٢ وانظر الدر المنثور للامام السيوطى ٢/ ٢٩٦ :

(٢) سورة المائدة / ٥١

(٣) أنظر مفاتيح الغيب للأيام الرازى ١٢/ ٤٨ ط دار الفكر

(٤) سورة آل عمران . من الآية / ١١٢

(٥) نفس المصدر الأسبق الفخر

ثم بين القرآن الكريم دأب اليهود منذ مبدئهم حتى رسالة النبى ﷺ بل وإلى ماشاء الله لوجودهم بقوله تعالى « ويسعون فى الأرض فساداً » .

يقول القرطبى : « وقيل : إن اليهود لما أفسدوا وخالفوا كتاب الله — التوارة — أرسل الله عليهم بختنصر ، ثم أفسدوا فأرسل عليهم بطرس الرومى ، ثم أفسدوا فأرسل عليهم المجوس ثم أفسدوا فبعث الله عليهم المسلمين ، فكان كلما استقام أمرهم شتتهم الله ، فكلما أوقدوا نارا ، أى : أهاجوا شرا ، وأجمعوا أمرهم عل حرب النبى ﷺ : أطفأها الله ، وقهرهم ووهن أمرهم ، فذكر النار مستعار ، قال قتادة : أذلهم الله عز وجل ، فلقد بعث الله النبى ﷺ وهم تحت أيدى المجوس » (١) .

ومن جرائم اليهود التى سجلها عليهم القرآن الكريم نقضهم للعهود والمواثيق وكفرهم بآيات الله وقتلهم للأنبياء الذين بعثهم الله لإصلاحهم ، وطعنهم فى أم المسيح — عليهما السلام — بالزنا ، وزعمهم قتل سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام : « فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم . . » (٢)

أرأيت إلى أولئك المفسدين كيف حالهم مع ربهم ومع أنبيائهم ؟ ؟ لقد أخرج أبو داود الطيالسى وابن أبى حاتم عن الإمام ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « كانت بنو إسرائيل فى اليوم تقتل ثلاثمائة نبى ثم يقيمون سوق بقلهم فى آخر النهار » (٣) ! !

---

(١) أنظر تفسير القرطبى ٦/٢٤٠ — ٢٤١

(٢) سورة النساء/١٤٤ — ١٥٧

(٣) أنظر التخريج فى الدر المنثور ١/٧٣ وتفسير ابن كثير ١/١٤٦

إزاء التمرد الوحشي وأنها لقسوة القلوب التي هي أشد قسوة من الحجارة!

ولقد وصفهم القرآن الكريم بأدق وصف لهم إزاء كتابهم (التورة) في قوله تعالى: «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين» (١) وصدق الله، وكيف لا يكون حمارا من اتخذ العجل إلها (٢)!

ولقد كانوا على علم بمبعث سيدنا رسول الله ﷺ — إذ كانوا يجدون صفته ونعته في التوراة كما بينا من قبل، فلما ظهر ﷺ: كتبت يهود المدينة إلى يهود خيبر: إن اتبعتموه أطعناكم، وإن خالفتموه خالفناه، فقالوا لهم: نحن أبناء خليل الرحمن، ومنا عزير بن الله والأنبياء، ومتى كانت النبوة في العرب نحن أحق بها من محمد، ولا سبيل إلى اتباعه، وكانوا يقولون (نحن أبناء الله وأحباؤه) فنزل قول الله تعالى: «قل يا أيها الذين هادوا: إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين» (٣)

ذلك هو حال اليهود كما يتراءى من نصوص التنزيل عرضنا له إجمالا، ولو رمنا تفصيل ما قصه القرآن الكريم وبينه من أحوالهم وفسادهم في الأرض لاقتضى ذلك مجلدات ومجلدات، بيد أن فيما أوردناه دلالة على طابع أحوالهم الممعنة في الفساد والضلال البعيد. وقد يقضى المقام فيما بعد عودا على بدء.

---

(١) سورة الجمعة /٥

(٢) قال تعالى: «واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار..» سورة الأعراف /١٤٨

(٣) سورة الجمعة /٦ — ٧

وأما أمة النصارى الذين انتشر دينهم فى بلاد الروم وأوربا الغربية وبلاد الشام ومصر والحبشة فقد فعلت مذاهبهم العقدية بدين المسيح على نبينا وعليه السلام مثلما فعل اليهود بدينهم من التحريف والتبديل والتغيير ، فقد صرحت الملكائية (١) بالتثليث ، وقد أخبر الحق تعالى عنهم بقوله « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم »(٢)

وقال اليعقوبية (٣) : إن الكلمة انقلبت لحما ودما فصار الإله هو المسيح، وقد أخبر عنهم القرآن الكريم بقوله : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم :.» (٤)

وقالوا بالأقانيم الثلاثة كالنسطورية (٥) ومذهبهم فيها هو مذهب المجوس ، إذ ينسبون الشرور كلها للشيطان (٦) كما امتزجت بالمسيحيه خرافات الوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية ، والمانوية الفارسية

---

(١) هم أصحاب ملكا الذى ظهر ببلاد الروم واستولى عليها فأصبح غالب الروم ملكائية) أنظر الملل والنحل للشهرستانى ٣٣/٣

(٢) سورة المائدة /٧٣

(٣) هم أصحاب يعقوب البردعاى وكان راهبا بالقسطنطينية (أنظر المختصر لابى الفدا ٩٠/١)

(٤) سورة المائدة / ٧٣

(٥) هم أصحاب نسطور وقد كان بطريقا للقسطنطينية فى بعض أيامه ومات فى منفاه حوالى سنة ٤٥٠ م أنظر فجر الاسلام / ١٢٥وهو عند النصارى كالمعتزلة عندنا والأقنوم هو الشىء المستغنى بذاته القائم بشخصه والأقانيم الثلاثة هى القدرة والعلم والحياه (الإعلام للقرطبى ص ٦٣

(٦) أنظر : الإعلام للقرطبى /١٦٦

والأباطيل اليونانية التى تلاشت فى عبابها التعاليم الحقيقية للمسيح — على نبينا وعليه السلام - فأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية مضادة للعقل وحائلة بين الأنسان وفكره حتى شهد أهلها أنفسهم بذلك ، فقد وصف جورج سيل مترجم القرآن الكريم إلى الانجليزية حال نصارى القرن السادس الميلادى بقولة : « وأسرف المسيحيون فى عباده القديسين والصور المسيحية حتى فاقوا فى ذلك الكاثوليك فى هذا العصر » (١)

ولقد بلغ الخلاف الدينى مداه فى القرن السادس حتى كانت هناك حرب أهليه دينية فى الدول الرومية نتيجة للخلافات المذهبية المستعرة والمجادلات الكلامية العقيمة التى تحولت إلى حروب داعية وقتل وتدمير وأصبحت المدارس والكنائس ، والبيوت معسكرات دينية منافسة .

كما اشتد الصراع المذهبى المسيحى فى القرنين السادس والسابع بين نصارى الشام والدولة الرومية حيث يسود المذهب الملكانى وبين نصارى مصر حيث المذهب المنوفيسى ، ونترك تصوير هذا الصراع للدكتور الفرد . ج . بتلر إذ يقول : —

« إن ذينك القرنين كانا عهد نضال متصل بين المصريين والرومانيين ، نضال يذكيه اختلاف فى الجنس واختلاف فى الدين ، وكان اختلاف الدين أشد من اختلاف الجنس ، إذ كانت علة العلل فى ذلك الوقت تلك العداوة بين الملكانية والمنوفيسيه .

وكانت الطائفة الأولى — كما يدل عليها أسمها — حزب مذهب الدولة الإمبراطورية وحزب الملك والبلاد ، وكانت تعتقد العقيدة السنية الموروثة وهى ازدواج طبيعة المسيح ، على حين أن الطائفة الأخرى — وهى حزب

(١) أنظر : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين /٢٨

القبط المنوفيسيين أهل مصر — كانت تستبشع تلك العقيدة وتستفظعها وتحاربها حربا عنيفة فى حماسة هو جاء يصعب علينا أن نتصورها أو نعرف كنهها فى قوم يعقلون ، بله يؤمنون بالإنجيل » (١) .

ومرة أخرى نترك تصوير الحالة التى بلغتها المسيحية فى القرن السادس الميلادى : لأحد علماء الغرب المنصفين وهو السير توماس أرفولد إذ يقول فى وصف النظام الكنسى البيزنطى : « كان يمثل الإمبراطور ورجال بلاطه صورة من الجلالة الإلهية فى الأعالى ، وينظر إلى الإمبراطور نفسه لا على أنه الحاكم الدنيوى الأعظم فحسب . بل على أنه الكاهن الأكبر كذلك . وفى عهد (جستنيان) (٢) نرى هذا النظام يزداد تعسفاً حتى يستحيل استبدادا يجثم بأثقاله الحديدية على رجال الكنيسة والعامة على السواء .

وفى سنة ٥٣٢ م . انفجر السخط الذى كان سائدا فى القسطنطينية على الكنيسة والدولة معا . وتحول ثورة على حكومة جستنيان لم تقمع إلا بعد أن ذبح خمسة وثلاثون ألف شخص !!

أما حرب الجرين — الذى كان أسمه يطلق على جماعة المتذمرين — : فقد وضعوا فى ناديهم احتجاجا قويا صريحا على اضطهاد الإمبراطور ونادوا قائلين : « لقد فقد العدل من الدنية ، ولن يكون مرة أخرى ، وسنتهود ، بل : سوف نعود إلى الوثنية الإغريقية ! !

---

(١) أنظر : نفس المصدر .

(٢) كان جوستنيان — الذى توفى قبل ميلاد النبى ﷺ بست سنوات أى سنة ٥٦٥م — يزعم أنه الرئيس الأعلى الروحى والدنيوى للديانة المسيحية وهو الذى عظمت اساءته لها وللإنسانية معا كما يشهد بذلك كتاب الغرب . (أنظر الدعوة إلى الاسلام لأرنولد ص ٩١) .

«إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس ، وضرائب أخرى كثير العدد . . مما لا شك فيه أوضرائب الروم كانت فوق الطاقة ، وكانت تجرى بين الناس على غير عدل»(١) .

إنه الضياع الكامل يجثم على رقعة الكنانة فى فترة من أحلك فترات تاريخها إن لم تكن أحلكها على الإطلاق !.!

ثم ماذا عن أوربا فى ذلك العهد ؟؟ قتام وظلام ، وتخبط وثنى ينقلب إلى تنصر معتم منحرف عن هدى السماء ، وهمجية وحشية تعربد فى مختلف العواصم الذى عرفت من قبل بريق الحضارة ثم تردت فى الظلام فسول لها الشيطان أن العلم خروج على الدين وأن فى التخلف السلامة والأمن فكانت تهاب البحر وتعمل لعفاريت الجن ألف حساب ! !

فغشاها ظلام الجهل والفوضى والفساد ، واستمع إلى «روبرت بريفلت» إذ يقول : « لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر , وكان هذا الليل يزداد ظلاما وسوادا ، قد كانت همجية ذلك العهد أشد هولا وأفظع من همجية العهد القديم لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت وقد انطمس معالم هذه الحضارة وقضى عليها بالزوال .

وقد كانت الأقطار الكبيرة التى ازدهرت فيها هذه الحضارة ، وبلغت أوجها فى الماضى ، كإيطاليا ، وفرنسا ، فريسة الدمار والفوضى والخراب(٢) .

ويقول (ويلز) : « ولم تكن فى أوربا الغربية فى ذلك العهد أمارات

---

(١) أنظر ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٣٣

(٢) نفس المصدر ص ٣٤

ألوحدة والنظام ،(١) تلك حالة أمم أوربا الضاربة فى الشمال والغرب ، منيت بتعقيد العقائد أولا فأفقدتها الخلافات المذهبية الجامحة توازنها العقدى والفكرى ، بل طمس القمع القيصرى والنزاع الكنسى كل معلم يهدى إلى الحقيقة ، حيث كانت القياصرة عندهم آلهة يسجد لها(٢) .

ومنيت سائر البلاد الأوربية بانتكاس حضارى لدى القرن السادس لاسيما تلك التى نالت فى الماضى حظا موفورا منها ، كما ترددت .

ثالثا : فى مهاوى التخاذل العلمى واللجوء إلى الخرافات والشعوذة والتحجير على العقل وتجريم الابتكار والإبداع ، أضف إلى ذلك ما ساد أوربا من تفسخ وانحلال اجتماعى وخلقى ، وإهدار للكرامة الآدمية تحت وطأة الهمجية الغابيـــة والفوضوية المارقة مما يطول الحديث عنه .

ولننتقل إلى الحديث عن :

---

(١) نفس المصدر ص ٣٤

(٢) نقل العلامة أبو الحسن الندوى عن المؤرخ الأوروبى (فيكتور شوبرت) من كتابه (العالم الرومانى) ما ترجمته كانت القياصرة آلهة ، ولم يكن ذلك عن طريق الوراثة بل كان كل من تملك زمام البلاد كان إلها . .) أنظر مجلة الأزهر عدد شوال ١٢٩٨هـ

حالة العرب فى الجاهلية

وقد آثرنا إرجاء الحديث عن العرب فى جاهليتهم : ريثما نتبين حالة غيرهم ممن تخبطوا فى ظلمات أحلك من ظلمات الجاهلية ، وأوغلوا فى الفساد والضلال البعيدين أشد إيغال عرفته الإنسانية ، حتى لايقع فى التصور أن عرب الجاهلية كانوا وحدهم موئل الكفر والفساد ومحتد الجهالة والظلام ، كما يتراءى فى كتابات العديد من المؤلفين فى الشرق والغرب عن غفلة وجهل بمنطق التاريخ أو عن حقد ضرير على هذه الأمة التى اصطفى الله تعالى منها أعظم رسله وأشرف خلقه ﷺ !!

فترى البعض يرى أنه لا يقوم للإسلام مجد إلا بتجريد العرب قبل الإسلام عن كل فضيلة ومأثرة وتصويرهم بأبشع الصور العقدية والخلقية والحضارية ، وكأنهم وحدهم فى أرض الله هم الذين عبدوا الأصنام وشربوا الخمر وتعاطوا الربا وعاثوا فى الأرض فسادا ، مع غفلة هذا البعض عما انحط إليه حال الأمم الأخرى فى شتى آفاق العالم شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، حتى كان من أمم الأرض من اتخذ من الآلهة ثلاثين وثلاثمائة مليونا من الآلهة فى القرن السادس الميلادى !! وكان من سائر الأمم ماصورنا جانبا منه فيما مر بنا . عقيدة وسياسة ومجتمعا وأخلاقا .

ثم لقد ركب الشعوبية (١) موجة الحط من شأن العرب فى الجاهلية

---

(١) الشعوبية : فرقة من الناس ذهبوا إلى تصغير شأن العرب والحط من قدرهم ، وقد سموا بذلك لانتصارهم للشعوب التى هى مغايرة للقبائل ، حيث أن القبائل تطلق على العرب والشعوب للعجم كما قال جمع من المفسرين . أنظر :=

لتسويد صحائف العرب وإعلاء شأن غيرهم من الفرس والعجم فكان منهم من صنف فى مثالب العرب كأبى عبيدة وابن غرسية والهيثم بن عدى وغيرهم (١) .

وبالطبع وجد الحاقدون من المستشرقين الفرصة سانحة لإفراز حقدهم على الأمة التى أشرفت من أفقها شمس الرسالة الخاتمة معلنة كلمة الله الأخيرة فى هذه الدنيا .

لكننا نقول لهؤلاء وأولئك : إن ضوء الفجر المحمدى الصادق قد سطع فى آفاق الدنية بأسرها بعد أن كانت الدنا بأسرها ظلاما قاتما ، وأن هذا القتام لم تعان منه شبه الجزيرة العربية وحدها ، بل لقد كانت الظلمات فى آفاق أخرى أشد حلكة وسوادا وقد لعب الشيطان فى غير أرض العرب أحط أدواره الخسيسة ، عبثا بالعقيدة ودمارا للاخلاق وإهدارا لإنسانية الأنسان وكرامته ، بل وسحقا لآدميته .

ولابد لنا — بين يدى الوقوف على حالة العرب فى الجاهلية — أن نتعرف : من هم العرب ؟ وما هى الجاهلية ؟؟

أما العرب : فقد اشتق أسمهم من الإعراب وهو الإبانة ، فيقال : أعرب الرجل عما فى ضميره ، أى : أبان عنه . وقد سموا بذلك لغلبة الفصاحة والبلاغة لديهم ، فكان البيان سمتهم بين سائر الأمم (٢) .

وقيل : إن أولى من أنطق الله لسانه بلغة العرب : يعرب بن قحطان ،

= بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب للسيد محمود شكرى الآلوسى البغدادى ١٥٩/١ — ١٦٠ نشر دار الكتب الحديثة

(١) أنظر المصدر السابق : نفس الجزء والصحيفة

(٢) أنظر : بلوغ الأرب للآلوسى ٨/١

وهو أبو اليمن كلهم . وهم العرب العاربة ، وقد نشأ سيدنا اسماعيل بن الخليل إبراهيم عليهم السلام معهم فتكلم بلسانهم فهو وأولاده العرب المستعربة [١] . وعلى هذا : أخذت تسمية العرب من أسم « يعرب » .

وقد استشهد لعزو أولية التكلم بالعربية إلى يعرب بن قحطان يقول سيدنا حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه : —

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب ∴ أبينا فصرتم معربين ذوى نفر
وكنتم قديما مابكم غير عجمة ∴ كلام وكنتم كالبهائم فى القفر [٢]

وقد نقل عن كتاب العرب لابن قتيبة : أن أصل العربية لليمن ، لأنهم من ولد يعرب ابن قحطان ، ونص قوله : « وكان يعرب أول من تكلم بالعربية حين تبلبلت الألسن ببابل ، وسار حتى نزل اليمن فى ولده ومن اتبعه من أهل بيته ، ثم نطق بعده ثمود بلسانه ، وشخص حتى نزل الحجر إلى أن قال : — حين بوأ الله اسماعل عليه السلام الحرم وهو طفل ، وأنبط له زمزم ، ومرت به من جرهم رفقة ، فتبركوا بالمكان ونزلوه وضمره اليهم فنشأ معهم ومع ولدانهم فتكلم بلسانهم فقيل : نطق باليعربية — أى العربية — قال : إلى أو الياء زيدت فى الأسم فحذفت فى النسب كما تحذف أشياء من الزوائد ، وغير كما تغير أشياء عن أصولها » [٣] اه

وقيل : ان تسميه العرب مأخوذة من (عربه) وهى باحه العرب ، وقد اختلف فيها ، فقيل : إنها من تهامه حيث نشأ بنو اسماعيل عليه السلام فنسبوا اليها .

---

(١) أنظر : لسان العرب لابن منظور ٢/٧٦

(٢) أنظر تاريخ آداب العرب للرافعى ١/٤٢

(٣) نفس المصدر :

وقيل إنها (مكة) : فقد نقل صاحب « لسان العرب » عن إسحق بن الفرج أنه قال : « عربة باحة العرب ، وباحة دار أبى الفصاحة إسماعيل بن براهيم عليهما السلام وفيها يقول قائلهم :

وعربة(١) أرض مايحل حرامها من الناس إلا اللوذعى عن الحلاحل

يعنى : النبى ﷺ ، أحلت له مكة ساعة من نهار ثم هى حرام إلى يوم القيامة ، .. — ثم قال : — وأقامت قريش بعربة فتنخت بها وانتشر سائر العرب فى جزيرتها فنسبوا كلهم إلى عربة ، لأن أباهم إسماعيل ﷺ بها نشأ ، وربل(٢) أولاده فيها فكثروا ، فلما تحتملهم البلاد انتشروا وأقامت قريش بها (٣) » . والعرب فى أصلهم : أمة من الأمم السامية — نسبة إلى سام بن سيدنا نوح على نبينا وعليه السلام — وهى الأمم التى ذكرت التوراة أنها من نسله ، وتسمى لغاتها — لدى بعض المتأخرين من علماء اللغات — باللغات السامية أيضاً كالعربية والعبرانية والسريانية والحبشية والآرامية وغيرها (٤)

ويجمع جل المؤرخين على أن المهد الأول لتلك الشعوب السامية هو وادى الفرات أو : ما بين النهرين ، ثم إنهم لما كثروا وضاقت بهم تلك البقعة تشعبوا إلى البقاع المجاورة ، فكان البابليون والآشيوريون فى

---

(١) اضطر الشاعر إلى تسكين الراء من عربه لمراعاة الوزن والحلاحل فى آخر البيت معناه الشجاع .

(٢) يقال : رابلو اربو بلون — بضم الباء وكسرها — أى : كثروا وكثر أموالهم وأولادهم (القاموس المحيط ٣٩٣/٣ ط الحلبى)

(٣) أنظر : لسان العرب لابن منظور ٧٧/٢

(٤) « تاريخ آداب العرب للرافعى ٣٨/١ ط الاخبار

العراق ، والآراميون فى الشام والعبرانيون فى فلسطين ، والفينيقيون فى سواحل سورية على حذاء لبنان ، والأثيوبيون فى الحبشة ، والعرب : فى الجزيرة المنسوبة إليهم(١) .

وأمة العرب لها العراقة فى القدم ، وذات أثل فى الحضارة . فقد كانوا بعد الطوفان وعصر سيدنا نوح — على نبينا وعليه الصلاة والسلام — فى عاد الأولى وثمود وجدهم الأولى — التى كانت على عهد عاد — وقد حدثنا القرآن الكريم عن عاد وثمود فى العديد من الآيات نحو قوله تعالى : « وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى »(٢) .

وبين لنا أن عاد(٣) كانت تسكن بالأحقاف — وهو واد باليمن — فقال تعالى « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم »(٤) .

---

(١) أنظر الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى للأستاذ محمد هاشم عطية ص ٢٢ ط الحلبى

(٢) سورة النجم ٥٠ - ٥٢

(٣) ذكر أبو الفدا فى المختصر (٩٧/١) : أن أمة عاد هم من ولد عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكانت عاد فى نهاية من عظم الأجساد والتجبر ، ونزل عاد - لما تبلبلت الألسن فى حضر موت ، وأرسل الله إلى بنى عاد هودا نبيا فلم يستجيبوا له وكانوا أهل قوة وبطش ، وكان لهم فى الارض آثار عظيمة

(٤) سورة الاحقاف /٢١

وكانت ثمود تسكن بالحجر — وهو واد بين المدينة والشام — وإليهم بعث نبي الله صالح فكذبوه كما كذبت عاد نبي الله هودا — على نبينا وعليهما السلام — فأخذتهم الصيحة، وقد جاء ذكرهم في سورة الحجر في قوله تعالى «ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين فأخذتهم الصيحة مصبحين فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون»(١)

وكان من قبائل العرب البائدة أيضاً: طسم وجديس وكانتا تسكنان باليمامة من جزيرة العرب، قريباً من عهد ملوك الطوائف من الفرس. ومنهم أيضاً العمالقة(٢) الذين نزلوا أولا بصنعاء اليمن ثم انحدروا إلى الشام والعراق ويثرب، فكان منهم بالشام جماعة هم الذين قاتلهم سيدنا موسى على نبينا وعليه السلام ثم من بعده قاتلهم سيدنا يوشع عليه السلام فأفناهم وكان منهم أيضاً فراعنة مصر وهم الذين يطلق عليهم الشاسو أو الهكسوس(٣).

وهذه الطبقة القديمة من العرب قد سميت بالبائدة حيث أنهم قد بادوا ودرست أخبارهم ولم يبق عنهم إلا القليل مما أورده القرآن الكريم وآثاره من ذكر المؤرخين لهم.

وأما الطبقة الثانية: فهم العرب العاربة، وهم بنو قحطان بن عابر بن

---

(١) سورة الحجر /٨٠-٨٤

(٢) هم من ولد عمليق بن لاوذ بن سام كما ذكر صاحب المختصر في أخبار البشر ١/٩٨

(٣) أنظر المصدر السابق: والأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي لمحمد هاشم عطية ص ٢٣

شالج بن أرفخشذ بن سام بن سيدنا نوح على نبينا وعليه السلام . ومن هؤلاء قبيلة جرهم بن قحطان وكانت منازلهم بالحجاز ، ولما أسكن الخليل ابنه سيدنا إسماعيل على نبينا وعليه السلام فى مكة كانت جرهم بمقربة من مكة فاتصلوا به وتزوج منهم .

ومن العرب العاربة أيضاً : بنو سبأ ، وهو عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وقد تفرع عن سبأ : قبائل حمير وكهلان وعمرو وأشعر، وتفرع عن حمير : جميع تبابعة اليمن ما عدا عمران وأخيه مزيقيا .

وقد حدثنا القرآن الكريم عن حضارة (سبأ) الذين ظهرت دولتهم قبل الميلاد بنحو ثمانية قرون وبلغوا فى الحضارة شأوا عظيماً، فلما أعرضوا عن الله تعالى بعد دعوتهم إليه أرسل عليهم سيل العرم وجزاهم بكفرهم كما قال تعالى :

« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل. ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور(١) » .

روى القرطبى فى تفسيره للآيات الكريمات : أن الجنتين كانتا بين جبلين باليمن ، ونقل عن سفيان أنه قال : وجد فيهما قصران مكتوب على أحدهما « نحن بنينا سلحين فى سبعين خريفاً دائبين » ، وعلى الآخر مكتوب « نحن بنينا صرواح ، مقيل ومراح » فكانت إحدى الجنتين عن يمين الوادى والأخرى عن شماله »(٢) والمراد بالجنتين :

---

(١) سورة سبأ /١٥ - ١٧

(٢) أنظر تفسير القرطبى ٢٨٤/١٤

مجموعتان من البساتين يمنة ويسرة ، فكانت كل واحدة منهما فى تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة ، أو المراد : أن لكل رجل منهم عن يمين مسكنه بستاناً وعن شماله آخر(١) .

فكانت أخصب البلاد وأطيبها وأكثرها ثماراً حتى كانت المرأة تضع على رأسها مكتلا(٢) فتطوف به بين الأشجار فيمتلىء المكتل من جميع أنواع الفواكه من غير أن تمس شيئاً بيدها مما يتساقط فيه من الثمر(٣) !!
فقال لهم نبيهم(٤) أو لسان الحال : « كلوا من رزق ربكم واشكروا له » . فلما أعرضوا أرسل الله عليهم سيل العرم ، وفى العرم أقوال : منها أنه السد الذى بنته لهم بلقيس صاحبة سيدنا سليمان - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - ويطلق عليه « المسناة » بلغة حمير ، بنته بالصخر والقار وجعلت له أبواباً ثلاثة بعضها فوق بعض ، وهو مشتق من العرامة وهى الشدة (٥) . إنه سد مأرب العظيم الذى اجتاحته الأمطار أو الجرذان .

وحسبنا دلالة على ما بلغته الحضارة فى مملكة سبأ : ما قصه القرآن الكريم

---

(١) انظر تفسير البيضاوى ١٣٩/٢ ط الحلبى .

(٢) المكتل : شبه الزنبيل يسع خمسة عشر صاعاً . أنظر مختار الصحاح ص ٥٦٣ ط الأميرية .

(٣) أنظر : السراج المنير (تفسير الإمام الخطيب الشربينى) ٢٩٠/٣

(٤) روى الإمام وهب أن الله تعالى أرسل إلى سبأ ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى الله تعالى وذكروهم بنعمه وأنذروهم عقابه فكذبوهم وقالوا : ما نعرف علينا لله من نعمة فكان ما كان (المرجع السابق) .

(٥) أنظر : تفسير القرطبى ٢٨٦/١٤ .

عن ملك بلقيس في سورة النمل من قوله تعالى : « فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم »(١) .

إن قوله تعالى : « وأوتيت من كل شيء » لايفي بشرحه وتفصيله مجلدات !! وناهيك بعرش بلقيس الذي روى عن الامام ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في وصفه : « كان طول عرشها ثمانين ذراعاً وعرضه أربعين ذراعاً، وارتفاعه في السماء ثلاثين ذراعاً ، مكلل بالدر والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر ، وأضاف سيدنا قتادة : « وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مستترا بالديباج والحرير ، عليه سبعة مغاليق » !! وقال ابن إسحق : « وكان يخدمها النساء ، وكان لخدمتها ستمائة امرأة »(٢) !!

إنه ملك بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان من نسل يعرب قحطان ، وقد ورث أبوها الملك من أربعين أبا ، ولم يولد له غيرها وكان يملك أرض اليمن كلها ، فغلبت بعده على الملك ودانت لها الأمة كلها(٣).

---

(١) سورة النمل / ٢٣

(٢) أنظر تفسير القرطبي ١٨٤/١٣ والسراج المنير للامام الخطيب الشربيني ٥٣/٣ .

(٣) أنظر روح المعاني للامام الآلوسي ١٨٨/١٩

هذا جانب مقتضب عن حضارة سبأ (١) العربية ، التى تفرق أهلها بعد سيل العرم وتشعبت بطونهم فى شتى أنحاء الجزيرة العربية . وضرب المثل فى تفرقهم فقيل « تفرقوا أيدى سبأ »(٢) .

وأما الطبقة الثالثة من العرب : فهم « العرب المستعربة » وهم بنو سيدنا إسماعيل بن سيدنا إبراهيم — على نبينا وعليهما الصلاة والسلام — وقد سموا بالمستعربة : لأن سيدنا إسماعيل لم تكن لغته — أصلا — العربية ، بل العبرانية ، ثم لما مرت به رفقة من جرهم واستعرفوا إليه وخالطهم تكلم بلسانهم فاستعرب وتزوج منهم وأنجب اثنى عشر ولداً ذكرا منهم « قيذار » أو « نبته » — على خلاف فى الروايات — وهو الذى ينتهى إليه نسب عدنان جد مولانا المصطفى ﷺ(٣) . من ثم تعرف هذه الطبقة بالمستعربة . كما يسمون أيضاً بالإسماعيلية .

وكان سيدنا إسماعيل - على نبينا وعليه السلام - رسولا أرسله الله تعالى إلى بنى جرهم وإلى العماليق الذين كانوا بأرض الحجاز وإلى أهل اليمن وكانت سنه إذ فتق بالعربية البينة أربع عشرة سنة ، وقد عمر مائة وثلاثين

---

(١) ذكر السهيلى أن سبأ وهو عبد شمس بن يشجب — كما ذكره — كان أول من تتوج من ملوك العرب وهو — على مايذكر — اول من سبى السبى فسمى سبأ ثم قال : ولست من هذا الاشتقاق على يقين لأن سبأ مهموز والسبى غير مهموز . أنظر الروض الأنف ١٩/١ نشر مكتبة الكليات الأزهرية .

(٢) نفس المصدر ٢٢/١

(٣) أنظر : المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا ١٠٤/١ — ١٠٥ والروض الأنف للسهيلى ١٨/١

سنة (١) ثم مات - رحمة الله وبركاته عليه - ودفن مع أمه السيدة هاجر - عليها السلام بالحجر بجوار الكعبة وهو المعروف الآن بحجر إسماعيل .

وقد روى ابن كثير عن سيدنا عمر بن عبد العزيز - رضى الله تعالى عنه - أنه قال : شكا إسماعيل - عليه السلام - إلى ربه عز وجل حر مكة ، فأوحى الله إليه : إنى سأفتح لك باباً إلى الجنة إلى الموضع الذى تدفن فيه ، يجرى عليك روحها الى يوم القيامة .

هذا : وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلى ولديه : نابت وقيذار كما نص عليه ابن كثير (٢) ويذكر أبو الفدا - نقلا عن كتب بنى إسرائيل - أن المدة من سكنى سيدنا اسماعيل - على نبينا وعليه السلام - إلى الهجرة النبوية الشريفة - ألفان وسبعمائة وثلاث وتسعون سنة (٣) .

---

(١) نص على هذا السهيلى فى الروض الأنف (١/١٦) ونص ابن كثير على أنه عمر مائة وسبعاً وثلاثين عاماً أنظر قصص الأنبياء لابن كثير ١/٢٩٦ نشر دار الكتب الحديثة .

(٢) نفس المصدر .

(٣) انظر المختصر فى أخبار البشر ١/١٠٤

التفرقه بين العرب والأعراب

مما يجدر التنويه به : التفرقة بين العرب والأعراب حتى لا يختلط فى الذهن أحدهما بالآخر بناء على ماذهب إليه بعض أهل اللغة — كالجوهرى فى صحاحه — من القول بالترادف بين اللفظين وأنهما بمعنى واحد (١). وهذا الخلط يسىء إلى العرب بما ورد فى القرآن الكريم من ذم الأعراب كما فى قوله تعالى : « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم »(٢)

وكذلك فى قوله تعالى : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم »(٣)

والحق الذى هو أحق أن يتبع : أن العرب : اسم جنس يطلق على هذا الجيل المعروف من الناس مطلقاً ، والنسبة اليهم : عربى : والأعراب منهم : سكان البادية خاصة والنسبة إليهم أعرابى . لأنه لا واحد له من لفظه ، وليس الأعراب جمعاً للعرب كما ذكر الراغب فى مفرداته وكما روى عن سيبويه ، لئلا يلزم كون الجمع أخص من الواحد وهذا الملحظ الثاقب

---

(١) نقل الآلوسى فى بلوغ الارب (١/١٢) هذا القول عن الجوهرى وغيره من كتب اللغة المعتبرة .

(٢) سورة التوبة ٩٧/٩٨

(٣) سورة التوبة / ١٠١

أبرزه المفسرون (١) . من ثم : يكون العرب أعم من الأعراب .

وذهب فريق إلى أن العرب هم سكان المدن والقرى ، والأعراب سكان البادية من هذا الجيل أو مواليهم . ومن ثم تكون العلاقة بين العرب والأعراب هى التباين . بيد أن المؤرخين على القول بأن الأعراب قسم من العرب(٢) .

وعلى ضوء التمييز بين مدلولى العرب والأعراب يرتفع اللبس الذى استغله الشعوبية وأعداء العرب للحط من شأنهم ، استنادا إلى ما ورد فى التنزيل من ذم الأعراب .

وأما حقيقة الجاهلية وما تطلق عليه : فإن لفظ الجاهلية فى الأصل مصدر للصفة المشتقة من الجهل(٣) الذى هو عدم العلم أو عدم اتباع العلم ثم صار بغلبة الاستعمال إسما للحال السائدة فى الفترة التى قبل الإسلام ، وقد ورد بهذا الاطلاق كثيرا فى القرآن الكريم والسنة الشريفة ، ومنه

---

(١) انظر بلوغ الارب ١ / ١٢ والمفردات للراغب ص ٣٢٨ ط الحلبى وتفسير القرطبى ٢٣٣/٨ .

(٢) نقل عن الأزهرى أنه قال « رجل عربى : إذا كان نسبه فى العرب ثابتا وإن لم يكن فصيحا ، وجمعه : العرب ، ورجل أعرابى : إذا كان بدويا صاحب نجعة وانتواء وارتياد الكلأ وتتبع مساقط الغيث وسواء كان من العرب أو مواليهم أنظر أولا بلوغ الأرب ١٢/١ ثم تاريخ آداب العرب للرافعى ١ / ٤٤ وقد علق فيه على تعريف الأزهرى للعرب والأعراب بأنه شأنهم بعد الإسلام .

(٣) صرح الشهاب فى حاشيته على البيضاوى ٣ / ٧٢ بأن الياء فى الجاهلية مصدرية والتاء للتأنيث اللازم له .

قوله تعالى « إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية . . » (١)
ومنه قول الرسول ﷺ لأبى ذر — رضى الله عنه — « إنك امرؤ فيك جاهلية » (٢) .

وقد عرف صاحب « اللسان » الجاهلية بقوله : « هى الحالة التى كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه، ورسوله، وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك » (٣) ومن ثم لا تكون الحالة مرادا بها عدم العلم فحسب بل والعمل بخلافه أيضا .

ثم إنه قد تطلق الجاهلية على نفس الزمان السابق على البعثة النبوية ومنه قول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : « إنى نذرت فى الجاهلية أن اعتكف ليلة فى المسجد الحرام . . » (٤) .

وقد تطلق الجاهلية على زمن الكفر مطلقا ، وعلى زمن الفترة ما بين الرسولين ، وعلى ما كان بين مولد النبى ﷺ ومبعثه، وعلى ماقبل الفتح (٥) .

وقد ورد فى التنزيل ما يفيد أن ثمة جاهلية أولى مما يدل على تعدد الجاهلية وذلك حيث يقول سبحانه : « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » (٦) .

---

(١) سورة الفتح / ٢٦ .

(٢) أخرجه الشيخان فى كتاب الايمان. انظر صحيح البخارى ٩/١ ط حجازى

(٣) انظر : لسان العرب لابن منظور ١٣٧/١٣ — ١٣٨ .

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب أبواب الاعتكاف من صحيحه ١ / ٢٤١ ط حجازى .

(٥) انظر : بلوغ الارب ١٥/١ .

(٦) سورة الأحزاب / ٣٣

وقد أثر عن مفسري السلف عدة أقوال في بيان الجاهلية الأولى، فروى الطبري والقرطبي عن الحكم بن عيينة : أنها ما بين سيدنا آدم وسيدنا نوح على نبينا وعليهما السلام، قال : وكان بين آدم ونوح: ثمانمائة سنة. فكان نساؤهم من أقبح ما يكون من النساء، ورجالهم حسان، فكانت المرأة تريد الرجل على نفسه، فأنزلت هذه الآية « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى »[١]،

وروى عن الإمام ابن عباس — رضى الله عنهما - أنه قرأ هذه الآية وقال : كان فيما بين نوح وإدريس، وكانت ألف سنة[٢].

وقال الكلبي : هي ما بين نوح وإبراهيم وقد قيل في وصف الجاهلية آنذاك : إن المرأة كانت تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين وتلبس الثياب الرقاق ولا توارى بدنها[٣].

ورواية أخرى عن الكلبي تقول : كان ذلك في زمن نمروذ الجبار، كانت المرأة تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه وتمشي وسط الطريق ليس عليها شيء غيره وتعرض نفسها على الرجال[٤].

وعن أبي العالية أنه قال : « هي زمن داود وسليمان — عليهما الصلاة

---

(١) انظر تفسير الطبري ٢٢ / ٤ ط الحلبي، وتفسير القرطبي ١٧٩/١٤ — ١٨٠.

(٢) نفس المصدرين.

(٣) انظر تفسير الموضع من تفسير القرطبي.

(٤) انظر السراج المنير للخطيب الشربيني ٢٤٤/٣.

والسلام — كانت المرأة تتخذ قميصا من الدر غير مخيط الجانبين فيرى خلقها منه ، (١) .

وعن مقاتل بن حيان : أنه قال : الجاهلية الأولى : زمان إبراهيم . والثانية زمان محمد ﷺ قبل أن يبعث(٢) .

وذهب بعض الأئمة إلى أن الجاهلية الأولى هى ماقبل الإسلام مطلقا فقال مقاتل بن سليمان « هو : قبل أن يبعث محمد رسولا ، وقال قتادة : « هى ما قبل الإسلام »(٣) .

وعن الامام عامر الشعبى أنه قال : « الجاهليـة الأولى : ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام . وذهب نحوه محمد بن كعب القرظى كما روى مثله عن الامام ابن عباس رضى الله تعالى عنهما(٤) .

ومقتضى القولين الأخيرين أن ثمة جاهلية أخرى تكون بعد البعثة النبوية أو لا تكون جاهلية ثانية أصلا .

وقد روى عن الإمام ابن عباس ما يفيد أن هناك أخرى إذ أخرج عنه ابن أبى حاتم أنه قال فى تفسير الآية الكريمة(٥) : « تكون جاهلية أخرى »(٦) .

---

(١)

(٢) انظر تفسير البسيط للواحدى ٣١/٧ مخطوط بدار الكتب رقم ٥٣ تفسير

(٣)، (٤) نفس المصدر وتفسير الدر المنثور للامام السيوطى ١٩٧/٥ :

(٥) وهى قوله تعالى « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى .. » الآية .

(٦) انظر الدر المنثور للامام السيوطى ١٩٧/٥ .

ولقد فسر الإمام الطبرى تلك الجاهلية التى تكون بعد المبعث بقوله :

« فإن قال قائل : أو فى الإسلام جاهلية حتى يقال : عنى بقوله : ﴿ الجاهلية الأولى ﴾ التى قبل الاسلام ؟

قيل : فيه أخلاق من أخلاق الجاهلية »(١) .

ثم لقد استشهد لذلك بقوله ﷺ لأبى الدرداء « إن فيك جاهلية »(٢) وقد مر تخريجه عن أبى ذر رضى الله عنه .

وأيضا : بقوله ﷺ : « ثلاث من فعل أهل الجاهلية لا يدعهن أهل الاسلام : استسقاء بالكواكب وطعن فى النسب والنياحة على الميت »(٣).

وذهب بعض الأئمة إلى أن الجاهلية الأولى هى ما تقدم البعثة المحمدية وليس ثمة جاهلية أخرى فقال الواحدى : « وقال أبو إسحق : والأشبه أن تكون زمان عيسى إلى زمان محمد عليه السلام ، لأنهم هم الجاهلية المعروفون ، وكانوا يتخذون البغايا يغللن لهم » .

— قال — : ومعنى الأولى ههنا : المتقدم ، يقال لكل شىء متقدم ومتقدمة : أولى وأول ، وتأويله : أنهم تقدموا أمة محمد عليه السلام . وقال

---

(١) انظر جامع البيان للطبرى ٥/٢٢ .

(٢) فى تفسير الطبرى : أن النبى ﷺ لأبى الدرداء : (يا أبا الدرداء إن فيك جاهلية .. » وكذا فى تفسير البيضاوى . بيد أن الامام ابن حجر قال : لم أجده عن أبى الدرداء (انظر السراج المنير ٣/٢٤٤) .

(٣) أخرجه الطبرانى والبخارى فى تاريخه عن جنادة بن مالك . انظر التخريج فى الفتح الكبير للنبهانى ٢/٤٧ .

المبرد : معنى الأولى : القديمة »(١) كذلك نقل القرطبي عن ابن عطيه المفسر أنه قال في تفسير قوله تعالى « ولا تبرجن تبرج الجاهليه الأولى » : « والذى يظهر عندى : أنه أشار للجاهليه التى لحقنها ، فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها ، وهى ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة ، لأنهم كانوا لا غيرة عندهم

وكان أمر النساء دون حجاب ، وجعلها أولى : بالنسبة الى ما كن عليه ، وليس المعنى أن ثم جاهلية أخرى . وقد أوقع اسم الجاهلية على تلك المدة التى قبل الإسلام . فقالوا جاهلى فى الشعراء .

وقال ابن عباس — فى البخارى — سمعت أبى فى الجاهلية يقول . . الى غير هذا . . »(٢) .

وأرى : أن كل هاتيك الأقوال رغم ما يعتريها من تداخل أو اختلاف تقع فى دائرة الحقيقة التى تتعدد مظاهرها من عصر لآخر والجوهر واحد سواء اعتبرنا مظهره فى عصر ما أولا أو ثانيا : فالجاهلية هى الجاهلية تقع فى أى زمان على الحالة التى يسودها الجهل بالله ورسوله وبشرائع الدين سواء اعتبرنا ذلك الجهل هو الخلو من العلم أو العمل بخلافه .

والملاحظ الذى يستوقفنا عبر تلك الأقوال : أن الجاهلية لم تكن خاصة بالعرب وحدهم ، فقد كان فيما قبل عصر سيدنا نوح — على نبينا وعليه السلام — جاهلية وأية جاهلية !!

وبم نسمى تلك الحالة التى كانت سائدة فى غير العرب قبل القرن السابع

---

(١) انظر البسيط للواحدى ٣١/٧

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١٨٠/١٤

الميلادى لدى أمم الفرس والهند والصين والرومان وغيرهم ؟؟ إنها جاهلية الجاهلية أو فلنقل هى الجاهلية الجهلاء ! !

على أننا إذ ننصف العرب فى جاهليتهم بالقياس إلى الأمم الأخرى التى غرقت فى لججج الكفر والظلام لا نزعم أن عرب الجاهلية كانوا على جادة الهدى أو بمنأى عن الضلال .

كلا ، فالعالم كله لدى القرن السادس للميلاد كان يتخبط فى الظلام ويئن من الفساد ويتحرق شوقا إلى انبثاق النور .

وكان العرب يومئذ يتيهون فى مهامه الكفر والشرك والوثنية ، لبعد عهدهم عن النبوة ورسالة السماء ، فكانت لهم ديانات شتى وطرائق قددا فى العقائد والعادات والتقاليد والمعاملات والأخلاق تموج بزاخر من الأباطيل والأوهام وإن لم تعدم بصيصا من نور للفطرة النقية .

فأما عن عقائد العرب فى الجاهلية :

فقد ذكر الشهرستانى فى « الملل والنحل » أن العرب أصناف شتى : فمنهم المعطلة الدهرية ، وهم الذين جمعوا بين إنكار الإله وبين إنكار البعث والقيامة ، وقالوا بالطبع المحيي والدهر والمغنى ، وهم الذين أخبر عنهم القرآن المجيد بقوله تعالى : « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون »[1] .

وقد بين الإمام الفخر أن معتقد هؤلاء المعطلة الدهرية : أن تولد

(١) سورة الجاثية / ٢٤

الأشخاص إنما هو بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع . وإذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص : حصلت الحياة : وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت ، فالموجب للحياة والموت عندهم : تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك(١) .

وقد أبطل القرآن الكريم مدعى هؤلاء فى العديد من سوره وآياته مثبتا لهم وجود الصانع جل وعلا بضرورات فكرية وفطرية كما فى قوله تعالى : « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون »(٢) .

وقوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت »(٣) .

وثمة صنف آخر أقروا بالخالق وابتداء الخلق وأنكروا البعث وهم الذين أخبر عنهم القرآن بقوله سبحانه « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم » ورد القرآن الكريم عليهم مستدلا بالنشأة الأولى التى أقروا بها فقال تعالى : « قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »(٤) .

وهناك صنف من العرب أقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من

---

(١) أنظر مفاتيح الغيب للامام الفخر الرازى ٢٧/٢٧٠ — ٢٧١ ط دار الفكر .

(٢) سورة الأعراف / ١٧٥

(٣) سورة الغاشية ١٧١—٢٠

(٤) سورة يس / ٧٨-٧٩

الإعادة ولكنهم أنكروا الرسل وعبدوا الأصنام وزعموا أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى فى الآخرة ، وحجوا إليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وحللوا وحرموا . وهؤلاء هم الدهماء من العرب إلا شرزمة منهم .

وقد أخبر القرآن الكريم عن منكرى إرسال الرسول من البشر فى قوله تعالى « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا »(١) انهم يريدونه ملكا من السماء ، فرد عليهم بقوله سبحانه « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لينزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا »(٢) ،

« وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون »(٣) هذا حال من يعترف بالملائكة من عرب الجاهلية .

وأما الذين لا يعترفون بالملائكة فقد اتخذوا الأصنام المنصوبة شفعاء ووسائل الى الله تعالى ، وعبدوها تقربا الى الله زلفى وكانت أصنامهم من الكثرة بمكان حتى انه كان لكل قبيلة صنم خاص(٤) .

---

(١) سورة الإسراء/ ٩٤

(٢) سورة الإسراء/ ٩٥

(٣) سورة الانعام/ ٨ ، ٩

(٤) أنظر الملل والنحل للشهرستانى ٥/١٥٥ والمختصر فى أخبار البشر لابى الفدا ١/٩٨

فكان لقبيلة كلب : ود ، ولهزيل : سواع ، وكانوا يحجبون اليه وينحرون له ، وكان لمذحج ولقبائل من اليمن : يغوث ، ولهمدان : يعوق ، ولذى الكلام بأرض حمير : نسر ولثقيف بالطائف : اللات ، ولقريش وبنى كنانة : العزى ، وللأوس والخزرج : مناة ، أما هبل .

فقد كان أعظم الأصنام عندهم وكان على ظهر الكعبة ، وكان على الصفا والمروة : أساف ونائلة ، وقد وضعهما عمرو بن لحى الذى كان ملك خزاعة ورئيسهم (١) .

ويذكر الكلبى : أنه كان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، واذا قدم من سفر كان أول ما يصنع اذا دخل منزله أن يتمسح به أيضا (٢) .

وكانت الكعبة بيت الله الحرام محاطة بالأصنام والأنصاب والأزلام ، فقد روى البخارى عن سيدنا عبد الله بن مسعود أنه قال : « دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلثمائة نصب (٣) فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل .. » (٤) .

---

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستانى ٥ /١٥٥-١٥٦ وبلوغ الارب للآلوسى ٢٣١/١

(٢) أنظر كتاب الاصنام للكلبى ص ٣٣

(٣) فى رواية عن ابن عيينة (صنما) بدل نصب كما أخرجه ابن أبى شيبة ، والنصب : هى الحجارة التى كانوا يذبحون عليها للأصنام ، والانصاب : الاعلام التى تجعل فى الطريق . أنظر عمدة القارى للعينى ٢٩٤/١٤

(٤) أنظر صحيح البخارى : كتاب المغازى ٤٢/٣ ط حجازى

وأمعن من ذلك فى الضلال : ما رواه البخارى أيضاً عن أبى رجاء العطاردى أنه قال : « كنا نعبد حجر ، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه ألقيناه وأخذنا الآخر ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه ثم طفنا به ... » (١) .

وكان من العرب من يعبدون الكواكب ، فقد كانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة تعبد القمر ، وتميم : الدبران ، ولخم وجذام : المشترى ، وطى : سهيلا ، وقيس الشعرى ، وأسد : عطاردا (٢)

كما كان من العرب من يعبدون الملائكة ويعتقدون أنهم بنات الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً وقد سفههم القرآن الكريم إذ قال تعالى : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون » (٣)

كذلك كان لكل من المجوسية واليهودية والنصرانية والصابئة وجود فى الجزيرة العربية فكانت المجوسية فى عشائر من سكان البحرين على مقربة من فارس كبنى تميم ، واليهودية فى بعض البطون التى جاورت من هاجر من اليهود من أرض كنعان وغيرها إلى يثرب وتيماء وفدك وخيبر وبلاد اليمن (٤)

---

(١) أنظر صحيح البخارى : كتاب المغازى ٥٤/٣ ط حجازى .

(٢) « طبقات الامم لصاعد الاندلسى ص ٤٣٠

(٣) سورة الزخرف /١٩ — ٢٠

(٤) « مطالع النور للعقاد ص ٥٢ — ٥٤ ط الهلال

كذلك تسللت النصرانية للجزيرة العربية مع هجرة المضطهدين من الكنائس الشرقية إلى بلاد العرب طلباً للحرية كما صرح بذلك جورج سيل ، وكان أكثرهم يعاقبة فكان معظم نصارى العرب كذلك ، كما عرف فى بعض قبائل حمير وغسان وربيعة وتغلب وأهل نجران والحيرة(١) .

ولكن حال النصرانية فى بلاد العرب والحجاز خاصة قبيل البعثة المحمدية هو التداعى والإنهيار العقدى الذى يرهص بمقدم خطى الهادى البشير ﷺ .

وكان من العرب فى الجاهلية أيضاً من يميل إلى الصائبة ويعتقد فى أنواء المنازل إعتقاد المنجمين فى السيارات ، ويقول : مطرنا بنوء كذا ، بيد أنهم قلة من عرب البحرين الذين تأثروا بقرب الموقع من الصائبين ، ولم تتغلغل فيهم تلك الملة لكثرة قيودها وانغلاق أهلها (٢) .

وكان من عرب الجاهلية أيضاً من يعبد الجن ، كبنى مليح من خزاعة(٣) وهكذا كان ضلال العقيدة لدى العرب فى الجاهلية سائداً ومتجاوباً إلى حد ما مع دجنات الليل الحالك فى الأمم الأخرى .

بيد أن الفطرة التى غرسها الحق تعالى فى أمة يعرب قد تجلى تمردها فى مظاهر شتى على إطباق ليل الجاهلية الحالك . فكانت هنا لك الحنفاء الذى سرى فيهم نور سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه السلام فتمردوا على عبادة الأصنام والأوثان وقدموا المثل العليا لنقاء الفطرة وإشراق الحنيفية ، يقول

---

(١) نفس المصدر ص ٨٨

(٢) أنظر الملل والنحل للشهرستانى ١٥٦/٥ والمرجع السابق

(٣) « كتاب الاصنام للكلبى ص ٣٤

الامام الشهرستانى معرفاً بهذه النخبة الطاهرة :

« ومن العرب(١) من كان يؤمن بالله واليوم الآخر وينتظر النبوة ، وكانت لهم سنن وشرائع قد ذكرناها لأنها نوع تحصيل فمن كان يعرف النور الظاهر والنسب الطاهر ويعتقد الدين الحنيفى وينتظر المقدم النبوى : « زيد بن عمرو بن نفيل » : كان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول: أيها الناس: هلموا إلى فإنه لم يبق على دين إبراهيم أحد غيرى . وسمع أمية بن الصلت يوماً ينشد :

كل دين يوم القيامة عند اللـ ـه إلا دين الحنيفة زور

فقال له : صدقت . وقال زيد أيضاً :

فلن تكون لنفس منك واقية يوم الحساب إذا ما يجمع البشر(٢)

لقد كان زيد بن عمرو بن نفيل باحثاً عن الحقيقة متطلعاً إلى النور فى عالم دغت فيه الظلمات واستبدت به الشياطين ، بيد أن قوة استشرافه للنور قد هتكت أستار الظلام ! !

وكان له — فى الفترة — أتراب عقدت بينهم آصرة البحث عن الحقيقة وسط أعاصير الجاهلية ودياجير الشرك فوصل إلى الحقيقة من أمده الله تعالى بنور التوفيق والتأييد وقطع من قطع ! !

فقد روى ابن هشام — فى سيرته — عن ابن إسحق : أن قريشاً قد

---

(١) الحديث عن العرب فى الجاهلية كما أوضحنا سياقه .

(٢) أنظر الملل والنحل للشهرستانى ١٦١/٥ — ١٦٢

اجتمعت يوماً فى عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويعكفون عنده . وكان ذلك عيداً لهم فى كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا ، وليكتم بعضكم على بعض فقالوا : أجل . وكان الأربعة :

ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد ابن عمرو بن نفيل (١) .

فقال بعضهم لبعض : تعلموا ، والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم ، ماحجر نطيف به لايسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ؟؟ ياقوم : التمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شيء ، فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم »(٢) .

ومضى زيد يتلمس النور فى كل اتجاه . ويشكو حيرته لربه فكان فى بحثه وحيرته عابداً ، إذ كان يتضرع إلى الله قائلا : « اللهم إنى لو أعلم

---

(١) ساق ابن هشام نسب ورقة الى لؤى ، ونسب عبيد الله بن جحش الى خزيمه ونسب عثمان بن الحويرث الى قصى ، ونسب زيد الى لؤى ، الذى صححه السهيلى قائلا « والمعروف فى نسبه ونسب ابن عمه عمر بن الخطاب : نفيل بن رياح ابن عبد الله بن قرط بن رزاح » بينما نقل صاحب بلوغ الارب عن الاستيعاب أنه زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر القرشى العدوى . أنظر : الروض الانف ٢٥٣/١ وبلوغ الارب ٢٤٧/٢

(٢) أنظر سيرة ابن هشام بتحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبدالحميد ١٤٦/١ ط/ صبيح

أى الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكنى لا أعلمه ، ثم يسجد على راحلته » (١) ! !

وهذا طرف من قصة رحلة زيد للبحث عن الحقيقة يرويه الإمام البخارى عن سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « إن زيد ابن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه ، فلقى عالماً من اليهود ، فسأله عن دينهم . فقال : إنى لعلى أن أدين بدينكم فأخبرنى ، فقال : لا تكون على ديننا على تأخذ بنصيبك من غضب الله !

قال زيد : ما أفر إلا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئاً ، وأنى أستطيعه ؟؟ فهل تدلنى على غيره ؟ ؟

قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً !!

قال زيد : وما الحنيف ؟ ؟

قال : دين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يعبد إلا الله !!

فخرج زيد فلقى عالماً من النصارى ، فذكر مثله ، فقال : لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله !!

قال . ما أفر إلا من لعنة الله ، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً ، وأنى أستطيع ؟؟ فهل تدلنى على غيره ؟؟

قال : ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً . قال : وما الحنيف ؟ قال دين إبراهيم ، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، ولا يعبد إلا الله .

---

(٣) نفس المصدر ١/١٤٧

فلما رأى زيد قولهم فى إبراهيم - عليه السلام - خرج ، فلما برز رفع يديه فقال :

اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم »(١)

وفارق زيد قومه معلنا حنيفيته فأعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءدة وكان يستنقذها من القتل ، وقد سجلت السنة الشريفة هذه المآثر له فقد روى البخارى عن السيدة أسماء بنت سيدنا أبى بكر رضى الله عنهما أنها قالت :

« رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول :

يا معاشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيرى ، وكان يحيى الموءودة يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها ، أنا أكفيكها مؤنتها ، فيأخذها ، فإذا ترعرعت : قال لأبيها : إن شئت دفعتها إليك ، وان شئت كفيتك مؤنتها »(٢)

وكان يسائل قريشا التى تذبح الذبائح للأوثان قائلا :

« الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء الماء . وأنبت لها من الأرض ثم تذبحونها على غير اسم الله ؟؟ » انكارا لذلك واعظاما له (٣)

وكان اذا استقل الكعبة - داخل المسجد قال : « لبيك حقا حقا ، تعبداً ورقا .

---

(١) أنظر صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق . باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل ٢/ ٢١٠ ط/حجازى .

(٢) نفس المصدر .

(٣) » »

عذت بما عاذ به ابراهم　　　مستقبل الكعبة وهو قائم

اذ قال(١) :

أنفى لك اللهم عان راغم　　　مهما تجشمنى فإنى جاشم

لقد أعلن زيد ـ فى شعره ـ صراحة تمرده على عبادة الأصنام وفراقه لدين قومه وتوجهه لرب الأرض والسماوات وحده لا شريك له غافر الذنوب المحيى المميت باعث الخلائق لمجازاتهم بالجنة للأبرار وبالسعير للكفار . وهذه هى قصيدته التى حفظها قلب التاريخ لتروى على مدى الأيام قصة متحنف نزه الله فطرته عن دنس الجاهلية ، يقول زيد :

أربا واحدا أم ألف رب　　　أدين اذا اتقسمت الأمور

عزلت اللات والعزى جميعا　　　كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها　　　ولا صنمى بنى عمرو أزور

ولا هبلا أدين وكان ربا　　　لنا فى الدهر اذ حلمى يسير

عجبت وفى الليالى معجبات　　　وفى الأيام يعرفها البصير

بأن الله قد أفنى رجالا　　　كثيرا كان شأنهم الفجور

وأبقى آخرين ببر قوم　　　فيربل منهم الطفل الصغير

وبينا المرء يفترثاب يوما　　　كما يتروح الغصن المطير

ولكن أعبد الرحمن ربى　　　ليغفر ذنبى الرب الغفور

---

(١) أشار محقق السيرة النبوية لابن هشام الى أن « اذ قال » خارجة عن الرجز وأضاف كلمة (اللهم) بعد قوله « انفى لك » من المخطوطة (ب) كما أثبتناها (سيرة ابن هشام ١٥١/١) .

فتقوى الله ربكم احفظوها ... متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرار دراهم جنان ... وللكفار حامية سعير
وخزى فى الحياة وإن يموتوا ... يلاقوا ما تضيق به الصدور(١)

كذلك روى ابن هشام عن ابن اسحق أنه قال: وقال زيد بن عمرو ابن نفيل:

وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له الأرض تحمل صخراً ثقالا
دحاها فلما رآها استوت ... على الماء أرسى عليها الجبالا
وأسلمت وجهى لمن أسلمت ... له المزن تحمل عذباً زلالا
إذا هى سيقت إلى بلدة ... أطاعت فصبت عليها سجالا(٢)

ولم يكن باليسير على قريش أن يعلن زيد هذا التمرد على معتقداتها فتصدى له عمه الخطاب ابن نفيل فكان يعاتبه على فراق دين قومه ويغرى به زوجته - أى زوجة زيد - صفية بنت الحضرمى ، فكان زيد يأوى إلى حراء - مقابل مكة - فأوعز الخطاب إلى سفهاء شباب قريش ألا يمكنوا زيداً من دخول مكة ، فكان لا يدخلها إلا سراً ، فكانوا إذا علموا بمقدمه آذوه وأخرجوه(٣). يا لصبر الرجال !

ثم كان ختام رحلة البحث المتصل عن الحقيقة فى حياة زيد هذه

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام ١٤٨/١ والروض الانف ٢٥٧/١ نشر مكتبة الكليات الأزهرية

(٢) أنظر سيرة ابن هشام ١٥١/١

(٣) « « « « ١٥١/١ والروض الانف ٢٦٢/١

الإطلالة على أفق النور المحمدى المنبعث من مكة المكرمة والتى وقف بها زيد على ساحل بحر الحقيقة ! !

يقول ابن هشام : فى وصف أحداث الرحلة الأخيرة لزيد :

« ثم خرج يطلب دين إبراهيم عليه السلام ويسأل الرهبان والأحبار حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها ، ثم أقبل فجال الشام كله ، حتى انتهى إلى راهب بميفعة من أرض البلقاء كان ينتهى إليه علم النصرانية فيما يزعمون ، نسأله عن الحنيفية دين إبراهيم ، فقال : إنك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أظلك زمان نبى يخرج من بلادك التى خرجت منها يبعث بدين إبراهيم الحنيفية فالحق بها فانه مبعوث الآن ، هذا زمانه ! !

وقد كان شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئاً منهما ، فخرج سريعاً حين قال له ذلك الراهب ماقال ، يريد مكة ، حتى إذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه ، فرثاه ورقة بن نوفل قائلا :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما ... تجنبت تنورا من النار حامياً
بدينك رباً ليس رب كمثله ... وتركك أوثان الطواغى كما هيا
وإدراكك الدين الذى قد طلبته ... ولم تك عن توحيد ربك ساهياً
فأصبحت فى دار كريم مقامها ... تعلل فيها بالكرامة لاهياً
تلاقى خليل الله فيها ولم تكن ... من الناس جباراً إلى النار هاوياً

وقد تدرك الإنسان رحمة به
ولو كان تحت الأرض سبعين وادياً

وقال ابن هشام : يروى لأمية بن أبي الصلت : البيتان الأولان منها وآخرها يتنافى قصيدة له — وقال — : وقوله « وأوثان الطواغى » عن غير ابن اسحق [١] :

ونقل ابن هشام عن ابن إسحق أنه قال : « وحدثت أن ابنه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعمر بن الخطاب — وهو ابن عمه — قالا لرسول الله ﷺ : أنستغفر لزيد بن عمرو ؟

قال : نعم ، فإنه يبعث أمة وحده »[٢] ! !

وفى رواية أثبتها الحافظ بن حجر عن أبى أسامة :

« وسئل النبي ﷺ عن زيد فقال : « يبعث يوم القيامة أمة وحده بيني وبين عيسى بن مريم »[٣] وقد ذكر بعض العلماء كالبغوى وابن منده زيدا فى الصحابة باعتباره مؤمنا لقى النبي ﷺ [٤] .

وكان موت زيد — رضى الله عنه — قبل مبعث النبي ﷺ بخمس

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام ١٥٢/١ والروض الانف ٢٦٣/١ وبلوغ الارب ٢٥٢/٣

(٢) أنظر سيره ابن هشام ١٤٨/١

(٣) أنظر فتح البارى لابن حجر ١٤٩/٨ ط الحلبى

(٤) هناك من لا يشترط فى الصحابى الذى لقى النبى صلى الله عليه وسلم مؤمنا أن يكون بعد البعثة . وعليه يكون زيد صحابيا لثبوت صحبته قبل البعثة (أنظر بلوغ الارب ٢٤٧/٢)

سنين وقريش تبنى الكعبة ، روى ذلك الواقدى عن ابنه سيدنا سعيد بن زيد رضى الله عنه(١)

وكان من الحنفاء(٢) فى الجاهلية أيضاً : « قس بن ساعدة الأيادى » خطيب العرب .

فقد كان من الذين حفظ الله تعالى فطرتهم عن دنس الشرك وإنكار البعث فكان موحداً ينضح شعره وخطبه بالايمان بالله واليوم الآخر ، وفيه قال الشهرستانى :

« وممن كان يعتقد التوحيد ويؤمن بيوم الحساب . قس بن ساعدة الأيادى ، قال فى مواعظه : كلا ورب الكعبة ليعودن ما باد ، ولئن ذهب ليعودن يوماً ، وقال أيضاً : —

كلا بل هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والد
أعاد وأبدى وإليه المآب غداً

وأنشد فى معنى الإعادة :

يا باكى الموت والأموات فى جدث عليهم من بقايا بزهم خرق
دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم كما ينبه من نوماته الصعق
حتى يجيئوا بحال غير حالهم خلق مضى ثم هذا بعد ذا خلقوا

---

(١) نفس المصدر

(٢) الحنفاء جمع حنيف وله عدة اطلاقات كما بينها صاحب (لسان العرب ١٠/٤٠٣) منها أن الحنيف المسلم الذى يتحنف عن الاديان أى يميل إلى الحق وقيل من كان على دين ابراهيم .

منهم عراة ومنهم في ثيابهم منها الجديد ومنها الأزرق الخلق (١)»

وقد أخرج الحافظ ابن سيد الناس الأندلسي في سيرته — بسنده — عن الامام ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «قدم الجارود بن عبدالله — وكان سيدا في قومه — على رسول الله ﷺ، فقال: والذي بعثك بالحق لقد وجدت صفتك في الأنجيل، ولقد بشر بك ابن البتول، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله، قال: فآمن الجارود، وآمن من قومه كل سيد، فسر النبي ﷺ بهم، وقال: يا جارود: هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف لنا قساً ؟؟

وقالوا: نعم. كلنا نعرفه يارسول الله، وأنا من بين أيدي القوم كنت أقفو أثره، كان من أسباط العرب (٢)، فصيحاً، عمر سبعمائة سنة، أدرك من الحواريين سمعان، فهو أول من تأله — أي تعبد — من العرب، كأني أنظر إليه يقسم بالرب الذي هو له، ليبلغن الكتاب أجله، وليوفين كل عامل عمله، ثم أنشأ يقول:

هاج للقلب من هواه أدكار وليال خلا لهن نهار

في أبيات آخرها:

والذي قد ذكرت دل على الله نفوساً لها هــدى واعتبار

فقال النبي ﷺ: «على رسلك ياجارود، فلست أنساه بسوق عكاظ

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستاني ٥/١٦٢

(٢) ذكر صاحب (بلوغ الأرب ٢/٢٤٦) أن في نسب قس خلافاً، فقيل: قس بن ساعدة بن حذافة بن زهر. وقيل: حذافة بن إياد بن نزار. وقيل: هو ابن ساعدة بن عمرو بن شمس بن عدي بن مالك، وقيل غير ذلك. والله أعلم.

على جمل أورق(١) وهو يتكلم بكلام ما أظن أنى أحفظه» .

فقال أبو بكر : يارسول الله ، فإنى أحفظه ، كنت حاضراً ذلك اليوم بسوق عكاظ فقال فى خطبته :

« أيها الناس: اسمعوا وعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات : فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأرزاق وأقوات ، وآباء وأمهات ، وأحياء وأموات ، جمع وأشتات ، وآيات بعد آيات ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات رتاج(٢) ، وبحار ذات أمواج ، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ؟؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ، أقسم قس قسما لا حانثاً فيه ولا آثماً : إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه ، ونبياً قد حان حينه . وأظلكم أوانه ، فطوبى لمن آمن به فهداه ، وويل لمن خالفه وعصاه .

ثم قال : تباً لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية ، يامعشر إياد : أين الآباء والأجداد ؟؟ وأين المريض والعواد ؟ وأين الفراعنة الشداد ؟ أين من بنى وشيد ؟ وزخرف ونجد ؟ وغره المال والولد ؟ أين من بغى وطغى ؟ وجمع فأوعى وقال أنا ربكم الأعلى ؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالا ؟ وأطول منكم آجالا ؟ وأبعد منكم آمالا ؟ طحنهم الثرى بكلكله ،

---

(١) الأورق : هو ما فى لونه بياض إلى سواد أو : مالونه كلون الرماد .

(٢) يقال أرض مرتجة : أى كثيرة النبات ، والرتائج - جمع رتاجة - هى للصخور (أنظر القاموس المحيط ١/١٩٧) .

ومزقهم بتطاوله ؟ فتلك عظامهم بالية ، وبيوتهم خاوية ، عمرتها الذئاب العاوية ، كلا بل هو الله الواحد المعبود ، ليس بوالد ولا مولود ، ثم أنشأ يقول :

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... تمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلي ... ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا ... لة حيث صار القوم صائر (١)

وقد نقل صاحب (بلوغ الأرب) عن أبي حاتم السجستاني — من كتاب المعمرين — أن قساً أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأول من توكأ على عصا ، وأول من قال : (أما بعد) ، وكان من حكماء العرب وهو أول من كتب « إلى فلان ابن فلان » (٢) .

وقد اعتده بعض علماء الرجال - كابن شاهين وابن السكن والمروزي - في الصحابة (٣) .

---

(١) أنظر عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس ٦٩/١ - ٧١

وانظر : بلوغ الأرب للآلوسي ٢٤٥/٢ - ٢٤٦

وانظر البيان والتبيين للجاحظ بتحقيق عبد السلام هارون ٣٠٩/١ نشر الخانجي ط الرابعة .

وانظر الفتح القدير للحافظ المناوي ١٩/٤ والسيرة الحلبية ٣٢٩/١

(٢) انظر بلوغ الارب ٢٤٦/٢

(٣) نفس المصدر .

وممن آمن بالله واليوم الآخر فى الجاهلية أيضاً :

زهير بن أبى سلمى الشاعر الجاهلى المعروف ، وكان من مزينة مضر ، ولم يدرك الإسلام ، إذ توفى قبل مبعث النبي ﷺ بسنة ، وقد أسلم أبناه كعب وبجير[١] .

وقد ذكره الشهرستانى فيمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر من أهل الفترة الجاهلية ، فقال : « ومن هؤلاء : زهير أبى سلمى المزنى ، وكان يمر بالعضاة[٢] وقد أورقت بعد يبس فيقول : لولا أن تسبنى العرب لآمنت أن من أحياك بعد يبس سيحيى العظام وهى رميم ، ثم آمن بعد ذلك وقال فى قصيدته التى أولها : « أمن أم أوفى ... » :

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينتقم »[٣]

وقد قال زهير قبل هذا البيت فى معلقته :

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم[٤]

أى : لا تكتمن الله ما تكتمونه من الغدر المضمر ونقض الصلح معتقدين خفاءه على الله تعالى ، فإن الله عليم بالخفايا ولا يعزب علمه شىء من ضمائر العباد ، ولابد من المجازاة عليه ، وإنما يدخر ذلك ليوم الحساب أو يعجل لكم النقمة فى الدنيا !!

---

(١) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٤٧/١ ط الثالثة ، ومقدمة شرح ديوان زهير ص ٩

(٢) العضاة : كل شجر له شوك .

(٣) أنظر الملل والنحل للشهرستانى ١٦٦/٥ ط صبيح .

(٤) « شرح ديوان زهير ص ١٨ / الدار القومية الطباعة والنشر بالقاهرة .

إنه المنطق الإيمانى الفطرى الذى ينبعث من فطرة مؤمنة بالله تعالى وبكمال علمه وقدرته وموقنة بالبعث والجزاء . إنها الحنيفية البيضاء !!

ثم لقد كان هناك فى الجاهلية أيضاً مؤمنون موحدون من أهل الكتاب الذين لم يبدلوا ولم يحرفوا كتاب الله وشريعته ، فكانوا حجة على العابثين من بقية أهل الكتاب . من أبرز هؤلاء الموحدين :

ورقة بن نوفل : بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشى ، وهو ابن عم السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها — زوج النبى ﷺ . ويجتمع معه فى جد جده[1] .

قال السهيلى فى ترجمته :

« وهو أحد من آمن بالنبى ﷺ قبل البعث »[2] .

وقد صنف برهان الدين البقاعى كتاباً فى إيمان ورقة وصحبته للنبى ﷺ وسماه « بذل النصح والشفقة للتعريف بصحبة السيد ورقة » .

وقد عرف صاحب «بلوغ الأرب» بمحتواه قائلا : « وحاصل ماذكره البقاعى فى شأن ورقة بن نوفل : أنه ممن وحد الله فى الجاهلية ، فخالف قريشاً وسائر العرب فى عبادة الأوثان وسائر أنواع الشرك ، وعرف بعقله الصحيح أنهم أخطأوا دين إبراهيم الخليل عليه السلام ، ووحد الله تعالى واجتهد فى طلب الحنيفية - دين إبراهيم - ليعرف أحب الوجوه إلى الله تعالى فى العبادة ، فلم يكتف بما هداه إليه عقله ، بل ضرب فى الأرض

---

(١) انظر بلوغ الارب ٢٦٩/٢

(٢) أنظر : الروض الانف للسهيلى ٢١٦/١

ليأخذ علمه عن أهل العلم بكتب الله تعالى المنزلة من عنده ، الضابطة للأديان . فأداه سؤاله أهل الذكر الذين أمر الله بسؤالهم إلى أن اتبع الذى أوجبه الله تعالى فى ذلك الزمان ، وهو الناسخ لشريعة موسى عليه السلام دين النصرانية ، ولم يتبعهم فى التبديل بل فى التوحيد ، وصار يبحث عن النبى ﷺ الذى بشر به موسى وعيسى عليهما السلام ، فلما أخبرته ابنة عمه الصديقة الكبرى خديجة رضوان الله تعالى عليها بما رأت وأخبرت به فى شأن النبى ﷺ من المخايل بإظلال الغمام ونحوها : ترجى أن يكون هو المبشر به ، وقال فى ذلك أشعار يتشوق فيها غاية التشوق إلى إنجاز الأمر الموعود لينخلع من النصرانية إلى دينه ، لأنه قال لزيد بن عمرو بن نفيل لما قال لهم العلماء : إن أحب الدين إلى الله تعالى دين هذا المبشر به : أنا أستمر على نصرانيتى إلى أن يأتى هذا النبى فلما حقق الله الأمر وأوقع الإرهاصات بالسلام من الأحجار والأشجار على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبمناداة إسرافيل عليه السلام للنبى ﷺ مع الاستتار وخاف النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من ذلك فاشتد خوفه فنقل ذلك إلى ورقة رضى الله تعالى عنه فاشتد سروره بذلك وثبته وشد قلبه وشجعه .. — إلى أن قال — وشهد أنه نبى هذه الأمة وتمنى أن يعيش إلى أن يجاهد معه .. »[1]

ومما يدل على صدق إيمان ورقة ما رواه الإمام أحمد — بسنده — والترمذى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن السيدة خديجة رضى الله عنها سألت رسول الله ﷺ عن ورقة بن نوفل فقال : « قد رأيته فى المنام فرأيت عليه ثيابا بياض فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب

---

(١) انظر بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب للسيد محمود شكرى الالوسى ٢/٢٧٢ — ٢٧٣

بياض(١) » . كما روى الطبرانى عن السيدة أسماء بنت سيدنا أبى بكر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ سئل عن ورقة بن نوفل فقال : « يبعث يوم القيامة أمة وحده »(٢) !!

وهكذا كانت عناية الله تعالى بأصفيائه ، تمدهم بنور الهداية حتى وهم فى ليل الجاهلية المطبق بينما رزحت أمم فى دياجير الكفر يتخبطها الشيطان من المس ، وافتقدت أقوام معالم الهدى ، ومن ثم كان هنالك أصناف أربعة عاشت فى الجاهلية رصدهم العلماء وعرضوا لهم تحت عنوان :

أقسام أهل الفترة :

فالقسم الأول : من هداه الله تعالى إلى إدراك التوحيد بنور بصيرته دون أن يدخل فى شريعة نبى مثل قس بن ساعدة ، وزيد بن عمرو ، وزهير وعامر بن الظرب وغيرهم ، وقد تقدم عرض نماذج منهم

وهذا القسم ناج عند الله تعالى لترحم النبى ﷺ على زيد بن عمرو وقوله فيما ورد فى شرح المواهب (رأيته فى الجنة يسحب ذيولا) ووالده ﷺ من هذا القسم .

والقسم الثانى : من دخل فى شريعة حق قائمة الرسم فتعبد بها ملتزماً

---

(١) انظر : الفتح الربانى بترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيبانى ٢٠/١٧٤ وانظر سنن الترمذى : كتاب الرؤيا : ٤/٥٤٠ ط الحلبى .

(٢) خرجه صاحب الفتح الربانى فى بلوغ الامانى — وهو مختصر شرحه على الفتح — عن الهيثمى وقال : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح أنظر بلوغ الامانى ٢٠ / ١٧٤

بحدودها الإلهية وبما تقتضيه من إيمان بالرسول الخاتم ﷺ لمن عرف به وبالمتابعة له لمن أدرك بعثته ﷺ .

ومن هذا القسم : «تبع» الحميرى الذى أسلم وآمن بالنبى ﷺ قبل ولادته بتسعمائة سنة لما أخبرته اليهود بخبره حسبما عرفوه من كتبهم ، وكان من قبل على ملة سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه السلام[١] .

كما يندرج فى هذا القسم ورقة بن نوفل وعمه عثمان بن الحويرث[٢] ، وبعض من أهل نجران . وحكمهم حكم أهل الدين الذى اعتنقوه .

ما لم يلحق أحد منهم الإسلام الناسخ لكل دين .

والقسم الثالث :

من لم يشرك ولم يوحد ولا دخل فى شريعة نبى ولا ابتكر لنفسه شريعة ولا اخترع دينا بل بقى عمره على حين غفلة من هذا كله .

وهؤلاء هم أحق الأقسام بتسمية أهل الفترة على الحقيقة وحكمهم : أنهم غير معذبين ـ بالاتفاق ـ لقوله تعالى :

---

(١) أنظر حاشية الجمل على الجلالين ٤/١٠٧ عند تفسير قوله « أهم خير أم قوم تبع .. » سورة الدخان /٣٧ .

وفى نفس المرجع ذكر أن تبعا هذا هو تبع الأكبر أبو كرب واسمه أسعد وإليه تنسب الأنصار ، وينسب هو إلى حمير وهم أهل اليمن وهو الذى بنى الحيرة وسمرقند وقد آمن هو وكفر قومه .

(٢) نص عليه الإمام القسطلانى فى المواهب اللدنية ١/٣٥ وعليه تشمل الفترة كل زمن بين رسولين .

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(١) .

والاتفاق على عدم تعذيبهم نص عليه الثقات ونقله شارح المواهب اللدنية .

وقد قال الإمام الزرقانى فى شرحه على «المواهب» - تعليقا على بيان هذا القسم : - « ومنه والداه ﷺ فإنهما لم تبلغهما دعوة لتأخر زمانهما وبعد ما بينهما وبين الأنبياء السابقين ، وكونهما فى زمن جاهلية عم الجهل فيها شرقا وغربا وفقد فيها من يعرف الشرائع ويبلغ الدعوة على وجهها إلا نفرا يسيرا من أحبار أهل الكتاب مفرقين فى أقطار الأرض كالشام وغيرها ، وما عهد لهما تقلب فى الأسفار سوى المدينة ، ولا أعطيا عمرا طويلا يسع الفحص عن المطلوب ، مع زيادة أن أمه ﷺ مخدرة مصونة محجبة فى البيت عن الاجتماع بالرجال لا تجد من يخبرها »(٢) .

وقد ألف الإمام السيوطى ست مؤلفات(٣) فى نجاتهما رضى الله عنهما ورضى عنه كفاء بره بوالدي الحبيب المصطفى الأعظم ﷺ فقد عدهما من الحنفاء(٤) الأول حيث أنه لم يثبت عنهما شرك بل كانا على الحنفية دين جدهما

---

(١) سورة الإسراء /١٥

(٢) أنظر شرح الإمام الزرقانى على المواهب اللدنية للقسطلانى ١/١٨٤

(٣) أنظر نفس المصدر ١ / ١٨٦ وانظر الحاوى للفتاوى للإمام السيوطى ٣/٣٥٣—٤٠٤

(٤) أنظر : رسالة : مسالك الحنفا فى والدى المصطفى (ﷺ) ضمن الحاوى للفتاوى ٣/٣٩٢ وانظر شرح الزرقانى على المواهب ١/ ١٨٣

إبراهيم - على نبينا وعليه السلام - وقد ذهب إلى هذا المسلك طائفة من صفوة الأئمة كالفخر الرازى قدس الله سره(١) .

وأما القسم الرابع : فهم من بدل وغير فأشرك ولم يوحد ، وشرع لنفسه فحلل وحرم وهم الأكثر من عرب الجاهلية كعمرو بن لحى الذى كان أول من شن للعرب عبادة الأصنام ، وشرع الأحكام .

وقد نقل عن الكلبى أنه قال : « سبب ذلك أنه كان له - أى لعمرو بن لحى - تابع من الجن يقال له أبو ثمامة . فأتاه ليلة فقال له : أحب أبا ثمامة فقال : لبيك من تهامة ، أدخل بلا ملامة ، فقال ائت سيف جدة آلهة معدة ، فخذها ولا تهب ، وادع إلى عبادتها تجب ، قال : فتوجه إلى جدة فوجد الأصنام التى كانت تعبد زمن نوح فحملها إلى مكة ودعا إلى عبادتها فانتشرت بسبب ذلك عبادة الأصنام فى العرب »(٢) .

وعمرو بن لحى هو الذى بحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامى فى الجاهلية .

وقد أخرج البخارى(٣) عن الإمام سعيد بن المسيب - رضى الله عنه - أنه قال : « البحيرة : التى يمنع درها للطواغيت ولا يحلبها أحد من الناس ، والسائبة : التى كانوا يسيبونها لآلهتهم فلا يحمل عليها شىء .

---

(١) أنظر الحاوى للإمام السيوطى ٣٦٦/٢

(٢) نقله الزرقانى عن ابن حجر - من فتح البارى - فى شرح المواهب ١٨٣/١

(٣) أنظر صحيح البخارى : كتاب المناقب ١٧٨/٢ ط حجازى وكتاب التفسير منه أيضا : ٨٦/٣

قال : وقال أبو هريرة . قال رسول الله ﷺ رأيت عمرو بن عامر ـ زاد فى رواية (بن لحى) ـ الخزاعى يجر قصبه(١) فى النار ، كان أول من سيب السوائب ، والوصيلة : الناقة البكر تبكر فى أول نتاج الإبل ثم تثنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونهم لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر .

والحام : فحل الإبل ، يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شىء وسموه الحامى ، وقد سجل القرآن الكريم على هذا القسم من أهل الجاهلية بالكفر والشرك وافتراء الكذب على الله تعالى وانغماسهم فى ضلال التقليد الأعمى دون إثارة من علم أو اهتداء فقال تعالى : ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون .

وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ،(٢) ومن هـــذا القسم أيضا صدرت خسائس الجاهلية فى العقيدة والأخلاق فكانت العقائد الفاسدة التى سبق أن عرضنا لجانب منها كعبادة الجن والملائكة وخرق البنين والبنات .. إلخ(٣) .

وكان الإنهيار الأخلاقى الذى ندد به القرآن الكريم والسنة المطهرة .

فقد روى البخارى عن سيدنا عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ

---

(١) القصب ـ بضم القاف وسكون الصاد : هى الأمعاء .

(٢) سورة المائدة / ١٠٣ ، ١٠٤

(٣) أنظر شرح الزرقانى على المواهب ١ / ١٨٤

أنه قال . « إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة فى سورة الأنعام :

« وقد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين »(١) .

وروى عن حبر الأمة - رضى الله عنه - أنه قال : نزلت هذه الآية فى ربيعة ومضر الذين كانوا يدفنون بناتهم أحياء فى الجاهلية من العرب ، وقال قتادة رضى الله عنه . كان أهل الجاهلية يقتلون بناتهم مخافة السبي عليهم والفاقة إلا ما كان من بنى كنانة فإنهم كانوا لا يفعلون ذلك »(٢) .

وكانت هنالك « أوابد العرب » والمراد بها . الدواهى التى حرمها الإسلام وحذر التنزيل منها فى عديد من آياته ، منها قوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » (٣) ،

ومنها قوله سبحانه : « إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين » (٤) .

---

(١) أنظر صحيح البخارى . كتاب المناقب ١٧٨/٢ ط حجازى

(٢) أنظر عمدة القارى بشرح البخارى الامام العينى ١٥١/١٣ ط الحلبى

(٣) سورة المائدة / ٩٠

(٤) أنظر نهاية الأرب فى فنون الأدب ١١٦/٣ نشر : المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

يقول الشهاب النويرى . « وكانت للعرب أو ابد جعلوها بينهم أحكاما ونسكا وضلالة وعادة ومداواة ودليلا و تفاؤلا وطيرة » (١)

فكان ـ بالإضافة لما ذكر من الأوابد ـ نكاح المقت وهو أن الرجل إذا مات قام أكبر ولده فالقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها ، فإن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد . وقد أبطل الاسلام هذا بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن » (٢) .

وكان منها : « بكاء المقتول » فكان النساء لايبكين المقتول إلا إذا أخذ بثأره وإذا أدرك بثاره بكينه !! وأمراض وأمراض شاعت فى الجاهلية وعالجها الإسلام الحنيف .

كل هذه الضلالات العقدية والخلقية قد منى بها القسم الرابع من أهل الفترة ـ على أوسع نطاق ـ من ثم كان هذا القسم مناط التعذيب فى الآخرة كما ورد الوعيد فى طائفة منهم بخصوصهم كعمرو بن لحى ونحوه (٣) .

---

(١) أنظر نهاية الارب فى فنون الادب ٣ / ١١٦ نشر : المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

(٢) سورة النساء / ١٩

(٣) من هذا القبيل صاحب المحجن ـ أى العصا التى بطرفها اعوجاج ـ الذى قال عنه النبى ﷺ فى حديث صلاة الكسوف « لقد جىء بالنار وذلكم حين رأيتمونى تأخرت مخافة أن يصيبنى من لفحها وحتى رأيت فيها صاحب المحجن يجر قصبه فى النار ، كان يسرق الحاج بمحجنه ، فإن فطن له قال : تعلق بمحجنى وإن غفل عنه ذهب » أنظر صحيح مسلم بشرح النووى ٦/٢٠٩ ط / المصرية

بيد أنه إلى جانب ذلك : كانت هناك فضائل ومآثر وقيم حميدة لدى العرب فى الجاهلية فكانت لديهم علوم الأدب والأنساب والانواء والتواريخ وتعبير الرؤيا ، التى كان لسيدنا أبى بكر فيها يد طولى ، وكان العرب يتمسكون بقيم ومبادىء جاءت بها شريعة الإسلام ، فكانوا لاينكحون الأمهات والبنات ، كما فعل الفرس ، وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون ويسعون ويقفون المواقف كلها ، وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى ويحافظون على سنن الفطرة (١) ولا عجب فمنهم بعثه سيد الرسل ﷺ .

---

(١) أنظر الملل والنحل للشهرستانى ٥/١٦٤-١٧٤ ط صبيح وأنظر المختصر فى أخبار البشر لابى الفدا ٩٩/١

الفصل الثالث

فى ذكر نسب نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

ومآثر آبائه وأجداده

إن لشرف النسب وكرم المحتد وطيب الأرومة : فضيلة ومكرمة ومأثرة يعتز بها خيار البشر ويعتد بها العرب ، ويحفل بها الإسلام متى اقترنت بتقوى الله عز وجل ، إذ تثمر التقوى مع طيب المنبت وخيرة المعدن مالا تثمره فيما سواهما . وقد قال سيد البشر صلوات الله وسلامه عليه : « تجدون الناس معادن فخيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا . . » (١)

وقد كان لمعرفة العرب بنسب النبى ﷺ وأصله أثر كبير فى تصديق من آمن برسالته ، فهذا سيدنا جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه يجيب النجاشى - وهو مهاجر عنده بالحبشه — إذ سألته : ما هذا الدين فارقتم فيه قومكم .. ؟؟ قائلا : أيها الملك : كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، يأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه . . . » الحديث (٢) .

---

(١) أخرجه مسلم عن أبى هريرة فى الفضائل . أنظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٦ / ٧٨

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد : ٢٠٢/١

وكان علم الأنساب من أهم العلوم التى حرص عليها العرب فى الجاهلية ، وكان أعلمهم بها سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وعنابه فى الدارين . فكان بعلمه هذا حصنا لحفظ هذا النسب الشريف ، إذ لما اعتزم سيدنا حسان هجاء المشركين من قريش قال له النبى ﷺ : « لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها وإن لى فيهم نسبا حتى يلخص لك نسبى ، فأتاه حسان ثم رجع فقال : يارسول الله قد لخص لى نسبك ، والذى بعثك بالحق لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين » (١) ! !

لقد كان ﷺ حريصاً على حفظ نسبه من القدح أيما حرص !

ولقد عنيت السنة النبوية ورجالها ببيان شرف نسب الرسول ﷺ وفضل أرومته من لدن أبى البشر آدم عليه السلام إلى حضرته ﷺ : فيروى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى كنت من القرن الذى كنت فيه » (٢) والقرون جمع قرن وهو : الناس المجتمعون فى عصر واحد (٣) .

كذلك عقد الإمام النووى — فى شرحه على مسلم — بابا لفضل نسب النبى ﷺ عند شرح الحديث الشريف المروى عن واثلة بن الأسقع أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ،

---

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٦ / ٤٩

(٢) أنظر : صحيح البخارى : باب صفة النبى ﷺ ٢ / ١٨١ ط حجازى

(٣) قيل فى القرن إنه مائة سنة وثمة أقوال آخرى (أنظر عمدة القارى للعينى ١٣/١٧٢)

واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم ، (١) .

ولقد تحدث النبى ﷺ بشرف نسبه حين قدح فيه بعض السفلة فبين فضل الله تعالى عليه بانتقائه من أشرف قبائل العرب وبطونهم ، إذ يروى الإمام أحمد والترمذى عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب أنه قال : « أتى ناس من الأنصار النبى ﷺ فقالوا : إنا لنسمع من قومك حتى يقول القائل منهم : إنما مثل محمد مثل نخلة نبتت فى كباء [٢] ، فقال رسول الله ﷺ : « أيها الناس : — من أنا ؟؟ قالوا : أنت رسول الله ﷺ . قال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟؟ قال : فما سمعناه قط ينتمى قبلها [٣] — ألا إن الله عز وجل خلق خلقه فجعلنى من خير خلقه ، ثم فرقهم فرقتين فجعلنى من خير الفرقتين ، ثم جعلهم قبائل فجعلنى من خيرهم قبيلة ، ثم جعلهم بيوتا فجعلنى من خيرهم بيتا ، وأنا خيركم بيتا . وخيركم نفسا » (٤) .

---

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى : كتاب الفضائل ١٥/٣٦ ط المصرية

(٢) الكباء بالمد والقصر مع كسر الكاف : هى الكناسة والتراب الذى يكنس من البيت (الفتح الربانى ٢٠/١٧٦) والقاموس المحيط ٤/٣٨٤ ط الحلبى

(٣) المعنى : أن الرسول ﷺ ما كان يفتخر بآبائه قبل هذه الواقعة ، وإنما حمله على ذلك رد قول المفترين ولإفادة الكفاءة والتحدث بنعمة الله تعالى . وليس المراد تفاخر الكبر .

(٤) المراد بالبيت : البطن ، أى بطن بنى هاشم ، والمراد بالقبيلة — قبيلة — قريش ، والمراد بالفرقتين : العرب والعجم ، والخلق هنا : هم الإنس .

(٥) أنظر الفتح الربانى بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا ٢٠/١٧٦

« النسب الشريف من سيدنا محمد إلى سيدنا آدم

صلى الله عليهما وسلم » (١) : —

هو (سيدنا محمد رسول الله الخاتم) ﷺ

١ — (ابن عبد الله) أصغر أبناء عبد المطلب ، وهو الذبيح الثانى — بعد سيدنا إسماعيل عليه السلام — المفتدى بمائة من الإبل حيث أن أباه لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله أمرها أن ينحر بعض ولده ، فأخرجهم فأسهم بينهم فخرج السهم لعبد الله ، فأراد ذبحه فمنعه أخواله من بنى مخزوم وقالوا له : ارض ربك وافد ابنك ، ففداه ، فهو الذبيح المفتدى . وكان أجمل قريش ، وهو أخو الحارث ، والزبير ، وحمزة ، وضرار ، وأبى طالب ، وأبى لهب ، والمقوم ، والمغيرة ، ونوفل ، وعبد الكعبة ، ثم : أروى ، وبرة ، وأميمة ، وصفية ، وعاتكة ، وأم حكيم .

٢ — (ابن عبد المطلب) واسمه شيبة الحمد - كما صححه السهيلى - وقد سمى به لأنه ولد وفى رأسه شيبة ، وذكر ابن قتيبة أن اسمه « عامر » ويكنى بأبى الحارث - أكبر ولده - وبأبى البطحاء ، وإنما قيل له عبد المطلب : لأن أباه هاشما قال لأخيه المطلب وهو بمكة حين حضرته الوفاة : (أدرك عبدك بيثرب) استعطافا ، أو على عادة العرب فى قولهم لليتيم المربى فى حجر شخص . عبده (٢) ، وكان عبد المطلب سيد قريش بعد هاشم . وكانت إليه

---

(١) نقلا عن سيرة ابن هشام (١ / ١) وتفسيرها الروض الأنف للسهيلى ١/٧ - ١٣ ومختصر شرح الفتح الربانى ٢٠ / ١٧٧ - ١٨١

(٢) أنظر شرح الزرقانى على المواهب ١/٧١ — ٧٢ قلت : ومن هنا جرت التسمية بعبد النبى ، استعطافا .

السقاية والرفادة بعد المطلب ، وكان أول من طلى الكعبة بذهب فى أبوابها من تينك الغزالتين اللتين وجدهما فى زمزم مع الأسياف القلعية ، وكان عبد المطلب يفوح منه رائحة المسك الأزفر ، ونور رسول الله ﷺ يضىء فى غرته ، وكانت قريش إذا أصابها قحط تأخذ بيد عبد المطلب فتخرج به إلى جبل ثبير فيتقربون به إلى الله تعالى ويسألونه أن يسقيهم الغيث فكان يغيثهم ويسقيهم ببركة نور سيدنا محمد ﷺ غيثا عظيما(١) .

وقد وصفه الاثبات بأنه كان مجاب الدعوة ، محرم الخمر عن نفسه ، وقال ابن الأثير :

وهو أول من تحنث بحراء ، كان إذا دخل شهر رمضان صعده وأطعم المساكين ، وقال ابن قتيبة : كان يرفع من مائدته للطيور والوحوش فى رؤوس الجبال ، فكان يقال له : « الفياض » لجـوده ومطعم طير السماء(٢) .

٣ — (ابن هاشم) واسمه عمرو - مأخوذ من العمر بفتح العين وهو البقاء أو من عمور الأسنان — وإنما سمى بهاشم لانه كان يهشم الثريد مع اللحم لقومه فى الجدب ، وفيه قال الشاعر الزبعرى - والد عبد الله :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

سنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الاصياف (٣)

---

(١) أنظر المواهب اللدنية للأمام القسطلانى ١٥/١ الشرقية .

(٢) أنظر : شرح الزرقانى على المواهب ٧١/١ نشر دار المعرفة ببيروت .

(٣) أنظر مختصر شرح الفتح الربانى للشيخ أحمد البنا الساعاتى ١٧٨/٢٠

وذلك لانه أول من سن رحلتى الشتاء والصيف(١) لقريش وهـو أكبر ولد أبيه وكان توأم أخيه عبد شمس ولهما أخوان آخران : نوفل والمطلب ، وكان الاربعة قد سادوا قومهم بعد أبيهم وصارت إليهم الرياسة وكان يقال لهم المجيرون لانهم أخذوا لقومهم - قريش - الأمان من ملوك الاقاليم ليدخلوا فى التجارات إلى بلادهم ولهم يقول الشاعر :

يا أيها الرجل المحول رحله   هلا نزلت بآل عبد مناف

وإلى هاشم وأخيه المطلب ينتسب ذووا القربى الذين يسهم لهم فى الغنائم ، وفى مناقبه يقول :

العلامة الزرقانى نقلا عن « المنتقى فى السير »(٢) : « كان هاشم أفخر قومه وأعلاهم ، وكانت مائدته منصوبة لاترفع لافى السراء ولا فى الضراء وكان يحمل ابن السبيل ويؤدى الحقائق ، وكان نور رسول الله ﷺ فى وجهه يتوقد شعاعه ويتلألا ضياؤه ، ولا يراه حبر إلا قبل يده ، ولا يمر

---

(١) كانت رحلة الشتاء إلى الحبشة ورحلة الصيف إلى الشام ، ومن قبل هاشم لم تكن تجارة قريش تعدو مكة . وقد روى الشامى فى سيرته « ٣١٨/١ » عن الإمام ابن عباس - رضى الله عنهما أنه قال « والله لقد علمت قريش أن أول من أخذلها الإيلاف وأحاز لها الميرات لهاشم ، والله ما أخذت قريش حبلا لسفر ولا أناخت بعيراً لحضر إلا هاشم » .

(٢) مؤلفه الإمام سعيد الدين محمد مسعود الكازرونى الفارسى المتوفى سنة ٧٥٨ هـ « كشف الظنون ١٨٥١/٢ »

بشيء إلا سجد إليه(١) تغدو إليه قبائل العرب ووفود الأحبار يحملون بناتهم يعرضون عليه أن يتزوج بهن ، حتى بعث اليه هرقل ملك الروم ، وقال : إن لي ابنة لم تلد النساء أجمل منها ولا أبهى وجها ، فأقدم علي حتى أزوجكها فقد بلغني جودك وكرمك ، وإنما أراد بذلك نور المصطفى الموجود عندهم في الإنجيل ، فأبى هاشم »(٢) .

٤ – (ابن عبد مناف) . ومناف : مفعل من أناف ينيف إنافة إذا ارتفع ، فالإنافة هي : الإشراف والزيادة . والرفعة ، واسمه :(المغيرة) . فنقول من الوصف ، والهاء فيه : للمبالغة ، كما في علامة ونسابة ، وقد سمي به تفاؤلا ، لأنه يغير على الأعداء ، وقد ساد في حياة أبيه ، وكان مطاعا في قريش ، وكان يقال له : قمر البطحاء لجماله .

وقال الواقدي : وكان فيه نور رسول الله ﷺ ، وفي يداه لواء نزار ، وقوس إسماعيل وقد ذكر الزبير بن بكار عن موسى بن عقبة : أنه وجد كتابة في حجر : « أنا المغيرة بن قصي . آمر بتقوى الله وصلة الرحم »، وإياه عنى الشاعر عبد الله بن الزبعري بقوله :-

كانت قريش بيضة فتفلقت فالمح(٣) خالصه لعبد مناف(٤)

---

(١) لعل المراد بالسجود هنا تحية ما يمر عليه له من قبيل قبيح سجود الملائكة لسيدنا آدم عليه السلام أو سجود إخوة سيدنا يوسف عليه السلام له . وذلك بقرينة الجملة السابقة على هذه .

(٢) أنظر شرح الزرقاني على المواهب ٧٣/١

(٣) المح - بضم الميم وتشديد الحاء - فص البيضة وصفرتها . أنظر لسان العرب ٤٢٥/٣

(٤) أنظر لسان العرب لابن منظور ٤٢٥/٣-٤٢٦

وهو أخو عبد الدار وعبد العزى وعبد قصى ، ووالد هاشم وعبد شمس والمطلب»(١) .

ويقول ابن حزم «وفى عبد مناف : يجتمع معه - أى النبى ﷺ - بنو أمية وسائر بنى عبد شمس وبنو المطلب وبنو نوفل »(٢) .

٥ — (ابن قصى) واسمه زيد - كما روى عن إمامنا الشافعى رضى الله عنه وغيره - وإنما أطلق عليه قصى - تصغير قصى(٣) - لأنه بعد عن عشيرته فى قضاعة حين احتملته أمه فاطمة بنت سعد معها وهو صغير بصحبة زوجها ربيعة بن حرام الذى تزوجته بعد وفاة كلاب .

فلما كبر عاد إلى مكة ولم شمل قريش وجمعها من أنحاء البلاد لذا سمى « مجمعا » - اسم فاعل من جمع بتشديد الميم وفيه قال الشاعر :

أبوكم قصى كان يدعى مجمعا ... به جمع الله القبائل من فهر
وأنتم بنو زيد وزيد أبوكم ... به زيدت البطحاء فخرا على فخر(٤)

وقد كان قصى أول بنى كعب بن لؤى أصاب ملكا أطاع له به قومه ، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، وحاز شرف

---

(١) أنظر : سيرة ابن هشام ٧٠/١

(٢) أنظر : جوامع السيرة لابن حزم بتحقيق د/إحسان عباس ، و د. ناصر الدين الأسد ص : ٢ ط / دار المعارف بمصر

(٣) بفتح القاف وكسر الصاد بوزن فعيل من قصا يقصو إذا أبعد .

(٤) أنظر سبل الهدى والرشاد للشامى ٣٢٤/١ ولسان العرب ١٢/٩ ٤ وشرح المواهب ٧٢/١

مكة كلها جميعا ، وكانت دار الندوة التى بناها قصى محل اجتماع القوم للتشاور فى مهام الأمور وعقد النكاح وعقد لواء الحرب التى لا يعقدها لهم إلا قصى أو بعض بنيه ، وولى قصى أمر الكعبة ومكة ، ولم تكن مكة بها بيت فى الحرم .

وإنما كانوا يكونون بها حتى إذا أمسوا خرجوا لا يستحلون أن يصيبوا فيها جناية ، ولم يكن بها بيت قديم(١) .

ومن مآثر قصى كذلك : أنه أحدث وقود النار بالمزدلفة ليراها من دفع عرفة ، وهو الذى حفر أول بئر لقريش بمكة - وهى بئر العجول - ومن قبله كانت تشرب قريش من آبار خارج مكة(٢) .

ثم لقد قسم قصى مكارمه بين أولاده ، فأعطى عبد مناف : السقاية والندوة ، فكانت فيه النبوة والثروة ، وأعطى عبد الدار الحجابة واللواء ، وأعطى عبد العزى الرفادة والضيافة أيام منى ، واعطى عبد قصى فم الوادى ووسطه ، فساد بذلك أبناؤه قريشا ، ثم لقد مات قصى بمكة ودفن بالحجون ، فتدافن الناس بها بعده(٣) .

وكان - كما تصفه المصادر - رجلا جميلا وعالم قريش وأقومها بالحق(٤) .

٦ - (ابن كلاب) - بكسر الكاف وتخفيف اللام - وهذا لقب لقب به لمحبته كلاب الصيد ، أو لمحبته للصيد وكان أكثر صيده بالكلاب(٥) .

وذكر السهيلى : أن لفظ كلاب منقول إما من المصدر الذى هو فى

---

(١) أنظر : سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للصالحى ٣٢٤/١
(٢) ، (٣) نفس المصدر
(٤) ، (٥) أنظر شر الزرقانى على المواهب اللدنية ٧٤/١

معنى المكالبة ، نحو كالبت العدو فكالبة وكلابا ، وإما من الكلاب جمع كلب ، لأنهم يريدون الكثرة ، كما سموا بسباع وأنمار .

وذكر أنه قيل لأبى الرقيش الأعرابى : لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء ، نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسن الأسماء ، نحو : مرزوق ورباح ؟؟

فقال : إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا !! أى أن الأبناء عدة وسهام فى نحور الأعداء(١) .

أما اسم كلاب فهو : (حكيم) وقيل (الحكيم) وقيل : (المهذب) وقيل (عروة) والصحيح : أنه حكيم فهو الذى اشتهر عند العرب .

وقال الشاعر :

حكيم بن مرة ساد الورى ببذل النوال وكف الأذى

ويكنى كلاب بأبى زهرة ، إذ كان له من البنين قصى وزهرة ، فهو جد ﷺ لأبيه وأمه معا فأمه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة رضى الله تعالى عنها ، وكان كلاب أول من حلى السيوف بالذهب والفضة(٢) .

٧ — (ابن مرة) بضم الميم - وهو منقول إما من وصف الرجل بالمرارة ، والتاء فيه للمبالغة إذ يقال : مر الشىء وأمر إذا اشتدت مرارته وإما من وصف الحنظل والعلقم كما سمى بحنظلة وعلقمة ، وإما من القوة كما فى قوله تعالى « ذو مرة فاستوى »(٣) .

---

(١) أنظر الروض الأنف للسهيلى ٨/١ وسبل الهدى والرشاد ٣٢٦/١

(٢) أنظر المصدر السابق ومختصر شرح الفتح الربانى ١٧٩/٢٠

(٣) سورة النجم / ٦

وإما من اسم بقلة تقطع فتؤكل بالخل ، كما روى عن الإمام أبي حنيفة رضى الله عنه[١] . .

ويكنى مرة بأبي يقظة ، وهو أحد أبنائه الثلاثة الذى تفرع عنه بنو مخزوم ، وابناه الآخران كلاب وتيم الذى تفرع عنه رهط سيدنا أبي بكر الصديق وسيدنا طلحة بن عبيد الله رضى الله تعالى عنهما .

٨ - (ابن كعب) وهذا الاسم منقول إما من الكعب الذى هو قطعة من السمن ، وإما من كعب القدم ، قال السهيلى : وهو عندى أشبه ، لقولهم ثبت ثبوت الكعب . واستدل لذلك بما وصف به سيدنا عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما - فى محنته ، إذ قيل إنه كان يصلى عند الكعبة يوم قتل ، وحجارة المنجنيق تمر بأذنه وهو لا يلتفت كأنه كعب راتب - أى ثابت[٢] وقيل : بل أخذ اسمه أخذ من كعب القناة التى يطعن بها فى الحرب وذلك لشجاعته .

قال الإمام الشافعى فى ترجمة كعب : وكان عظيم القدر عند العرب ، ولهذا أرخوا بموته إلى أن كان عام الفيل ، فأرخوا بموت عبد المطلب[٣]

وقال السهيلى : وكعب بن لؤى هذا : أول من جمع[٤] يوم العروبة ، وقيل : هو أول من سمى هذا اليوم بيوم الجمعة ، وقال آخرون : بل هو

---

(١) أنظر السيرة الشامية ٣٢٨/١

(٢) أنظر الروض الأنف ٨/١

(٣) أنظر السيرة الشامية ٣٢٩/١

(٤) جمع بتشديد الميم - أى جمع قومه وخطبهم ، ونقل الشامى عن بعضهم أن كعب أول من قال (أما بعد)

إسم إسلامى ولم يكن فى الجاهلية(١) . وكانت قريش تجتمع إليه فى هذا اليوم فيخطبهم ويأمرهم بتعظيم الحرم ويذكرهم بمبعث النبى ﷺ ويعلمهم بأنه من ولده ويأمرهم بإتباعه والإيمان به وينشد فى ذلك أبياتاً منها .

يا ليتنى شاهد فحواء دعوته   حين العشيرة تبغى الحق خذلانا(٢)

وأيضاً كان يقول :

على غفلة يأتى النبى محمــد   يخبر أخباراً صدوق خبيرها(٣)

وكان بين موت كعب ومبعث النبى صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وستون سنة ، ذكره الحافظ أبو نعيم والحافظ ابن الجوزى(٤) ، وخلف من الذكور ثلاثة : مرة ، وهصيص ، المكنى ـ وعدس .

٩ ـ (ابن لؤى) وهذا الاسم تصغير لأى وهو البطء ، كأنهم يريدون معنى الأناة وترك العجلة ، وقيل : بل إنه منقول من لواء الجيش ، وقيل من لوى الرمل .

وكان لؤى حليما حكيما نطق بالحكمة صغيرا ، ومما يؤثر من حكمه «من رب معروفة لم يخلق ولم يخجل ، فإذا أخمل الشىء لم يذكر ، وعلى من أولى معروفا نشره ، وعلى المولى تصغيره وطيه »(٥) وله سبعة ذكور .

---

(١) نقل الشامى فى سيرته ١/٣٢٩ تصحيح القول الأول عن المحب ابن الهائم والثانى عن ابن حزم

(٢) أنظر المواهب اللدنية للإمام القسطلانى ١/١٤

(٣) أنظر الوفاء لابن الجوزى ١/٧٤ والسيرة للشامية ١/٣٣٠

(٤) أنظر دلائل النبوة لأبى نعيم ص٢٢ والوفاء لابن الجوزى ١/٧٤

(٥) أنظر سبل الهدى والرشاد للشامى ١/٣٣١ وقد ضبط النص فيه ببناء أولى للمجهول والمولى اسم فاعل

١٠ - (ابن غالب) والاسم هنا منقول من اسم فاعل مشتق من الغلب وكنيته : أبو تيم ، إذ له من الأبناء تيم - الأدرم - ولؤى ، وقد عرف بالأدرم : لأن أحد لحييه كان أنقص من الآخر (١) .

١١ - (ابن فهر) وهو لقب له - فى بعض الأقوال - مأخوذ من الفهر وهو الطويل من الحجارة وأما اسمه : فقريش كما رجحه ابن بكار وبه سميت القبيلة كلها ، وإليه تنسب ، قال ابن شهاب الزهرى :

« وهو الذى أدركت عليه من أدركت من نساب العرب أن من جاوز فهراً فليس من قريش والحق أن هذا مذهب لكثير من النساب وليس لجميعهم ، فقد قال آخرون - ومنهم إمامنا الشافعى رضى الله تعالى عنه - إن أصل قريش :

النضر ، وعزاه العراقى للأكثرين فقال :

أما قريش فالأصح فهر جماعها والأكثرون النضر

واحتج الأثبات لذلك بما رواه ابن ماجه عن الأشعث بن قيس رضى الله تعالى عنه أنه قال :

« قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وفد كندة ، فقلت : ألستم منا يا رسول الله ؟ قال : لا نحن بنو النضر بن كنانة ، لا نقفو أمنا ولا ننتفى من أبينا(٢) .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) أخرجه بن ماجه فى كتاب الحدود من سننه (٨٧١/٢) وقال الحافظ العلائى : رجاله ثقات .

وذهب بعضهم – كأبى عمرو بن العلاء – إلى أن قريشا : بنو إلياس ابن مضر . وقيل غير ذلك(١) .

وقد روى ابن أبى شيبة أن الإمام ابن عباس قد سأله عمرو بن العاص – رضى الله عنهم – : لم سميت قريش قريشا ؟ ؟ قال : بالقرش ، دابة تأكل الدواب لشدتها ونقل عن المطرزى أنه قال عن هذه الدابة : إنها ملكة دواب البحر وأشدها ، فكذلك قريش سادات الناس ! !

وقيل : إن قريشا من التقرش وهو التجمع ، وإنما سميت قريشا لما جمعهم قصى بن كلاب حين قدم مكة(٢) .

والقول الأول أرجح بل الصحيح ، حيث أن بعض الرافضة قد عزا قريشا إلى قصى لاقتضاء ذلك أن الشيخين الجليلين سيدينا أبا بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما وعنا بهما فى الدارين : ليسا – بهذا الزعم الباطل – من قريش ، ومن ثم يقال بإبطال إمامتهما ! !

أرأيت كيف اتخذ التلاعب فى الأنساب وسيلة لإبطال الخلافة الشرعية ؟ ؟

هذا : وقد كان فهر (قريش) رئيس أهل مكة فى زمنه ، وقد أنجب سبعة ذكور هم غالب وأسد وعوف وجون وريث والحارث ومحارب ، وانقسمت قريش إلى بطاح ، وهم من دخل مكة مع قصى الأبطح ،

---

(١) أنظر هذه الأقوال مفصلة فى سبل الهدى والرشاد ١/ ٣٣١ – ٣٣٣

(٢) أنظر المصدر السابق ، وارجع إلى شرح الزرقانى على المواهب ١/٧٦ .

وإلى ظواهر وهم من أقام بظاهر مكة كبطنى الحارث ومحارب(١) .

١٢ — (ابن مالك) وقد سمى مالكا : لأنه ملك العرب ، ويكنى : أبا الحارث ، وكان حكيما .

وقد روى الشامى — فى سيرته — من حكمه قوله : « رب صورة تخالف المخبرة قد غرت بجمالها ، واختبر قبيح فعالها ، فاحذر الصور ، واطلب الخبر »(٢) .

وقال الشامى : « ولم يكن له من الولد غير فهر »(٣) .

١٣ — (ابن النضر) وهو لقب لقب به « قيس » بن كنانة ، لنضارة وجهه وإشراقه وجماله ، وأمه : هى برة بنت مر بن أد بن طانجة(٤) بن الياس بن مضر وليست هى برة بنت أد التى تزوجها كنانة بعد أبيه خزيمة نكاح مقت كما كان شائعا عند العرب وحرمه الإسلام بعد ، فإن الجاحظ رحمه الله قد أزاله هذا الاشتباه الذى جعل البعض — ومنهم السهيلى — يزعم أن نكاح زوجة الأب وقع فى عمود نسب النبى ﷺ باعتباره مباحا الجاهلية بشرع متقدم وقال : « فكنانة تزوج امرأة أبيه خزيمة ، وهى برة بنت مر ، فولدت له النضر بن كنانة »(٥) .

فقال الجاحظ : « وخلف كنانة بن خزيمة على زوجة أبيه بعد وفاته ،

---

(١) أنظر المصدر السابق ، وراجع إلى شرح الزرقانى على المواهب ١/٧٦

(٢) ، (٣) أنظر : سبل الهدى والرشاد ١/٣٣٥ وأنظر شرح الزرقانى على المواهب ١/٧٦

(٤) أورده الشامى فى سيرته (طانجة) بينما أورده شارح المواهب اللدنية (طابخة) .

(٥) أنظر الروض الأنف ١/٢٥٤ ط الكليات الأزهرية .

وهى برة بنت أد بن طانجة بن إلياس بن مضر — وهى أم أسد بن الهون ابن خزيمة — ولم تلد لكنانة ولداً ذكرا ، ولكن كانت بنت أخيها ، وهى برة بنت مر بن أد بن طانجة — أخت لجشم بن مر ، عند كنانة بن خزيمة ، فولدت له النضر بن كنانة .

وقال - : وإنما غلط كثير من الناس لما سمعوا أن كنانة خلف على زوجة أبيه ، ولاتفاق إسمهما وتقارب نسبهما : وقع هذا الذى عليه مشايخنا وأهل العلم بالنسب .

وقال : ومعاذ الله أن يكون أصاب نسب سيدنا رسول الله ﷺ مقت نكاح ، قال رسول الله ﷺ : « مازلت أخرج من نكاح كنكاح الإسلام حتى خرجت من أبى وأمى »(١) اهـ .(٢) .

وهكذا يتبدد اللبس المشكل وتنقشع ظلمته عن نورانية وطهارة نسب سيد الخلق ﷺ .

١٤ - (ابن كنانة) وهذا الاسم منقول من الكنانة - بكسر الكاف -

---

(١) أخرج ابن سعد فى طبقاته حديثاً بمعناه عن الامام ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله علية وسلم أنه قال « خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح ، كما روى البيهقى حديثاً آخر مرفوعاً بمعناه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مارلدنى من سفاح الجاهلية شىء ماولدنى إلا نكاح الاسلام » .
أنظر فيض القدير شرح الجامع الصغير للحافظ المناوى ٤٣٧/٣ ط التجارية
وانظر كنز العمال ٤٠١/١١

(٢) أنظر سبل الهدى والرشاد للشامى ٣٣٧/١

التى هى الجعبة - بفتح الجيم وسكون العين - وقد سمى بذلك تفاؤلا بأنه يصير كالكنانة الساترة للسهام فكان سترا على قومه ، وكان كنانة من أولى العلم والبصيرة النيرة . يحج إليه العرب لثاقب معرفته وعظيم قدره ، فقد روى عن عامر العدوانى أنه قال لابنه فى وصيته : « يا بنى : أدركت كنانة ابن خزيمة ، وكان شيخاً مسناً عظيم القدر ، وكانت العرب تحج إليه لعلمه وفضله »(١) . وكان على صلة وثقى بالله تعالى ومجاب الدعوة ، فيروى العلامة الشامى عن أبى الربيع أنه قال : « إن كنانة رأى وهو نائم فى الحجر فقيل له: تخير يا أبا النضر بين الصهيل والهدر وعمارة الجدر وعز الدهر . فقال : كل يارب . فصار هذا كله فى قريش »(٢) وقد أنجب من الذكور : ملكان ، والنضر ، وعمرو ، وعامر(٣) .

١٥ — (ابن خزيمة) تصغير خزمة ، اسم مرة من الخزم الذى هو : شد الشىء وإصلاحه ، أو هو تصغير خزمة - بفتح الخاء وسكون الزاى - وهى واحد الخزم ، نبات مثل الدوم . غير أنه أقصر وأعرض وأعبل وله أقناء وبسر يسود إذا أينـــع ، يتخذ من سعفه الحبال ويصنع من أسافله خلايا النحل ، بيد أن الشيخ الزرقانى ينقل عن صاحب الخميس (٤) قوله « إنما سمى خزيمة تصغير خزمة ، لأنه اجتمع فيه نور آبائه وفيه نور رسول الله ﷺ ، وذكر فى السيرة الشامية من مآثره : أنه كانت له على

---

(١) أنظر : سبل الهدى والرشاد ١/٣٣٨ وشرح الزرقانى على المواهب ١/٧٧

(٢) ، (٣) نفس المصدر .

(٤) هو الامام القاضى حسين بن محمد الديار بكرى المالكى المتوفى سنة ٩٦٠ هـ مؤلف « الخميس فى أحوال النفس النفيس » فى السير .

أنظر كشف الظنون ١/٧٢٥

الناس مكارم أخلاق وأفضال حتى قيل فيه :

أما خزيمة فالمكارم جمة سبقت إليه وليس ثم عتيد

وروى عن سيدنا عبد الله بن عباس — رضى الله تعالى عنهما — أنه قال : « مات خزيمة على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام »(١) وخلف خزيمة من الذكور أربعة : كنانة وأسد وأسدة - وهو رجل - والهون الذى تفرع عنه القارة(٢) .

١٦ - (ابن مدركة) وهذا لقب ، فنقول من اسم فاعل من الإدراك ولحقته تاء المبالغة . وأما اسمه على الصحيح : فعمرو . وإنما لقب بمدركة ، لأن أباه إلياس خرج هو وبنوه عمرو ، وعامر ، وعمير ، وأمهم ليلى بنت حلوان فى نجعة لهم فنفرت إبلهم فخرج إليها عمرو فأدركها فسمى مدركة ثم طبخها عامر فسمى طابخة ، وانقمع عمير فسمى قمعة (٣) وتخندفت أمهم ليلى - أى مشت مشية كالهرولة ، فقيل لها خندف بكسر الخاء وسكون النون وكسر الدال .

بيد أن العلامة الزرقانى عليه رضوان الله قد وقفنا على سر تلقيب مدركة إذ قال : « لقب به : لإدراكه كل عز وفخر كان فى آبائه ، وكان فيه نور المصطفى ظاهرا بيناً »(٤) .

---

(١) أنظر سبل الهدى والرشاد ٣٢٩/١ وشرح الزرقانى على المواهب ٧٨/١

(٢) أنظر سبل الرشاد ٣٢٩/١ وانظر جوامع السيرة لابن حزم ص ٣

(٣) قمعة — بفتح القاف وسكون الميم وفتح العين — قيل أن من ذريته عمرو بن لحى بن قمعة الذى غير دين الحنيفية .

(٤) أنظر شرح الزرقانى على المواهب ٧٨/١

١٧ — (ابن إلياس) بكسر همزة القطع عند ابن الأنباري وطائفة ، فقالوا : إنه إفعال من قولهم : أليس للشجاع المقدام الذي لا يفر ، ورجح الأكثرون : أن همزة (إلياس مفتوحة للوصل ، ولامه للتعريف ، على أنه من اليأس - الذي هو ضد الرجاء - لأنه قد ولد لأبيه على الكبر واليأس ، وقيل إن الياس لقب له وأما اسمه : فحبيب(١) ، وله مآثر جمة :-

فمما أورده الأثبات من مناقبه : ماذكره علامة الأنساب الزبير بن بكار من أنه لما أدرك إلياس أنكر على بنى إسماعيل ماغيروا من سنن آبائهم وسيرهم ، وبان فضله عليهم وجمعهم رأيه ، ورضوا به فردهم إلى سنن آبائهم ، ولم تزل العرب تعظمه تعظيم أهل الحكمة ، كتعظيمها لقمان وأشباهه(٢) .
ومنها : أنه كان أول من وضع ركن البيت الحرام للناس بعد هلاكه ووضع مقام إبراهيم فى زاوية البيت بعد زمن سيدنا إسماعيل على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهو أول من أهدى البدن إلى البيت الحرام .

ومن أعظم مناقبه : ماذكره السهيلي والشامي والزرقاني والواقدي وغيرهم من أنه كان يسمع فى صلبه تلبية النبي صلى الله عليه وسلم بالحج(٣) !!
وقال ابن دحية : وهو وصى أبيه ، وكان ذا جمال بارع ، ولما مات أسفت عليه زوجته حتى ضرب المثل بحزنها عليه إذ نذرت أن لا تقيم ببلد مات فيه وهامت بعده فى الأرض حتى هلكت حزناً وإلياس أخو غيلان والدقيس كلها(٤)

---

(١) أنظر شرح الزرقاني على المواهب ٧٨/١ والسيرة الشامية ٣٤٠/١-٣٤١

(٢) نفس المصدرين .

(٣) أنظر الروض الأنف ١٠/١ والسيرة الشامية ٣٤١/١ وشرح المواهب ٧٨/١

(٤) المصدر السابق ، ومختصر شرح الفتح الرباني ١٨٠/٢٠

١٨ – (ابن مضر) وهو لقب معدول عن ماضر ، وقد لقب به قيل لولعه بشرب اللبن الماضر أى الحامض ، وقيل : لبياض لونه ، وقيل : لأنه كان لفرط حسنه وبهائه يمضر قلب من رآه ، أما إسمه فهو عمر ؛ وكان من أحسن الناس صوتا ، وهو أول من سن الحداء للإبل ، وقد أخرج ابن سعد عن عبد الله بن خالد مرسلا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «لا تسبوا مضر فإنه كان قد أسلم»(١) .

ومن حكمه المأثورة «من يزرع شرا يحصد ندامة وخير الخير أعجله فاحملوا أنفسكم على مكروهها واصرفوها عن هواها فيما أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق»(٢) .

١٩ — (ابن نزار) - بكسر النون - وسبب تسميته بذلك ما رواه الثقات من أن أباه - حين ولد له - نظر إلى نور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بين عينيه ، وهو نور النبوة الذى كان يتنقل فى الأصلاب ، ففرح به فرحا شديدا ونحر وأطعم شيئا كثيرا وقال : إن هذا كله نزر - أى قليل - لحق هذا المولود ، فسمى نزارا لذلك ! !

ويضيف صاحب الخميس : إنه خرج أجمل أهل زمانه وأكبرهم عقلا ، وقال أبو الفرج الاصبهانى : سمى بذلك لأنه كان فريد عصره وعليه اقتصر

---

(١) أنظر طبقات ابن سعد ٥٨/١ ط بيروت والفتح الكبير للإمام النبهانى ٣٢٤/٣ وانظر تخريجه مرسلا عن سعيد بن المسيب بسند جيد وكذا عن الحسن بسند جيد مرسلا فى سبل الهدى والرشاد ٣٤٤/١ وكل هذه المعاضدة قوة للحديث .

(٢) أنظر المصدر الاخير .

الفتح والإرشاد ، وكانت أمه جرهمية باتفاق ، وقد أنجب نزار ربيعة ومضر وإيادا - وبه كان يكنى - وأنمارا(١) .

٢٠ — (ابن معد) - بفتح الميم والعين وتشديد الدال - مفعل من العد ، أو فعلا - بتشديد اللام - من المعد وهو القوة ، ويقال معد الرجل فى الأرض ، إذا ذهب ، كما يقال : تمعدد الغلام إذا اشتد وصلب ؛ وأيضا : تمعدد بمعنى خطب وتعبد وتكلم(٢) .

قال صاحب الخميس : وسمى معدا لأنه كان صاحب حروب وغارات على بنى إسرائيل ولم يحارب أحدا إلا يرجع بالنصر(٣) .

وقال الشامى فى سيرته : « ولما كان زمان بختنصر كان لمعد بن عدنان ثنتا عشرة سنة .

قال أبو جعفر الطبرى رحمه الله تعالى . أوحى الله تعالى فى ذلك الزمان إلى أرميا بن خلقيا ، أن اذهب إلى بخت نصر فاعلمه أنى قد سلطته على العرب وأحمل « معدا » على البراق كيلا تصيبه النقمة منهم ، فإنى مستخرج من صلبه نبيا كريما أختم به الرسل ، فاحتمل معدا على البراق إلى أرض الشام فنشأ فى بنى إسرائيل وتزوج هناك امرأة يقال لها معانة بنت جوشن .. » (٤) .

---

(١) أنظر الطبقات الكبرى لابن سعد ١/٥٨-٥٩ ط دار بيروت للطباعة والنشر.

(٢) الروض الأنف ١/١٠ ، وسبل الهدى والرشاد ١/٣٤٦

٣) شرح المواهب اللدنية ١/٧٩

(٤) « السيرة الشامية ١ / ٣٤٧ ، وقد أضاف شارح الفتح الربانى بعد هذا النص إلى الرواية « . . ثم عاد بعد أن هدأت الفتن وتمحضت جزيرة العرب » نظر مختصر شرح الفتح الربانى ٢٠/١٨٠

ونقل عن ابن حبيب : أنه ولد لمعد سبعة عشر رجلا أعقب منهم ثمانية هم عمرو — الملقب بقضاعة - ونزار ، وإياد الأكبر ، وحيدان ، وعبيد - الرماح - وجنيد ، وسليم ، وقنص(١) .

٢١ — (ابن عدنان) واسمه مأخوذ من عدن بالمكان إذا أقام به وثبت ، ومنه جنات عدن أى جنات إقامة لمكان الخلد(٢) ، وقد نقل شارح المواهب عن أبي جعفر بن حبيب — من تاريخه - عن الامام ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - أنه قال : « كان عدنان ومعد وربيعة وخزايمة وأسد على ملة إبراهيم فلا تذكروهم إلا بخير »(٣) .

كذلك روى عن الزبير بن بكار : أن عدنان أول من وضع أنصاب الحرم - أى حدوده - وأول من كسا الكعبة أو كسيت فى زمانه ، وقال البلاذرى : أول من كساها الأنطاع - أى بساط الأدم - عدنان(٤) اهـ .

وفى عدنان يجتمع . مع النبى صلى الله عليه وسلم فى النسب بنو عك ومنهم بنو غافق .

هـذا : وقد أجمع العلماء والنسابون على هذا النسب الذى أوردناه للنبى ﷺ إلى جده عدنان بلا خلاف وعرب الحجاز جميعاً من سلالة عدنان

---

(١) أنظر سبل الهدى والرشاد ١/٢٤٧ — ٣٤٨

(٢) أنظر لسان العرب ١٧/ ١٥٠ والروض الأنف ١/١١ .

(٣) أنظر شرح المواهب ١/٧٩ .

(٤) نفس المصدر .

فكلهم - لاسيما قريش - يلتقون فيه مع النبى ﷺ ومن ثم : روى البخارى عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما : أنه سأل عن قوله تعالى : « .. إلا المودة فى القربى .. »(١) فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد ﷺ ، فقال ابن عباس : عجلت ، إن النبى ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة »(٢) .

كذلك روى عن الامام ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال فى تفسير قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم .. »(٣) : - « ليس من العرب قبيلة إلا ولدت النبى ﷺ ، مضربها وربيعيها ويمانيها »(٤) .

ثم إنه لاخلاف أيضاً على نسبة عدنان إلى سيدنا إسماعيل بن سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليهما السلام - بيد أن الخلاف إنما هو فى تحديد عدد وشخصيات الآباء من عدنان إلى سيدنا إسماعيل ، فبعضهم يرفع العدد إلى أربعين وبعضهم يراه سبعة ، وغيرهم يرى أن ما بين عدنان وسيدنا إبراهيم عليه السلام أربعة آباء لاغير .

ولهذا الاختلاف روى عن الامام ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز معد بن عدنان بن أدد ثم يمسك ويقول « كذب النسابون » ! !

---

(١) من الآية / ٢٢ من سورة الشورى .

(٢) أنظر صحيح البخارى : كتاب تفسير القرآن ١٢٤/٣ ط حجازى .

(٣) الآية / ١٢٨ من سورة التوبة

(٤) أنظر : الوفا لابن الجوزى ٧٩/١

قال الله عز وجل : « وقروناً بين ذلك كثيرا »(١) . (٢) .

ومن ثم توقف الكثرة من السلف فى النسب عند عدنان ورفعه آخرون إلى الخليل عليه السلام .

ولقد ورد فى نسبة عدنان إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام حديث مرفوع رواه الطبرانى والحاكم عن السيدة أم سلمة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : معد بن عدنان بن أدد بن زند بن البراء ابن أعراق الثرى ، - قالت - ثم قرأ رسول الله ﷺ « أهلك عادا وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيرا لا يعلمهم إلا الله » - قالت أم سلمة - وأعراق الثرى : إسماعيل بن إبراهيم ، وزند : هميسع ، وبراء : نبت »(٣) .

وفى رواية الدولابى من طريق موسى بن يعقوب : أن السيدة أم سلمة - رضى الله عنها - فسرت أعراق الثرى بأنه إسماعيل لأنه ابن إبراهيم ، وإبراهيم لم تأكله النار كما أن النار لا تأكل الثرى(٤) .

ويرى السهيلى أن حديث السيدة أم سلمة هذا هو أصح حديث روى

---

(١) سورة الفرقان /٣٨

(٢) أخرجه ابن سعد فى طبقاته ٥٦/١ وخرج الامام القسطلانى نحوه فى المواهب (٥/١) عن مسند الفردوس للديلمى ، ونقل عن السهيلى تصحيح روايته عن ابن مسعود رضى الله عنه .

(٣) أخرجه الحاكم فى مستدركه : كتاب التفسير ٤٠٣/٢ وصححه وأقره الذهبى وخرجه الشامى كذلك عن الطبرانى . انظر سبل الهدى والرشاد ٣٥١/١ وفيها (اليرى) بدلا من البراء . وهو شجر طيب الرائحة .

(٤) أنظر الروض الأنف للسهيلى ١١/١ نشر مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة

فى هذا الباب ، ومع ذلك فهو غير معارض كما تقدم من قوله « كذب النسابون » لأن بنوة البراءة - أو اليرى - لاعراق الثرى يحتمل أن لا تكون بنوة مباشرة . بل بوساطة آباء كثيرين حيث أجمع المؤرخون على بعد المدة بين عدنان وإسماعيل — عليه السلام — وذلك بقرينة معاصرة معد لبختنصر كما مر فى ترجمته . مما يستحيل معه أن يكون بين عدنان والخليل عليه السلام أربعة آباء أو سبعة .

بيد أن ابن إسحق يرى أن عدنان هو ابن أد (١) — ويقال أدد — بن مقوم(٢) بن ناحور(٣) ابن تيرح(٤) بن يعرب بن يشجب(٥) بن نابت ابن إبراهيم عليهما السلام .

ثم يرفع بقية النسب إلى سيدنا آدم على نبينا وعليه السلام فيذكر أن سيدنا إبراهيم هو ابن تارح — وهو آزر (٦) — بن ناحور بن ساروغ

---

(١) أد — بضم الهمزة وتشديد الدال — وهو إما مأخوذ من مادة (أدد) فهمزته أصلية . والأد — بفتح الهمزة — هو الأمر العظيم أو الداهية ، وإما من الود فتكون الهمزة منقلبة عن واو لانضمامها أولا .

(٢) مقوم — بضم الميم وفتح القاف وكسر الواو المشددة ، اسم فاعل من قوم .

(٣) مأخوذ من النحر — إن عربيا —

(٤) فيعل من الترحة وهى الفرحة . هذا إذا كان اللفظ عربياً كما ذكر السهيلى فى الروض ١٢/١

(٥) من الشجب بفتح الجيم ، يقال شجبه بمعنى : أهلكه وحزنه وشغله وجذبه أنظر القاموس المحيط ٨٨/١

(٦) الحق أن آزر لم يكن والد سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه السلام — بل =

بن راغو بن فالخ(١) بن عيبر بن شالخ بن أرنخشذ - وهو المصباح المضىء - ابن سام بن سيدنا نوح عليه السلام . وهو ابن لمك بن متوشلخ(٢) ابن أخنوخ - وهو إدريس النبي عليه السلام - ابن يرد بن مهليل بن قينن ابن يانش بن شيث بن سيدنا آدم عليه السلام(٣) .

هذا : وقد أثبتنا هذا النسب الشريف مرفوعا إلى أبى البشر سيدنا آدم - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - على مذهب من أجاز ذلك من الأئمة كالبخارى والطبرى وابن إسحق .

أما الإمام مالك - رضى الله تعالى عنه - فقد سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى سيدنا آدم فكره ذلك ، كما كره أن يرفع فى نسب الأنبياء ، لعدم التحقق فى هذا الصدد ، إذ قال : « ومن يخبره به »(٤) ؟ ؟

= كان عمه كما ذكره جمع من المحققين منهم الفخر الرازى والحافظ السيوطى وغيرهما وقد استدل الفخر — فى أسرار التنزيل — لذلك بقوله تعالى « وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين » قال : ففيه دلالة على أن جميع آباء محمد ﷺ — كانوا مسلمين وأدلة أخرى لذلك . ارجع إليها فى شرح الزرقانى على المواهب ١/١٧٤

(١) نقل الشامى عن ابن هشام - فى التيجان - أنه اسم سريانى معناه : وكيل وأنه أخو هود .

(٢) ذكر السهيلى فى الروض ١/١٣ : أن معناه : مات الرسول ، لأن أباه كان رسولا .

(٣) انظر سيرة ابن هشام بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ١/١ ط صبيح وعيون الأثر لابن سيد الناس ١/٢٢ وطبقات سعد ١/٥٩ ط بيروت .

(٤) أنظر الروض الأنف للسهيلى ١/١٤ — ١٥

ونحن لا نذكر النسب الشريف من بعد عدنان على سبيل التحقيق وإنما قصداً لالتماس مسرى النور المحمدي فى أصلاب آبائه الكرام - ولو ظناً - على سبيل التبرك والتشرف .

ونختتم الكلام فى نسبه الشريف بهذا الحديث النورانى الذى رواه الامام البيهقى - فى دلائل النبوة - عن سيدنا أنس رضى الله تعالى عنه عن النبى ﷺ أنه قال :

« أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار . وما افترق الناس فرقتين إلا جعلنى الله فى خيرهما . فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شىء من عهد الجاهلية ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبى وأمى ، فأنا خيركم نسباً وخيركم أبا »(١) .

وكما تتبع المؤرخون والنساب آباءه صلى الله عليه وسلم كذلك تتبعوا أمهاته عليه أفضل صلوات الله وتسليماته وتحققت لديهم طارتهن الوضاءه ، فهذا ابن سعد يروى فى طبقاته عن عالم الأنساب محمد بن السائب الكلبى أنه قال : « كتبت للنبى صلى الله عليه وسلم خمسمائة أم فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية »(٢).

---

(١) خرجه العلامة علاء الدين الهندى فى كنز العمال (٤٠١/١١) عن البيهقى وابن كثير - فى البداية والنهاية (٢٥٥/٢) ونقل قوله فيه : هذا حديث غريب جداً من حديث مالك تفرد به .

(٢) أنظر : طبقات ابن سعد ٦٠/١ وعيون الأثر لابن سيد الناس ٢٤/١ واللفظ منه .

إنها المآثر ومناقب النبى صلى الله عليه وسلم فى آبا
خيار من خيار ، لقد سطع نوره صلى الله عليه وسلم فى الآباء والأجداد
فتحقق لهم ما وقفنا على اليسير منه من المجد الباذخ والمآثر الجمة فسموا به
ذرى العلياء كما قال الشاعر :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمرى ولكن فيه شيبان
وكم أب قد علا بابن ذرى شرف
كما علا برسول الله عدنان(١)

صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم

---

(١) أنظر شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ٨٠/١ والأبيات فيه منسوبة لأبى العباس على بن الرومى .

الفصل الرابع

أبوى النبى صلى الله عليه وسلم وحمل أمه به

الأحداث التى تقترب بنا من إشراق أنوار المولد المحمدى فى مصادرها الموثقة نجد تلك الأحداث تحمل طابعا غير عادى، فهى لا تسير بمحض المصادفة، وإنما يسيرها تقنين إلهى يدفع بها دفعا إلى غاية مرتقبة وفى خلال سيرها تشع منها أقباس الإرهاص بمقدم النور، وغالبا ما يأخذ هذا الإشعاع وضعا خارقا للعادة ليفضى بالمقدمات التى توحى بمترتباتها، ومن ثم تتشابك الأحداث وتتعانق فى إحراز غاياتها المرتقبة،

لقد تواترت النبوءات وتزاحمت البشريات، فيروى الحافظ أبو نعيم بسنده — فى دلائل النبوة — عن عبد المطلب جد المصطفى ﷺ أنه قال: «قدمت اليمن فى رحلة الشتاء فنزلت على حبر اليهود، فقال رجل من أهل الديور - يعنى أهل الكتاب -: من الرجل؟

قلت: من قريش، قال: من أيهم؟ قلت: من بنى هاشم. قال: يا عبد المطلب، أتأذن لى أن أنظر إلى بعضك؟ قال، نعم(١) ما لم يكن

---

(١) فى رواية «الوفا» لابن الجوزى: (.. أتأذن لى أن أنظر إلى بعض جسدك» قلت نعم .. (الوفا ١/٨٤)

وأجداده وجداته:

ف آبائه وأجداده

عورة ، قال : ففتح إحدى منخرى ثم فتح الآخر فقال : أشهد أن فى إحدى يديك ملكا وفى الآخر نبوة ! !

وإنا نجد ذلك فى بنى زهرة . فكيف ذلك ؟ قلت : لا أدرى . قال : هل لك من شاعة ؟ قلت : وما الشاعة ؟ قال : الزوجة .

قلت: أما اليوم: فلا . قال: فإذا رجعت فتزوج فيهم . فرجع عبد المطلب إلى مكة فتزوج بهالة بنت وهيب بن عبد مناف بن زهرة ، فولدت له حمزة وصفية ، وتزوج عبد الله[1] بن عبد المطلب آمنة بنت وهب، فولدت له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووهب ووهيب أخوان فقالت قريش حين تزوج عبد الله . فلج[2] عبد الله على أبيه » ! !

وأخرج أبو نعيم أيضا عن يزيد بن شهاب الزهرى أنه قال : « كان عبد الله بن عبد المطلب أحسن رجل رئى قط ، خرج يوما على نساء قريش مجتمعات ، فقالت امرأة منهن : أيكن يتزوج بهذا الفتى فتصطب النور الذى بين عينيه ، فإنى أرى بين عينيه نورا ، فتزوجته آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم »[4] .

---

(١) كان تزوج عبد الله فيما بعد ، فإن الواو لا تفيد تعقيبا وإنما هى لمطلق الجمع .

(٢) معنى فلج : فاز

(٣) أخرج هذه الرواية كل من الحكم والبيهقى والطبرانى وأبو نعيم — واللفظ منه فى دلائل النبوه ١/٣٨ — وكذا ابن الجوزى فى الوفا ١/٨٤

(٤) أنظر دلائل النبوة لأبى نعيم : ١/٤٠

إن النور الذى أوشك على الظهور قد سبقته البشريات فى كتب الله السابقة ولاحت دلائله وأعلامه لدى أهل الكتاب من جانب ؛ ولدى أهل الفراسة والشفافية والجلاء البصرى من جانب آخر . فاستشرفت القبائل لتقلد هذا الشرف الذى لا يطاول ، كما إشرأبت له أعناق أهل الكتاب فود اليهود الظفر بأمنية أن يكون منهم رسول الله الخاتم . ولكن سبقت كلمة الله أن يحمل هذا النور بنو إسماعيل عليه السلام بدعوته مع أبيه الخليل - على نبينا وعليهما السلام — « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم »(١) .

ومما يدل كذلك على استجلاء نور نبينا صلى الله عليه وسلم فى وجه أبيه عبد الله قبل زواجه بأمه وبعده قبل الحمل به صلى الله عليه وسلم : أن أكثر من امرأة من قريش عرضت نفسها على عبد الله بن عبد المطلب ، لتحمل النور الذى معه .

فقد روى ابن سعد — فى طبقاته — وابن الجوزى . وابن سيد الناس وغيرهم أن عبد الله بن عبد المطلب — بعد أن نحرت الإبل فداء له — مر مع أبيه على امرأة من بنى أسد . هى قتيلة (٢) بنت نوفل — أخت ورقة ابن نوفل — وهى عند الكعبة . وكانت تنظر وتعتاف (٣) .

---

(١) سورة البقرة /١٢٩

(٢) ورد اسمها هكذا فى طبقات ابن سعد ١/ ٩٥ وذكر السهيلى أن اسمها رقية بنت نوفل بينما ورد إسمها «أم قتال بنت نوفل» فى الوفا ١/٨٦

(٣) معنى تعتاف : تتكهن بالطير وغيرها . والعبارة فى عيون الأثر ١/٢٣

الفصل الرابع

فى ذكر زواج أبوى النبى صلى الله عليه وسلم وحمل أمه به

عندما نطالع أنباء الأحداث التى تقترب بنا من إشراق أنوار المولد المحمدى فى مصادرها الموثقة نجد تلك الأحداث تحمل طابعا غير عادى ، فهى لا تسير بمحض المصادفة ، وإنما يسيرها تقنين إلهى يدفع بها دفعا إلى غاية مرتقبة وفى خلال سيرها تشع منها أقباس الإرهاص بمقدم النور ، وغالبا ما يأخذ هذا الإشعاع وضعا خارقا للعادة ليفضى بالمقدمات التى توحى بمترتباتها ، ومن ثم تتشابك الأحداث وتتعانق فى إحراز غاياتها المرتقبة ،

لقد تواترت النبوءات وتزاحمت البشريات ، فيروى الحافظ أبو نعيم بسنده — فى دلائل النبوة — عن عبد المطلب جد المصطفى ﷺ أنه قال : « قدمت اليمن فى رحلة الشتاء فنزلت على حبر اليهود ، فقال رجل من أهل الديور - يعنى أهل الكتاب - : من الرجل ؟

قلت : من قريش ، قال : من أيهم ؟ قلت : من بنى هاشم . قال : يا عبد المطلب ، أتأذن لى أن أنظر إلى بعضك ؟ قال ، نعم(١) ما لم يكن

---

(١) فى رواية « الوفا » لابن الجوزى : (.. أتأذن لى أن أنظر إلى بعض جسدك « قلت نعم .. (الوفا ١/٨٤)

إنها المآثر ومناقب النبي صلى الله عليه وسلم في آبائه وأجداده وجداته: خيار من خيار ، لقد سطع نوره صلى الله عليه وسلم في آبائه وأجداده فتحقق لهم ما وقفنا على اليسير منه من المجد الباذخ والمآثر الجمة فسموا به ذرى العلياء كما قال الشاعر :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمري ولكن فيه شيبان

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف
كما علا برسول الله عدنان (٣)

صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم

---

(١) أنظر شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ١/٨٠ والأبيات فيه منسوبة لأبي العباس علي بن الرومي .

على امرأته فى أهلها ، فلما دخل بها حملت برسول الله ﷺ ، ثم خرج من عندها فأتى المرأة التى عرضت عليه ماعرضت ، فلم ير منها الإقبال الذى كان يراه منها من قبل ، فقال لها : مالك لاتعرضين على اليوم ما كنت عرضته على بالأمس ؟

قالت له : فارقك النور الذى كان معك بالأمس ، فليس لى بك اليوم حاجة ! ! »(١) .

وثمة واقعة أخرى حدثت بعد زواجه من السيدة آمنة رضى الله عنها يرويها ابن سعد عن أبى الفياض الخثعمى أنه قال :

« مر عبد الله بن المطلب بامرأة من خثعم يقال لها : فاطمة بنت مر ، وكانت من أجمل الناس وأشبه وأعفه (٢) .

وكانت قد قرأت الكتب ، وكان شباب قريش يتحدثون إليها . فرأت نور النبوة فى وجه عبد الله ، فقالت : يا فتى من أنت ؟؟ فأخبرها .

فقالت : هل لك أن تقع على وأعطيك مائة من الإبل ؟؟ فنظر إليها وقال : —

أما الحرام فالممات دونه   والحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذى تنوينه ؟

ثم مضى إلى امرأته بنت وهب ، فكان معها ، ثم ذكر الخثعمية وجمالها

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام والروض الأنف ١ / ١٧٩ — ١٨٠ والمصادر السابقة .

(٢) اللفظ فى الوفا (١ / ٨٧) « وكانت من أجمل النساء وأشبهن وأعفهن » .

فقالت له : أين تذهب يا عبد الله ؟ قال : مع أبى ؛ قالت : لك مثل الإبل التى نحرت عنك — وكانت مائة — وقع على الآن(١) .

فقال : إنى مع أبى لا أستطيع فراقه وأنشد :

أما الحرام فالممات دونه   والحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذى تبغينه   يحمى الكريم عرضه ودينه(٢)

فخرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة — وهو يومئذ سيد بنى زهرة سنا وشرفا — فزوجه آمنة بنت وهب(٣) .

وهى يومئذ أفضل امرأة فى قريش نسبا وموضعا ، فدخل عليها فى موضعها ، وأقام عندها ثلاثا — وكانت تلك السنة عندهم إذا دخل الرجل

---

(١) أى طلبت منه أن يباضعها، والعبارة فى طبقات ابن سعد «فدعته يستبضع منها ولزمت طرف ثوبه» .

(٢) أنظر عيون الأثر ٢٤/١ والروض الأنف والأبيات هكذا فيه مع ابدال لفظ : (فالحمام) بـ : (فالممات) .

(٣) هكذا الرواية فى سيرة ابن هشام وعيون الأثر والوفا ، بينما تذكر رواية ابن سعد فى طبقاته أنه لما عرضت المرأة نفسها عليه أبى «وقال : حتى آتيك ، وخرج سريعا حتى دخل على آمنة بنت وهب موقع عليها فحملت برسول الله» وفى هذه الرواية إجمال يحتمل أن الواقعة كانت بعد زواجه من السيدة آمنة بيد أن تضافر الروايات الاخرى على ذكر زواجه بين عرض قتيلة نفسها عليه وبين حمل زوجه به ﷺ يجعل المرجح أن العرض قبل الزواج لا بعده ـ أما العرض الذى بعد الزواج فهو عرض فاطمة الخثعمية وهى كاهنة يهودية .

وما عرضت عليه(١)، فأقبل إليها فلم ير منها من الإقبال عليه آخراً كما رآه منها أولا ، فقال : هل لك فيما قلت لى ؟ ؟

فقالت : قد كان ذاك مرة فاليوم : لا . — فذهبت مثلا — وقالت : أى شىء صنعت بعدى ؟ قال : وقعت على زوجتى آمنة بنت وهب ، قالت : إنى والله لست بصاحبة ريبة ، ولكنى رأيت نور النبوة فى وجهك ، فأردت أن يكون ذلك فى ، وأبى الله إلا أن يجعله حيث جعله ، وبلغ شباب قريش ما عرضت على عبد الله بن عبد المطلب وتأبيه عليها فذكروا ذلك لها، فأنشأت تقول :

إنى رأيت مخيلة لمعت ... فتلألأت بحناتم القطر(٢)

فلمائها نور يضىء له ... ما حوله كإضاءة الفجر

ورأيته شرفا أبوء به ... ما كل قادح زنده يورى

لله ما زهرية سلبت

منك الذى استلبت وما تدرى ،(٣)

وقد كان تزوج والدى النبى صلى الله عليه وسلم فى شعب أبى طالب

---

(١) الحق الذى يمليه طابع بيت النبوة ، أن عبد الله لم يرجع إلى الخثعمية لجمالها وما عرضت عليه ، بل للتحقق من أن عرضها عليه إنما كان لما يحمله من النور ، فلما نقل إلى زوجه رام الوقوف على عزوف الخثعمية عنه .

(٢) المخيلة : السحابة التى تخالها ماطرة ، والحناتم . السحاب الأسود .

(٣) أنظر الدلائل لأبى نعيم ١/٣٩ وطبقات ابن سعد ١/٩٧ والروض الأنف ١/١٨٠ والأبيات منه .

عند الجمرة الوسطى كما نقل عن الزبير بن بكار ، و كان الحمل به ﷺ في شهر رجب(١) .

عجائب الآيات عند حمله صلى الله عليه وسلم

تضافرت الروايات من شتى المصادر على إبراز ما ناط بحديث حمله صلى الله عليه وسلم من عجائب الآيات وغرائب الوقائع ، ولا عجب في وقوع تلك العجائب والغرائب ، فأى حدث هذا حتى تتنكر العقول الكلة والبصائر المغلقة لروائع آياته ! !

إنه الحديث المرتقب من العالم بأسره ، ولقد ناطت به مظاهر الاحتفاء من السماء قبل الأرض ومن عالم الملكوت قبل عالم الملك . واستمع إلى ما يروى :

يروى ابن سعد — في طبقاته — عن محمد بن عمر بن واقد عن على بن عبد الله بن وهب بن زمعة عن أبيه عن عمته أنها قالت : —

« كنا نسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حملت به آمنة بنت وهب كانت تقول : —

ما شعرت أنى حملت به : ولا وجدت له ثقلة كما تجد النساء . إلا أنى قد أنكرت رفع حيضتى ، وربما كانت ترفعنى وتعود . وأتانى آت وأنا بين النائم واليقظان ، فقال : هل شعرت بأنك حملت ؟ ؟

(١) أنظر شرح الزرقاني على المواهب ١/١٠٣ ، ١٠٩

فكأنى أقول : ما أدرى ، فقال : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ، وذلك يوم الاثنين ، قالت : فكان ذلك مما يقن عندى الحمل . ثم أمهلنى حتى إذا دنا ولادتى : أتانى ذلك الآتى . فقال : قولى : أعيذه بالواحد الصمد من شر كل حاسد . قالت : فكنت أقول ذلك .

فذكرت ذلك لنسائى . فقلن لى : تعلقى حديدا فى عضديك وفى عنقك ، قالت : ففعلت ، قالت . فلم يكن ترك على إلا أياما فأجده قد قطع ، فكنت لا أتعلقه »(١) .

ومن آيات الحمل به صلوات الله وسلامه عليه : ما رواه الحافظ : الخطيب البغدادى عن الإمام سهل بن عبد الله التسترى (٢) رضى الله تعالى عنه أنه قال : — « لما أراد الله تعالى خلق محمد صلى الله عليه وسلم فى بطن أمه آمنة ليلة رجب ، وكانت ليلة جمعة ، أمر الله تعالى فى تلك الليلة رضوان خازن الجنان أن يفتح الفردوس ، وينادى مناد فى السموات والأرض : ألا إن النور المخزون المكنون الذى يكون منه النبى الهادى ، فى هذه الليلة يستقر فى بطن أمه الذى فيه يتم خلقه ، ويخرج إلى الناس بشيرا ونذيراً »(٣) .

وفى رواية كعب الأحبار : أنه نودى تلك الليلة فى السماء وصفاحها ،

---

(١) أنظر . طبقات ابن سعد ٩٨/١ والوفا لابن الجوزى ٨٨/١-٨٩

(٢) عرف به العلامة الزرقانى فى (شرح المواهب ١٠٤/١ — ١٠٥) قائلا : الصالح المشهور الذى لم يسمح بمثله الدهر علما وورعا ، صاحب الكرامات الشهيرة ، المتوفى سنة ثلاث وسبعين ومائتين بالبصرة

(٣) أنظر المواهب اللدنية للإمام القسطلانى ١٩/١

والأرض وبقاعها : إن النور المكنون الذى منه رسول الله ﷺ يستقر الليلة فى بطن آمنة فيا طوبى لها ثم ياطوبى !!

وأصبحت يومئذ أصنام الدنيا وهى منكوسة، وكانت قريش فى جدب شديد وضيق عظيم ، فاخضرت الأرض ، وحملت الأشجار ، وأتاهم الرفد من كل جانب ، فسميت تلك السنة التى حمل فيها برسول الله ﷺ : سنة الفتح والابتهاج »(١) .

وعن الإمام ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما — . أنه قال : كان من دلالة حمل آمنة برسول الله ﷺ : أن كل دابة لقريش نطقت تلك الليلة ، وقالت : حمل برسول الله ورب الكعبة ، وهو إمام الدنيا وسراج أهلها ، ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوسا ، وفرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب بالبشارات ، وكذلك أهل البحار يبشر بعضهم بعضا ، وله فى كل شهر من شهور حمله نداء فى الأرض ونداء فى السماء ، أن أبشروا فقد آن أن يظهر أبو القاسم ﷺ ميمونا مباركا .»(٢) .

وهذا الحديث وإن وسم بالضعف إلا أن الأثبات تناقلوه وأودعوه مصنفاتهم كأبى نعيم والسيوطى والقسطلانى — وهم من أساطين علوم

---

(١) نفس المصدر وأنظر : السيرة الحلبية ١/٥٥ ط التجارية والسيرة النبوية للسيد أحمد زينى دحلان — مفتى السادة الشافعية بمكة المكرمة — بهامش السيرة الحلبية ١/٣٦ - ٣٧

(٢) أنظر : المواهب اللدنية للإمام القسطلانى ١ / ٢٠ وشرح المواهب للزرقانى ١ / ١٠٨ والسيرة الحلبية ١ / ٥٥ والسيرة النبوية للزينى دحلان ١ / ٣٦ والانوار المحمدية للإمام النبهانى ٧١ ط الادبية ببيروت .

الحديث - كما أثبته أصحاب السير والشمائل كالحلبي والزيني دحلان والنبهاني، وكان تعقيبهم على روايته : أن مثل هذا لا يقال من قبل الرأى (١) .

وذكر شارح المواهب : أن هذا الأثر موقوف لفظا وحكمه الرفع ، إذ لا يقال رأيا (٢) .

والذى يدفعنى إلى ذكر مثل هذا الأثر : أنه يتلاءم مع روعة الحديث الجلل ، وإن مارى فيه أهل العناد والجدل ، ممن غلقت قلوبهم وانغلقت أفهامهم عن تمثل عظمة أعظم خلق الله طرا عليه من ربى أفضل الصلوات وأدومها وأذكى التسليمات وأعظمها .

وفاة أبيه عبد الله رضى الله تعالى عنه :

وفى أثناء حمل أم المصطفى به ﷺ وبعد مضى شهرين من بدء الحمل - على ما ذكره صاحب المواهب (٣) - توفى عبد الله بن عبد المطلب ، وكانت وفاته بالمدينة ، فقد أخرج ابن سعد عن أيوب بن عبد الرحمن أنه قال :-

خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام إلى غزة فى عير من عيرات قريش يحملون تجارات ففرغوا من تجاراتهم ثم انصرفوا ، فمروا بالمدينة

---

(١) أنظر : السيرة الحلبية ١/٥٥ والسيرة النبوية لدحلان ١/٣٦

(٢) أنظر شرح المواهب للزرقانى ١/١٨٠

(٣) ارجع إليه فى المصدر السابق ، وقال بعضهم أن موت أبيه ﷺ كان قبل ولادته بشهرين ، وقال الدولابى بل توفى وهو فى المهد والراجح الأول لما رواه الحاكم عن قيس بن مخرمه قال : (توفى أبو النبى ﷺ وأمه حبلى به) قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم . وأقره الذهبى أنظر المصدر السابق :

وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض فقال : أنا أتخلف عند أخوالى بنى عدى بن النجار .

فأقام عندهم مريضاً شهراً ، ومضى أصحابه فقدموا مكة ، فسألهم عبد المطلب عن عبد الله فقالوا : خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار - وهو مريض - فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده : (الحارث) ، فوجده قد توفى ، ودفن فى دار النابغة [١] - وهو رجل من بنى عدى بن النجار - فى الدار التى إذا دخلتها فالدويرة عن يسارك ، وأخبره أخواله بمرضه ، وبقيامهم عليه ، وما ولوا من أمره ، وأنهم قبروه ، فرجع إلى أبيه فأخبره ، فوجد عليه عبد المطلب وإخوته وأخواته وجداً شديداً ، ورسول الله ﷺ يومئذ حمل ، ولعبد الله يوم توفى : خمس وعشرون سنة [٢] .

وقد روى ابن سعد عن الواقدى أنه قال : « ترك عبد الله بن عبد المطلب : أم أيمن وخمسة أجمال أوارك - يعنى تأكل الأراك - وقطعة غنم ، فورث ذلك رسول الله ﷺ ، فكانت أم أيمن تحضنه ، واسمها بركة ، — ثم قال — وقالت آمنة بنت وهب ترثى زوجها عبد الله بن عبد المطلب : -

---

(١) ضبط شارح المواهب (١/١١٠) هذا الاسم على أنه (التابعة) وليس النابغة . واستند فى ضبطه إلى النقل عن الزهر الباسم . وقيل إن دفن أبى النبى ﷺ لم يكن فى دار التابعة بل فى الأبواء وهى بين مكة والمدينة ، والأول أصح لما روى من أنه ﷺ لما هاجر إلى المدينة نظر إلى تلك الدار - دار النابعة - عرفها وقال ههنا نزلت بى أمى وفى هذه الدار قبر أبى (أنظر السيرة الحلبية ١/٥٩)

(٢) أنظر طبقات ابن سعد ١/٥٩ والوفا لابن الجوزى ١/٨٩

عفا جانب البطحاء من آل[١] هاشم   وجاور لحداً خارجاً فى الغماغم
دعته المنايا دعوة فأجابها   وما تركت فى الناس مثل ابن هاشم
عشية راحوا يحملون سريره   تعاوره أصحابه فى التزاحم
فإن يك غالته المنايا وريبها   فقد كان معطاء كثير التراحم[٢]

الحكمة فى يتم الرسول ﷺ :

سئل الإمام جعفر الصادق - رضى الله تعالى عنه — : لم يتم النبى صلى الله عليه وسلم ؟؟ فقال : لئلا يكون عليه حق لمخلوق[٣] !! ولا يرد عليه بقاء أمه لبلوغ السادسة لأن تعلق الحقوق بعد البلوغ[٤]

وقد نقل شارح المواهب عن صاحب (الخميس) : أن أعلا اليتم ما توفى الوالد والولد فى بطن الأم .[٥]

وعندى : أن يتمه ﷺ هو مقتضى كمال انتمائه إلى ربه عز وجل إذ أبى الحق تعالى إلا أن يتكفل بإيواء مصطفاه الأعظم إلى كنف ظله سبحانه،

---

(١) فى طبقات ابن سعد (من ابن هاشم) والمثبت من المواهب اللدنية ٢١/١ وهو أبلغ حيث جعلت خلو البطحاء من عبد الله خلواً من آل هاشم مبالغة لعدم قيام غيره منهم مقامه !

(٢) أنظر طبقات ابن سعد ١٠٠/١ والسيرة الشامية ٣٩٩/١

(٣) نقله عن الامام جعفر — رضى الله عنه — أبو حيان فى البحر وأثبته القسطلانى فى المواهب ٢١/١

(٤) أنظر شرح الزرقانى على المواهب ١١٠/١

(٥) نفس المصدر .

فليس المقام هنا لرعاية الأبوين ولا لتربيتهما ، ومن ثم امتن الحق تعالى عليه بقوله عز اسمه « ألم يجدك يتيما فآوى »(١)

قال الإمام القشيري - رضى الله عنه فى تفسيرها : « بل آواه إلى كنف ظله ، ورباه بلطف رعايته »(٢)

وفى مقام الحديث عن وفاة والده ﷺ : نسوق التحذير المشدد الذى أدلى به الثقات من أهل الرسوخ فى العلم وهو التحذير من القول بعدم نجاة أبيه ﷺ ! إستناداً إلى ما جاء فى صحيح مسلم من أن رجلا قال : يا رسول الله أين أبى ؟ قال فى النار ، فلما قفى دعاه فقال : إن أبى وأباك فى النار »(٣) فقد دفع هؤلاء الراسخون فى العلم دلالة هذا الحديث على عدم نجاة أبيه صلى الله عليه وسلم من عدة مسالك :

الأول : أن قوله (إن أبى وأباك فى النار) لم يتفق على ذكرها الرواة وإنما ذكرها حماد بن سلمة عن أنس - وهى الطريق التى رواه مسلم منها - بينما جاء فى رواية معمر عن ثابت - بدلا منها(٤) - « إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار » وهذه العبارة لا دلالة فيها على والده صلى الله عليه وسلم على الإطلاق . وقد قرر المحدثون أن معمرا - صاحب الرواية الثانية - أثبت من حماد ، لأن حماداً قد قدح فى حفظه ووقع فى أحاديثه مناكير ، وذكره ابن عدى فى

---

(١) سورة الضحى /٦

(٢) أنظر لطائف الإشارات ٣٠٩/٦ ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

(٣) رواه مسلم عن أنس فى كتاب الإيمان . أنظر صحيح مسلم بشرح النووى ٧٩/٣ ط المصرية

(٤) أى بدلا من قوله (إن أبى وأباك فى النار)

الضعفاء ومن ثم لم يخرج له البخارى شيئاً ، ولا خرج له مسلم فى الأصول إلا من روايته عن ثابت .

وأما معمر . فلم يتكلم فى حفظه ، واتفق على التخريج له الشيخان فكان لفظه أثبت(١) .

والثانى : قال بعض العلماء إن المراد بأبيه ﷺ فى هذا الحديث — على فرض نبوته — عمه أبو طالب ، لأن العرب تسمى العم أبا فى الحقيقة ، ولأنه رباه ، والعرب تسمى المربى أبا ، وأقول من منطلق التعليل الأول : وما المانع فى أن يكون المراد به أبا لهب فهو عمه أيضا ؟

وللحافظ السيوطى ههنا استنباط لطيف ، إذ إستدل بقوله ﷺ : « أهون أهل النار عذابا أبو طالب » (٢) على أن أبوى النبى ﷺ ليسا فى النار ، إذ لو كانا فيها لكانا أهون عذابا من أبى طالب — لأنهما أقرب منه مكانا وأبسط عذرا حيث لم يدركه البعثة .

أما وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ : بأن أبا طالب أهون أهل النار عذابا فإن أبويه ﷺ ليسا من أهلها :

وهذه الدلالة تعرف عند الأصوليين بدلالة الإشارة(٣) .

---

(١) أنظر : الحاوى للفتاوى للامام السيوطى ٢/ ٣٩٣ ط السعادة ونشر التجارية .

(٢) رواه مسلم عن الامام ابن عباس — رضى الله عنهما . أنظر صحيح مسلم ، بشرح النووى ٣/ ٨٥ ط المصرية .

(٣) أنظر الحاوى للفتاوى للامام السيوطى ٢/ ٣٩٦

والثالث : أن حديث مسلم هذا منسوخ بالآيات والأحاديث الواردة في أهل الفترة كقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »(١) .

وهذا جواب مختصر يغني عن كل جواب(٢) . كما قال الإمام السيوطي — عليه رضوان الله — وغيره ، وبذا ينتفي كل إيهام بعدم نجاة الأبوين الكريمين .

ومن أروع مواقف العلماء من هذه المسألة ما روى عن القاضي أبي بكر بن العربي رضي الله عنه إذ سئل عن رجل قال : إن أبا النبي صلى الله عليه وسلم في النار فأجاب بأن من قال ذلك فهو ملعون .

لقوله تعالى : « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة »(٣) .

قال : ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبيه إنه في النار ا هـ(٤) .

---

(١) سورة الاسراء / ١٥

(٢) في هذا إشارة إلى أجوبة أخرى عن الحديث المروى في مسلم ، ومن أبرزها ما قاله الامام الحلبي في سيرته « والذي ينبغي أن يقال : يجوز أن يكون هذا — أي ما في الصحيح — كان قبل أن يسأل الله تعالى أن يحييه له فأحياه وآمن به ، — كما أشار إليه الأصل — أو أنه قال ذلك لمصلحة إيمان ذلك السائل ، بدليل أنه لم يتدارك عليه الصلاة والسلام إلا بعد ما قفا السيرة الحلبية ١/ ٦٠) .

(٣) سورة الأحزاب / ٥٧

(٤) أنظر الحاوي للفتاوى للامام السيوطي ٢/ ٤٠١ — ٤٠٢

هـذا هو فهم الفقهين عن الله عز وجل من أهل الأدب الرفيع مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : الذين علموا أن الحق تعـالى : قـد إختار لمصطفاه الأعظم صلى الله عليـه وسـلم أكرم المعـادن وأشرف الآباء كما قال مولانا البوصيرى — عليـه رضوان الله — فى همزيته المضيئـــة :

لم تزل فى ضمائر الكون تختا ر لك الأمهات والآباء(١)

* * *

(١) أنظر شرح الإمام شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمى على متن الهمزية ص ١٩ ط التقدم .

الباب الثانى

من المولد الشريف إلى المبعث المبارك

آيات تتلوها آيات ، وأحداث تقفو إثر أحداث وكلها يشع بالنور المنتظر لإحياء رفات العالم المتحطم فى ديا جير الضياع ، ليبعث فيه روح الحياة من بعد طول رقاد ، وينير طريق الإنسانية لتثوب من ضلالها وتنهج سبيل الهدى ، وتعب من الضياء الذى يملأ الآفاق ، فمع المولد . كان الإشراق والضياء كما قال سيدنا العباس رضى الله تعالى عنه .

وأنت لما ولدت أشرقت الأر ض وضاءت بنورك الأفق

ومنذ فجر المولد المحمدى - بل وقبيل مطلع الفجر - والإرهاصات تتوالى والبشائر تترى مؤذنة بمقدم النور وانسحاق الظلام ، وما من حدث من أحداث ما بين المولد والمبعث إلا وفيه قراءات لأولى الألباب يستكنهون منها حقائق الوجود الماثل ومترتبات الوجود المنتظر ! !

وسنتناول ما يتاح لنا من تلك الأحداث التى تبدو لنا عظاما وإن كانت فى أعين البعض ضربا من الذكريات غير المؤثرة فى مجرى التاريخ ، غفلة منه عن مضامينها المشعة بالعبر والمترتبات ، سنتناولها عبر فصول مرتبة حسب دلالاتها التى قد تسبق التاريخ الزمنى للأحداث أو يتجلى ظهورها بعده ، وبالله التوفيق :

الفصل الأول

في تاريخ مولد نبينا صلى الله عليه وسلم ومكانه

أما عن الميقات الزماني لمولده صلى الله عليه وسلم فقد تناول العلماء تحديده يوما وشهرا وعاما .

فأما اليوم : فهو يوم الاثنين ، لما رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود عن أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين فقال : « ذاك يوم ولدت فيه وأنزل علي فيه »(١) .

وروى الإمام أحمد والطبراني عن الإمام ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أنه قال : « ولد النبي صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين ، واستنبئ يوم الإثنين وتوفي يوم الإثنين . ورفع الحجر يوم الإثنين »(٢) .

وقد اختلف في كون ولادته صلى الله عليه وسلم نهارا أو ليلا ، فإلى الأول ذهب بعضهم مستدلا بقوله صلى الله عليه وسلم « ذاك يوم ولدت فيه » واليوم إنما هو النهار بنص التنزيل .

---

(١) أنظر مسند الإمام أحمد ٢٩٧/٥ وقد خرجه الشامي عن مسلم وأبي داود في سيرته ٤٠١/١

(٢) أنظر الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني للساعاتي ١٨٩/٢٠

وقد روى عن الإمام سعيد بن المسيب — رضى الله عنه — أنه قال : « ولد رسول الله ﷺ عند إبها النهار »(١) ،

وقال آخرون : بل ولد ﷺ ليلا لما رواه عثمان بن العاص عن أمه — رضى الله تعالى عنهما — أنها شهدت ولادة النبى ﷺ ليلا ، قالت : « فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نورا وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول : لتقعن على »(٢) ،

وقال آخرون : بل ولد فجر الإثنين ، وهو ما رواه الزبير بن بكار وابن عساكر عن معروف بن حزبوذ رحمه الله تعالى أنه قال : ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين حين طلع الفجر »(٣) ،

وأرى هذا القول وسطا بين الآراء ، إذ الفجر ملحق بالليل وهو أول النهار ، ويدل له قول جده عبد المطلب : « ولد لى الليلة مع الصبح مولود »(٤) .

وقد أضاف الإمام البوصيرى رضى الله عنه كلا من الليل واليوم للولادة جامعا للآراء فى قوله :

---

(١) المراد بابهار النهار : وسطه . أنظر السيرة الحلبية ١/٦٧ والسيرة الشامية ١/٤٠١

(٢) أنظر السيرة الحلبية ١ / ٦٨ والسيرة النبوية للزينى دحلان بهامش الحلبية ١/٣٨

(٣) أنظر السيرة الشامية ١/٤٠١ والحلبية ١/٦٧

(٤) المصدر السابق .

ليلة المولد الذى كان للدين سرور بيومه وازدهاء

فهنيئا به لآمنة الفضـ ل الذى شرفت به حواء

من لحواء أنها حملت أحمد أو أنهـا به نفساء

يوم نالت بوضعـه ابنة وهب

من فخار ما لم تنله النساء(١)

قال الإمام الحلبى : وقد أقسم الله بليلة مولده ﷺ فى قوله تعالى «والضحى والليل . . .»(٢) .

وقيل : أراد بالليل : ليلة الإسراء ؛ ولا مانع أن يكون الاقسام وقع بهما ، أى : استعمل الليل فيهما »(٣) ،

وأما الشهر : فهو ربيع الأول على القول الأشهر ، فقد روى ابن هشام — فى سيرته ـ والبيهقى — فى دلائله — عن محمد بن إسحاق أنه قال : «ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول» .

---

(١) أنظر شرح الامام ابن حجر الهيثمى على متن الهمزية فى مدح خير البرية ص ٢٦ ط التقدم .

(٢) سورة الضحى /١

(٣) أنظر : إنسان العيون فى سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبية) للإمام على الحلبى ٦٩/١ ط التجارية .

وانظر : السيرة النبوية والآثار المحمدية للسيد أحمد زينى دحلان ـ بهامش السيرة الحلبية ـ ٣٨/١

وقد رواه ابن أبى شيبة ـ فى المصنف ـ عن جابر وابن عباس(١) :

وثمة أقوال أخرى فى تحديد الشهر واليوم منه ، منها ما نقله ابن سيد الناس عن الزبير بن بكار أنه ﷺ ولد يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان(٢) .

ونقل الحافظ الشامى عن بعظهم أن المولد الشريف كان فى صفر ، وعن آخرين أنه كان فى ربيع الآخر ، وعن غيرهم أنه فى المحرم لخمس بقين منه (٣) .

وقد روى ابن سعد ـ فى طبقاته ـ عن الإمام جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه أنه قال : « ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين لعشر ليال خلون من شهر ربيع الأول »(٤) .

وقال بعضهم . بل إن المولد كان لليلتين خلتا من ربيع .

أما إختيار أهل الحديث : فهو أنه لثمان من ربيع الأول ، نقله الحافظ ابن حجر الهيثمى وذكر أن عليه إجماع أهل التاريخ(٥)

---

(١) أنظر : سيرة ابن هشام مع الروض الأنف /١٨١ وانظر دلائل النبوة للبيهقى بتحقيق / السيد صقر ٩/١ ط ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، والعبارة فيه « يوم الاثنين عام الفيل .... » الخ .

(٢) أنظر عيون الأثر ٢٦/١

(٣) أنظر سبل الهدى والرشاد ٤٠٥/١

(٤) أنظر الطبقات الكبرى لابن سعد ١٠٠/١ والمصدر السابق ٤٠٣/١

(٥) أنظر شرح الامام ابن حجر الهيثمى على متن الهمزية ص ٢٦

وأما العام : فهو عام الفيل ، لما أخرجه الامام أحمد بسنده عن قيس ابن مخرمة ابن المطلب أنه قال : « ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل فنحن لدان ولدنا مولدا واحدا »(١) .

وروى الترمذى فى سننه - بسنده - عن قيس بن مخرمة أنه قال : ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، وسأل عثمان بن عفان قباث بن أشيم أخا بنى يعمر بن ليث : أأنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر منى وأنا أقدم منه فى الميلاد ، ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، ورفعت بى أمى على الموضع ، قال ورأيت خذق الفيل(٢) . أخضر محيلا » ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحق(٣) .

والقول الأشهر — كما نقله الشامى عن ابن كثير — . أن ولادة النبى

---

(١) أنظر المسند للإمام أحمد ٢١٥/٤ وأنظر دلائل النبوة للبيهقى بتحقيق السيد صقر ١١/١-١٢

(٢) خذق الفيل - بفتح الخاء وسكون الذال - خرؤه وروثه .

(٣) أنظر سنن الترمذى ٥٨٩/٥ ط الحلبى وأنظر : دلائل النبوة للبيهقى بتحقيق السيد صقر ١٢/١

صلى الله عليه وسلم كانت بعد حادث الفيل بخمسين يوما ، وقد صحح ذلك المسعودى والسهيلى ، وعليه الأكثرون(١) .

هذا : وتمام رواية ابن سعد عن الإمام جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه — التى أرخ بها المولد الشريف وسقناصدرها آنفا — قوله . « وكان قدوم أصحاب الفيل قبل ذلك(٢) للنصف من المحرم ، فبين الفيل ومولد رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس وخمسون ليلة »(٣) :

وقد صحح الحافظ الدمياطى هذا القول : ونقل تصحيحه الحافظ الشامى .

وثمة أقوال أخرى يذكر أصحابها أن بين المولد الشريف والفيل عشرة أعوام أو ثلاثين أو أربعين(٤) :

وقد ذكر السهيلى : أن أهل الحساب يقولون . وافق مولده صلى الله عليه وسلم من الشهور الشمسية : (نيسان) فكان لعشرين مضت منه ، وولد وولد بالغفر من المنازل وهو مولد النبيين . اهـ(٥) . هذا عن الزمان ،

(١) أنظر السيرة الشامية ١/٤٠٤ والروض الأنف ١/١٨٤

(٢) أنظر أى قبل العاشر من شهر ربيع الأول .

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١/١٠٠ — ١٠١

(٤) انظر السيرة الشامية ١/٤٠٥ ودلائل النبوة للبيهقى ١/١٥

(٥) انظر الروض الأنف ١/١٨٤

(٦) نقل ذلك الحلبى عن الفاكهى أ فار السيرة الحلبية ١/٧٣

وأما عن المكان : فالقول الأشهر الذى تناقلته المصادر : أنه ولد صلى الله عليه وسلم بمكة بشعب بنى هاشم ، بزقاق يعرف بزقاق المولد . بالدار التى وهبها النبى صلى الله عليه وسلم عقيل بن أبى طالب - كما نقل الشامى عن ابن الأثير - فلم تزل بيد عقيل حتى توفى فكانت بين أولاده إلى أن باعوها لمحمد بن يوسف أخى الحجاج بمائة ألف دينار(١) .

فأدخلها فى داره ، وصارت تعرف بدار ابن يوسف .

وقيل إن عقيلا باع هذه الدار المباركة بعد الهجرة ، تبعا لقريش حين باعوا دور المهاجرين ، بدليل ما روى - فى فتح مكة - من أنه ﷺ : لما فتح مكة ضرب مخيمه بالحجون فقيل له : ألا تنزل منزلك من الشعب ؟ فقال : وهل ترك لنا عقيل منزلا ؟؟

وكان عقيل قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنازل إخوته حين هاجروا من مكة ، ومنزل كل من هاجر من بنى هاشم(٢) .

وقيل : إن عقيلا كان قد تخلف عنهم فى الإسلام وفى الهجرة ، إذ أنه أسلم عام الحديبية - التى هى السنة السادسة - وباع دورهم فلم يرجع النبى ﷺ فى شىء منها(٣) .

ويذكر الحلبى : أن تلك الدار التى بها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا - وهى التى باعها عقيل بن أبى طالب قبل إسلامه أو بعده

---

(١) نقل ذلك الحلبى عن الفاكهى ، أنظر السيرة الحلبية ٧٣/١

(٢) أنظر المصدر السابق ، والسيرة الشامية ٨٠٤/١

(٣) أنظر : إنسان العيون (السيرة الحلبية) للعلامة على برهان الدين الحلبى ٧٤/١ ط التجارية

أو باعها ولده لابن يوسف ـ قد بنتها زبيدة زوج الرشيد أم الأمين مسجدا لما حجت ، كما يذكر أيضاً عن ابن دحية : أن الخيزران أم الرشيد لما حجت أخرجت تلك الدار المباركة من دار ابن يوسف وجعلتها مسجدا ،

ويوفق الحلبي بين القولين : بأنه من المحتمل أن تكون زبيدة قد جددت نفس المسجد الذي بنته الخيزران فنسب إلى كل منهما ، ولاسيما وأن الروايات تنص على أن ما بنته كل منهما كان عند الصفا فلعله التبس على بعض الرواة هذا الازدواج ، ومن الثابت أيضا : أن الخيزران قد بنت دار الأرقم مسجدا[1] .

كذلك وفق الحلبي بين هذا التحديد لمكان مولده ﷺ وكونه عند الصفا وبين ما نقل عن الزبير ـ قولا مستقلا[2] ـ من أنه صلى الله عليه وسلم : ولد بشعب بني هاشم إذ قال : « قد يقال : لا مخالفة ، لأنه يجوز أن تكون تلك الدار من شعب بني هاشم ثم رأيت التصريح بذلك ، ولا ينافيه ما تقدم ـ في الكلام على الحمل ـ من أن شعب أبي طالب ـ وهو من جملة بني هاشم : كان عند الحجون ، لأنه يجوز أن يكون أبو طالب انفرد عنهم بذلك الشعب والله أعلم »[3] .

---

(١) نفس المصدر :

(٢) حكى الإمام الشامي في سيرته (١/٤٠٨) هذا القول للزبير على أنه قول آخر مغاير للقول بأن المولد الشريف كان بالدار التي كانت بيد عقيل وانتقلت إلى محمد بن يوسف .

(٣) أنظر إنسان العيون ١/٧٤

هذا على حين أن السهيلى قد غاير (١) بين تحديد المكان بالشعب وبين كونه عند الصفا . وثمة أقوال أخرى مرجوحة فى تحديد مكان الميلاد الشريف ، كالقول بأنه صلى الله عليه وسلم ولد بالردم ، والمعنى به : ردم بنى جمع ، وهم بطن من قريش قاتلوا — فى الجاهلية — بنى الحرث فظفروا بهم وردموا على قتلى بنى الحرث بذلك المحل .

ومنها القول بأنه ﷺ ولد بعسفان (٢) .

وهو قول بعيد رده الحلبى بما ذكره الفقهاء من أنه يجب على الولى أن يعلم موليه — أى صبيه — إذا ميز : أنه صلى الله عليه وسلم ولد بمكة ودفن بالمدينة : إلا أن يقال ، ذاك بناء على ما هو الأصح عندهم (٣) اهـ .

---

(١) قال السهيلى فى الروض (١/١٨٤) « وولد بالشعب ، وقيل بالدار التى عند الصفا ، وكانت بعد لمحمد ابن يوسف أخى الحجاج ثم بنتها زبيدة مسجداً حين حجت » .

(٢) قال الفيروز أبادى فى القاموس (١٣/١٨) . وعسفان — كعثمان — على مرحلتين من مكة . أهـ

(٣) أنظر إنسان العيون ١/٧٤ — ٧٥ ط التجارية .

الفصل الثانى

فى وضعه صلى الله عليه وسلم وماظهر عنده

من الآيات وما تعلق به من الإرهاصات

كان حدث العالم الذى اهتزت الدنيا له وأرهف التاريخ سمعه لأخباره، وفتح أعينه على مشاهد آياته ، إنه مولد النور المرتقب ومهبط الرحمة الربانية التى استجداها ضمير الإنسانية بعد طول عناء وشقاء، إنه نقطة التحول التى قالت للتاريخ : أطو صحائفك السود وافتح نواضر الصفحات لتسجل أروع أحداثك ! !

إنه الحق الذى جاء ماحقا للباطل ومزهقا للضلال إنه مولد النبى العربى القرشى سيد الخليقة ، وأعظم من أوجده الله فى العالمين جميعا . صلى الله عليه وسلم .

فى تلك الليلة الغراء التى تفتحت فيها أبواب السماء وغمر الكون بالضياء : كان العالم كله فى ترقب لمطلع الفجر ، حيث توالت الأنباء والأخبار وبشريات الواقفين على ظهوره من كتب السماء ، وكان كل شىء يقف عند نقطة الانتظار ، بيد أنه بدنو النور لم تحتمل طباع الأشياء وعاداتها شدة اقترابه . فكانت الخوارق والآيات والإرهاصات كلها إيذانا بالميلاد ، ولم تكن ميلادا فقط لبشرية نبى الإنسانية، بل كأن العالم قد ولد معه من جديد إذ رأى فيه قوام حياته وروح وجوده وهويته وجوهريته .

إنها البشائر تترى :

فقد روى الحاكم — فى مستدركه — بسنده عن سيدنا حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه أنه قال : « والله إنى لغلام يفعة ابن سبع أو ثمان سنين أعقل ما سمعت إذ سمعت يهوديا وهو على أطمة يثرب يصرخ : يا معشر اليهود ، فلما اجتمعوا قالوا : ويلك ، مالك ؟؟ فقال : طلع نجم أحمد — الذى يبعث — الليلة »(١) !!

وروى ابن الجوزى عن سيدنا حسان أيضا أنه قال : « إنى لعلى فارع — وهو أطم(٢) — فى السحر إذ سمعت صوتا لم أسمع قط صوتا أنفذ منه ، فإذا يهودى على أطم من آطام المدينة معه شعلة من نار ، فاجتمع الناس إليه فقالوا : مالك ؟ ويلك !!

فقال : هذا كوكب أحمد قد طلع ، هذا كوكب لا يطلع إلا بالنبوة ، ولم يبق من الأنبياء إلا أحمد ، فجعل الناس يضحكون منه ، ويعجبون لما يأتى به »(٣) .

وروى أبو نعيم والبيهقى والطبرانى عن عثمان بن أبى العاص أنه قال :

---

(١) أنظر المستدرك ٤٨٦/٣ ودلائل النبوة للبيهقى ٤٨/١ وسيرة ابن هشام ١٠٣/١

(٢) الأطم — بضم الهمزة وسكون الطاء أو بضمها أيضا ، هو القصر وكل حصن مبنى بحجارة (القاموس المحيط ٧٦/٤) وقد كان هذا الأطم ينسب إلى سيدنا حسان بن ثابت رضى الله عنه .

(٣) أنظر الوفا بأحوال المصطفى (صلى الله عليه وسلم) لابن الجوزى ٩١/١

«حدثتنى أمى أنها شهدت ولادة آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ ليلة ولدته، قالت : فما شىء أنظر إليه فى البيت إلا نور ، وإنى لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إنى لأقول : ليقعن على»[١] .

ــ وزاد الشامى على هذا فى روايته ــ «فلما وضعته خرج منها نور أضاء له البيت والدار حتى جعلت لا أرى إلا نورا»[٢] ! !

إنه النور الذى غمر كل شىء فتنور به كل شىء[٣] ! !

وأخرج الإمام أحمد عن العرباض بن سارية ـ رضى الله تعالى عنه ـ أنه قال قال رسول الله ﷺ : «إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم عليه السلام لمنجدل فى طينته . وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت وكذلك أمهات النبيين يرين» ـ وزاد فى

---

(١) أنظر دلائل النبوة للبيهقى ٤٩/١ والتخريج فى حاشيته عن بقية مصادر هذا الأثر للمحقق .

(٢) أنظر سبل الهدى والرشاد ٤١١/١ ودلائل النبوة لأبى نعيم ٤٠/١ نشر عالم الكتب ببيروت .

(٣) روى ابن الجوزى فى الوفا (٩٤/١) أن السيدة آمنة ــ رضى الله تعالى عنها ــ لما خير بها المخاض قالت : فجعلت أنظر إلى النجوم تدلى حتى قلت : لتقعن على فلما وضعته خرج منها نور أضاء له البيع والدار حتى جعلت لا ارى إلا نورا ! !

رواية ـ : وإن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نورا أضاءت منه قصور الشام »(١) .

وفى هذا الحديث الشريف جمع بين أولية الحقيقة المحمدية فى الوجود ـ حيث تقدم على خلق أبيه آدم عليه السلام وتحقق فعلا بالنبوة فى ذلك الحين ـ وبين أولية الوجود البشرى الذى ظهرت معه الآيات لدى الوضع الشريف .

فكان من آيات مولده صلى الله عليه وسلم ـ بالإضافة إلى ما سبق من تعدد النبوءات وتصريحات أهل الكتاب وعلماء للنجوم ، ومن دنو الكواكب وسطوع الأنوار ـ : ما جاء فى رواية ابن سعد ـ من عدة طرق متضافرة — عن الإمام ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما — أنه قال :

« إن آمنة بنت وهب قالت : لقد علقت به — تعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فما وجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فصل منى : خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب !!

ثم وقع على الأرض معتمدا على يديه ، ثم أخذ قبضة من تراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء ـ وفى بعض الروايات ـ : وقع جاثيا على ركبتيه رافعا رأسه إلى السماء ، وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها ، حتى رأيت أعناق الإبل ببصرى »(٢) .

---

(١) أنظر : المسند ١/١٢٧—١٢٨ ، أنظر سبل الهدى والرشاد ١/٤١١

(٢) أنظر طبقات ابن سعد ١/١٠٢

ثم يروى ابن سعد أيضا عن اسحق بن عبد الله : «أن أم النبى صلى الله عليه وسلم قالت : لما ولدته خرج منى نور أضاء له قصور الشام ، فولدته نظيفا ، ولدته كما يولد السخل ما به قذر ، ووقع إلى الأرض وهو جالس على الأرض بيده »(١) .

كما يروى عن حسان بن عطية : أن النبى صلى الله عليه وسلم لما ولد وقع على كيفية وركبتيه شاخصا بصره إلى السماء »(٢) .

— وقد زاد السهيلى — «مقبوضة أصابع يديه ، مشيرا بالسبابة كالمسبح بها »(٣) .

وقد استوحى أهل البصيرة النيرة من هذه المرويات دلالات وإشارات ، فيقول الحافظ الشامى فى سيرته :

«وإنما أضاءت قصور بصرى بالنور الذى خرج منه(٤) : إشارة إلى ما خص الشام من نبوته صلى الله عليه وسلم ، فإنها دار ملكه كما ذكره كعب من أن فى الكتب السابقة . «محمد رسول الله مولده بمكة ، ومهاجره بيثرب ، وملكه بالشام » .

---

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) أنظر : الروض الأنف ١٨١/١ والسيرة الشامية ٤١٣/١

(٤) هكذا بالاصل ، ولعله محرف عن قوله : (منها) أو : (معه) كما يوحى سياق الرواية .

ثم يقول :

وقال بعضهم : أضاءت قصور بصرى إشارة إلى أنه ﷺ ينور البصائر ويحيي القلوب الميتة .

وفي خروج هذا النور معه صلى الله عليه وسلم حين وضعته : إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض ، وزال به ظلمة الشرك منها ، كما قال الله تعالى « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم[1] »[2] .

ولقد كان من المعاصرين للمولد الشريف من يفقه جيدا دلالات هذه الإشارات ويعرف مترتباتها فيروى ابن سعد عن موسى بن عبيدة عن أخيه أنه قال : —

« لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقع إلى الأرض وقع على يديه رافعا رأسه إلى السماء وقبض قبضة من التراب بيده ، فبلغ ذلك رجلا من لهب ، فقال لصاحب له : انجه ، لئن صدق الفأل ليغلبن هذا المولود أهل الأرض »[3] .

وأما دلالة كونه — صلى الله عليه وسلم — رافعا رأسه عندما وضعته شاخصا ببصره إلى السماء : فقد بينها الشهاب الخفاجي — رضي الله عنه —

---

(١) سورة المائده / ١٥-١٦

(٢) أنظر : سبل الهدى والرشاد ٤١٣/١

(٣) أنظر طبقات ابن سعد ١٥٠/١

فى شرحه على « الشفا » قائلا : « وهذا إشارة إلى تعلقه صلى الله تعالى عليه وسلم بالملا الأعلى وتوجهه لذلك من أول أمره كما قال الأبوصيرى .

رافعا رأسه وفى ذلك الرفـ ـع إلى كل سودد إيماء

رافعا طرفه إلى السماء ومرمى عين من شأنه العلو العلاء»(١)

كذلك كان من الآيات التى ظهرت لدى مولده صلى الله عليه وسلم :

ما أخرجه أبو نعيم عن سيدنا عبد الرحمن بن عوف عن أمه الشفاء رضى الله تعالى عنهما أنها قالت : « لما ولدت آمنة محمدا صلى الله عليه وسلم وقع على يدى ، فاستهل(٢) فسمعت قائلا يقول : رحمك ربك(٣) .

قالت : الشفاء : فأضاء لى ما بين المشرق والمغرب ، حتى نظرت إلى

---

(١) أنظر : نسيم الرياض فى شرح شفاء القاضى عياض ٢٧٥/٣ نشر دار الفكر ببيروت .

(٢) الاستهلال : رفع الصوت عند الولادة والمراد به هنا : العطس بدلالة جواب لما وهو للتشميت الذى يقال للعاطس .

هذا : ولا ينافى قولها هنا : (وقع على يدى) بما فى الرواية السابقة من قوله (فوقع إلى الأرض) لجوازان ذاك بعد هذا بقرينة ، (ثم) كما ذكره شارح المواهب اللدنية فى شرحه ١١٩/١

(٣) هكذا فى الدلائل لأبى نعيم ٤٠/١ بينما اللفظ فى المواهب - بشرحه ١١٦/١ ، رحمك الله ، وفى شرح ابن حجر على متن الهمزية ص ٣٤ . « رحمك الله ورحم بك » .

بعض قصور الشام ، قالت : ثم ألبنته وأضجعته ، فلم أنشب أن غشيتنى ظلمة ورعب وقشعريرة ، ثم أسفر(١) عن يمينى فسمعت قائلا يقول : أين ذهبت به قال ذهبت به إلى المغرب ، قالت : وأسفر ذلك عنى ، ثم عاودنى الرعب والظلمة والقشعريرة عن شمالى . فسمعت قائلا يقول : أين ذهبت به ؟ قال : إلى المشرق ولن يعود أبدا ، فلم يزل الحديث منى على بال حتى ابتعث الله عز وجل رسوله (صلى الله عليه وسلم) فكنت فى أول الناس إسلاما »(٢) .

ومن تلك الرواية يعلم : أن الشفاء ـ رضى الله عنها ـ كانت قابلة(٣) النبى صلى الله عليه وسلم .

وأما أم يمن ـ رضى الله عنها ـ فقد كانت دايته ، أى حاضنته صلى الله

---

(١) الظاهر أنه بمعنى الذهاب ، من نحو قولهم . أسفرت الإبل إذا ذهبت فى الأرض (لسان العرب ٣٤/٦) .

(٢) أنظر . دلائل النبوة لأبى نعيم ٤٠/١ نشر عالم الكتب ببيروت عن ط / حيدر آباد الدكن الهند

وانظر . الخصائص الكبرى الامام السيوطى /٤٦-٤٧ وشرح الزرقانى على المواهب /١١٩-١٢٠ . والوفا لابن الجوزى ٩٤/١ ، وسبل الهدى والرشاد : ٤١٥/١ .

(٣) القابلة . هى المرأة التى تأخذ الولد عند الولادة وأما الداية ، فهى حاضنته دون أمه (أنظر القاموس المحيط ٣٤/٤ ط الحلبى ـ وانظر أساس البلاغة ٢٦٠/١ ط دار الكتب) .

عليه وسلم ، أنها قامت بخدمته وهى التى تركها له أبوه رضى الله عنه وكانت من مولياته صلى الله عليه وسلم واسمها بركة[١] .

ومن ثم قيل : «فى اسم الوالدة والقابلة : الأمن والشفاء وفى اسم الحاضنة : البركة والنماء ، وفى اسم مرضعته أولا - التى هى ثويبة - الثواب ، وفى اسم مرضعته المستقلة برضاعه - التى هى حليمة السعدية - الحلم والسعد»[٢] ! !

ونجد العلامة الحلبى يوفق بين الروايات المتعددة التى تفيد بيان من حضر ولادته صلى الله عليه وسلم فيقول :

«ولا ينافى وجود الشفاء ووجود أم عثمان بن العاص عند أمه صلى الله عليه وسلم ما روى عنها أنها قالت :

لما أخذنى ما يأخذ النساء عند الولادة - وإنى الوحيدة فى المنزل - رأيت نسوة كالنخل طولا كأنهن من بنات عبد مناف يحدقن بى ، - وفى كلام ابن المحدث[٣] - ودخل على نساء طوال كأنهن من بنات عبد المطلب ، ما رأيت أضوأ منهن وجوها ، وكان واحدة من النساء تقدمت إلى فاستندت إليها ، وأخذنى المخاض واشتد على الطلق ، وكان واحدة منهن تقدمت إلى وناولتنى شربة من الماء أشد بياضا من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من

---

(١) أنظر الوفا لابن الجوزى ٥٨١/٢

(٢) أنظر : السيره الحلبية ٧٥/١

(٣) بحثت عنه فلم أجد إلا ما عرف به صاحب (معجم المؤلفين ٤٧/١) وهو إبراهيم بن عبد الرزاق بن أبى بكر بن رزق الله بن خلف وكان يعرف بابن المحدث وقد توفى سنة ٦٩٥ هـ وله شرح على مختصر القدورى .

الشهد ، فقالت لى : اشربى فشربت ، ثم قالت الثالثة : ازدادى فازددت ، ثم مسحت بيدها على بطنى ، وقالت : بسم الله اخرج بإذن الله تعالى : فقلن لى - أى تلك النسوة : نحن آسية امرأة فرعون ، ومريم ابنة عمران ، وهؤلاء من الحور العين(١) ! !

لجواز(٢) وجود الشفاء وأم عثمان عندها بعد ذلك ، وتأخر خروجه صلى الله عليه وسلم عن القول المذكور حتى نزل على يد الشفاء ، لما تقدم من قولها : وقع على يدى .

— ثم قال — : ولعل حكمة شهود آسية ومريم لولادته : كونهما يصيران زوجتين له صلى الله عليه وسلم فى الجنة مع كلثم أخت موسى ، ففى الجامع الصغير : « إن الله تعالى زوجنى فى الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى »(٣) . . . »(٤) .

---

(١) أورد الحافظ السيوطى هذا الأثر بزيادة مطولة خرجها عن أبى نعيم عن الإمام ابن عباس - رضى الله عنهما - ورغم حكمه عليها بالإنكار إلا أنه آثر متابعة أبى نعيم بروايتها فى الخصائص (٤٨/١) بيد أن المروى هنا منتقى منهما ومن رواية ابن المحدث . وقد ساق القسطلانى نحوها فى المواهب (٢١/١) .

(٢) قوله « لجواز » متعلق بما سبق من قوله « ولا ينافى وجود الشفاء . . . » تعليلا لعدم المنافاة .

(٣) خرجه الإمام السيوطى عن الطبرانى - فى الكبير - من رواية سعد بن جناده ورمز له بالضعف .

وقال الهيثمى : فيه من لم أعرفه . أنظر الجامع الصغير ٧٠/١ ط الحلبى ، وفيض القدير ٢٣٧/٢ ط التجارية .

(٤) أنظر : السيرة الحلبية ٧٧/١ ط / التجارية .

ومن عجيب الآيات التى احتفت بمولده صلى الله عليه وسلم : انفلاق البرمة حين وضع تحتها .

فقد روى الحافظ أبو نعيم عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كان فى عهد الجاهلية إذا ولد لهم مولود ـ من تحت الليل ـ وضعوه تحت الإناء . لا ينظرون إليه حتى يصبحوا ، فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم طرحوه تحت برمة ، فلما أصبحوا أتوا البرمة ، فإذا هى قد انفلقت اثنتين وعيناه ﷺ إلى السماء فعجبوا من ذلك »(١) .

ومما يعزز هذه الرواية لتلك الآية : ما رواه ابن سعد بسند رجاله ثقات أثبات عن عكرمة رضى الله تعالى عنه ـ مرسلا ـ : أن رسول الله ﷺ لما ولدته أمه وضعته تحت برمة فانفلقت عنه ، قالت : فنظرت إليه ، فإذا هو قد شق بصره ينظر إلى السماء »(٢) !؟

ومع الآية آيات أخرى :

فيروى ابن الجوزى ـ فى الوفا ـ عن السيدة آمنة رضى الله تعالى عنها أنها قالت :

---

(١) انظر : سبل الهدى والرشاد ٤١٨/١ وقد علق المحقق على هذه الرواية بأنها لم ترد فى دلائل أبى نعيم بنصها وليس فى دلائل النبوة المطبوع إلا إشارة إلى انفلاق البرمة .

وأقول : إن النسخة المطبوعة من هـذا الكتاب بآخرها اعتذار عن وجود بياضات ونقائص فى النسخة المنقولة عنها وفى هذا تفسير لعدم عثور المحقق على هذه الرواية التى نقلها الحافظ الشامى عن أبى نعيم .

(٢) أنظر طبقات ابن سعد ١-٢-١٠٢ ، والسيرة الشامية ١-٤١٨

« ولدته جاثيا على ركبتيه ينظر إلى السماء . ثم قبض قبضة من الأرض وأهوى ساجدا ، وولد وقد قطعت سرته ، وكنت وضعت عليه إناء فوجدت الإناء قد انفلق عنه وهو يمص إبهامه يشخب لبنا »(١) ! ! .

وينقل الحافظ الشامى عن بعض أهل الإشارات العرفانية أن انفلاق البرمة عنه صلى الله عليه وسلم إشارة إلى ظهور أمره وانتشاره ، وأنه يفلق ظلمة الجهل ويزيلها(٢) .

وأقول : إن هذا الانفلاق يعنى أمرين : أولهما : أن الحق تعالى قد نزه حبيبه ﷺ عن صنيع الجاهلية فكان انفلاق البرمة رمز التحطيم أوابد الجاهلية على يديه صلوات الله وسلامه عليه .

وثانيهما : أن الذات المحمدية غير قابلة أصلا للحجر والحصر ، فهى الذات التى تخترق حدود الزمان والمكان ، لأنها الرحمة التى تغمر أرجاء العالمين . صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى كل وقت وحين .

ومع انفلاق البرمة كانت آيات بينات تضمنتها رواية ابن الجوزى .

فالآية الأخرى الواردة فى الرواية المماثلة - وهى انشخاب اللبن من من إبهامه ﷺ ومصه إياه — ناطقة باديء ذى بدء بأن رزقه ﷺ يأتيه من ربه عز وجل ابتداء ومباشرة وبلا توسط مخلوق ، إنه نفس المنطق الذى علل به وصاله فى الصيام بينما نهى عنه أصحابه . فقالوا له : فإنك

---

(١) أنظر : الوفا لابن الجوزى ١-٩٥ والسيرة الشامية ١-٤١٩

(٢) المصدر الأخير .

تواصل يا رسول الله ، قال : إنى لست كهيئتكم ، إنى أبيت لى مطعم يطعمنى وساق يسقين »[1] .

وفى رواية ابن أبى شيبة : « إنى أبيت عند ربى يطعمنى و يسقينى »[2] .

ثم انظر إلى تكريم الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم لدى مولده ، بتوجيهه إليه تعالى منذ أنفاسه الأولى من عمره البشرى فى هذه الدنيا على أكمل هيئة للعبودية لله سبحانه ، إذ ولد جاثيا على ركبتيه ينظر الى السماء ثم قبض قبضة من الأرض وأهوى ساجدا، يقول شمس الدين الجوجرى[3] — رحمه الله تعالى — مترجما عن بعض مدلولات هذه الإشارات :

« وفى رفع بصره صلى الله عليه وسلم فى تلك الحال : إشارة وإيماء الى ارتفاع شأنه وعلو قدره ، وأنه يسود الخلق أجمعين ، وكان هذا من آياته صلى الله عليه وسلم ، وهو أنه أول فعل وجد منه فى أول ولادته ، وفيه إشارة وإيماء الى أن جميع ما يقع له من حين يولد إلى حين يقبض — صلى الله عليه وسلم — ما يدل علية العقل ، فإنه - صلى الله علية وسلم -

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الصوم من صحيحه ٢٣٣/١ ط / حجازى :

(٢) أنظر فتح البارى بشرح البخارى للحافظ ابن حجر العسقلانى ٥ - ١١٠ ط الحلبى .

(٣) هو العلامة شمس الدين محمد بن عبدالمنعم بن إسماعيل الجوجرى الشافعى المتوفى سنة ٨٨٩ هـ كان فقيها نحويا وله العديد من المصنفات منها : شرح القصيدة الهمزية فى المدائح النبوية للإمام البوصيرى ، وشرح الارشاد لابن المقرى فى الفقه وغير ذلك (أنظر ترجمته بمعجم المؤلفين لعمر كحاله ١٠-٢٦٠) .

لا يزال متزايد الرفعة في كل وقت وحين ، على الشأن على المخلوقات .

وفى رفعه - صلى الله عليه وسلم - رأسه : إشارة وإيماء إلى كل سؤدد ، وأنه لا يتوجه قصده إلا إلى جهات العلو دون غيرها مما لا يناسب قصده(١) .

ومن الدلالات الرائعة التى استنبطها أهل الإشارات من أحواله صلى الله عليه وسلم لدى وضعه الشريف : ما عبر عنه بعض العارفين فى مقارنة أحواله تلك بما حدثنا به القرآن الكريم من أحوال المسيح عليه السلام لدى ميلاده ، إذ قال :

« لما ولد عيسى — صلى الله عليه وسلم — قال : (إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا »(٢) ، فأخبر عن نفسه بالعبودية والرسالة .

ونبينا - صلى الله عليه وسلم - وضع ساجدا ، وخرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب ، وقبض قبضة من تراب ، ورفع رأسه إلى السماء ! !

فكانت عبودية عيسى : المقال ، وعبودية محمد صلى الله عليه وسلم : الفعال ، ورسالة عيسى : بالأخبار ، ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم . بظهور الأنوار ، وفى سجوده - صلى الله عليه وسلم - عند وضعه - إشارة إلى أن مبدأ أمره على القرب ، قال الله تعالى . « واسجد واقترب »(٣) .

---

(١) أنظر : سبل الهدى والرشاد ١-٤١٤

(٢) سورة مريم - ٣٠

(٣) سورة العلق / ١٩

وقال صلى الله عليه وسلم . « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »(١) .

فحال عيسى عليه الصلاة والسلام يشير إلى مقام العبودية وحال محمد صلى الله عليه وسلم يسير إلى مقام القرب من الحضرة الإلهية »(٢) .

ومن آيات مولده صلى الله عليه وسلم كذلك : أنه ولد مختونا مقطوع السرة ، فقد روى الطبراني وأبو نعيم وابن عساكر — من طرق — عن سيدنا أنس بن مالك — رضى الله عنه — أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كرامتى على ربى أنى ولدت مختونا ولم ير أحد سوأتى »(٣) !!

وقد عقب الحافظ ابن الجوزى هذا الحديث الشريف بقوله :

« فإن قيل . فلم لم يولد مطهر القلب من حظ الشيطان ، حتى شق صدره وأخرج قلبه ؟؟

---

(١) رواه الأئمة : مسلم وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة وتخريجه فى الفتح الكبير للنبهانى ١-٢١٩

(٢) أنظر : سبل الهدى والرشاد ١-٤١٤

(٣) خرجه الحافظ الشامى عن المذكورين وذكر طرقه ونقل تصحيح بعضها عن الضياء المقدسى كما نقل عن الحافظ مغلطاى أن سنده إلى أنس جيد ، ونقل عن الحاكم قوله « تواترت الأخبار بأنه ﷺ ولد مختونا » وفسر التواتر بأنه اشتهار الأخبار وكثرتها فى السير (انظر . سبل الهدى والرشاد ١/٤٢٠) و (أنظر الحديث فى الوفا لابن الجوزى ١/٩٧)

قال ابن عقيل : لأن الله ـ سبحانه ـ أخفى أدون التطهيرين الذى جرت العادة أن تفعله القابلة والطبيب ، وأظهر أشرفهما ـ وهو القلب ـ فأظهر آثار التجمل والعناية بالعصمة فى طرقات الوحى »[١] .

ومن روائع الآيات التى احتفت بمولده صلى الله عليه وسلم .

كلامه فى المهد ومناغاته للقمر ! !

فأما كلامه صلى الله عليه وسلم فى المهد : فقد تناقلته مصادر السيرة العطرة ورواه الأثبات .

قال الحافظ ابن حجر ـ فى الفتح ـ « وفى سير الواقدى : أن النبى صلى الله عليه وسلم تكلم أوائل ما ولد »[٢] .

ونقل الحافظ السيوطى ـ فى الخصائص ـ عن ابن سبع[٣] أنه قال فى الخصائص : « إن مهده كان يتحرك بتحريك الملائكة ، وأن أول كلام تكلم به أن قال : (الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا)[٤] » ه

---

(١) أنظر : الوفا لابن الجوزى ١/٩٧

(٢) أنظر : فتح البارى لابن حجر ٧/٢٨٨ ط الحلبى ، والخصائص الكبرى للحافظ السيوطى /٥٣

(٣) الرواية فى الخصائص الكبرى عن ابن سبع وهكذا فى السيرة الشامية ١/٤٢٣ بينما يقول العلامة الزرقانى — فى شرح المواهب ١/١٤٧ — . وعند ابن عائذ : أول ما تكلم به حين خرج من بطن أمه . (الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا) وثمة أقوال أخرى جمع بينها شارح المواهب .

(٤) أنظر ، الخصائص الكبرى للحافظ السيوطى ١-٥٣

وأما مناغاته - صلى الله عليه وسلم - للقمر فى مهده . فقد روى الطبرانى والبيهقى . والخطيب وابن عساكر - فى تاريخيهما - عن سيدنا العباس ابن عبد المطلب - رضى الله تعالى عنه - أنه قال : قلت : يا رسول الله ، دعانى إلى الدخول فى دينك أمارة لنبوتك ، رأيتك فى المهد تناغى القمر وتشير إليه بإصبعك ، فحيث أشرت إليه مال ! !

قال : إنى كنت أحدثه ويحدثنى ، ويلهينى عن البكاء ، واسمع وجبته حين يسجد تحت العرش »(١) .

ومن أبرز الآيات التى وقعت فى عام مولده - صلى الله عليه وسلم إرهاصا لنبوته - :

حادثة الفيـــل :

وهى الحادثة التى سجلها القرآن الكريم واعتدها الأثبات من ارهاصات نبوته صلى الله عليه وسلم إذ وقعت فى نفس السنة التى ولد فيها صلوات الله وسلامه عليه .

وقصة هذه الحادثة : أن أبرهة الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمه النجاشى قد رأى الناس يتجهزون أيام الموسم لحج بيت الله الحرام فهاله ذلك فبنى كنيسة بصنعاء لم ير مثلها وسماها القليس ، وكتب إلى النجاشى .

---

(١) خرجه الحافظ السيوطى فى المصدر السابق وقال : قال البيهقى : تفرد به أحمد بن إبراهيم الجيلى ، وهو مجهول ، وقال الصابونى : هذا حديث غريب الإسناد والمتن فى المعجزات حسن .

قد بنيت لك كنيسة وأريد أن أصرف حج العرب إليها ، فجاء رجل من بنى كنانة(١) فأحدث فيها ولطخ قبلتها بعذرة ، وجمع جيفا فألقاها بها ثم خرج فلحق بأرضه ، فأخبر بذلك أبرهة ، فقال من صنع هذا ؟

فقيل له : هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذى تحج العرب إليه بمكة لما سمع قولك : أصرف إليها حج العرب ، فغضب لذلك أبرهة ، وحلف ليسيرن إلى البيت فيهدمه ، ولينقض الكعبة حجرا حجرا .

وكتب إلى النجاشى يخبره بذلك ، وسأله أن يبعث إليه فيله (محمودا) ، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم سار ومعه الفيل فى ستين ألفا(٢) . فلما سمعت العرب بخروجه . فظعوا به ورأوا جهاده حقا عليهم إعظاما لبيت الله الحرام ، وقد اعترضه بعض أشراف اليمن مع أحد ملوكهم - يقال له ذو نفر - فهزمه أبرهة ، كما عرض له - بأرض خثعم - بعض

---

(١) ذكر ابن سعد فى طبقاته ٩١/١ : أن ذلك الرجل اسمه نفيل الخثعمى . وفى دلائل النبوة للبيهقى (٥٦/١) : أن هذا الرجل من بنى ملكان بن كنانة . وهو من الحمس ، وقد خرج حتى قدم اليمن ، فدخلها فنظر إليها ، ثم قعد فيها - يعنى : لحاجة الانسان .

(٢) نص العلامه الزرقانى على هذا العدد فى شرح المواهب ١-٨٣ ، وفى وفى دلائل البيهقى (١-٥٦) .

، فدعا بالفيل وأذن فى قومه بالخروج ، ورحل ومن اتبعه من أهل اليمن وكان أكثر من تبعه منهم : عك والأشعريون وخثعم فخرجوا يرتجزون :-

إن البلد لبلد مأكول   تأكله عك والأشعريون والفيل

قبائل العرب بقيادة نفيل بن حبيب الخثعمى فهزمهم أيضاً ، كما هزم من اعترضه بالطائف من رجال ثقيف بقيادة مسعود بن معتب الثقفى ، وبعثوا معه من يدله على طريق مكة - وهو أبو رغال الذى أنزله المغمس بطريق الطائف ومات به فرجمت العرب قبره ، فهو القبر الذى يرجمه الناس بالمغمس(١) !!

فلما كانوا بالمغمس - على ستة أميال من مكة - بعثوا بمقدماتهم إلى مكة فاستاقت خيل أبرهة نعما(٢) لقريش وغيرهم وأصابت فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم(٣) .

وهنا : — حيث وقع الاعتداء على مال جد رسول الله ﷺ مع الشروع فى الإقدام على غزو حرم الله الأمين — يحين سطوع إرهاصات النبوة المحمدية . ويأتى دور الخوارق . حيث لا طاقة لقريش بهذا الغزو

---

(١) أنظر : سيرة ابن هشام مع الروض الأنف ٦٧/١ وشرح الزرقانى على المواهب ٨٣/١

(٢) كانت هذه النعم — كما ذكر شارح المواهب ٨٥/١ — إبل قريش وغنمها والذى استاقها هو الأسود بن مقصود وقد همت قريش وكنانة وهزيل ومن كان بالحرم بقتاله ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك (أنظر سيرة ابن هشام مع الروض الأنف ٦٨/١) .

(٣) نص على هذا العدد كل من ابن هشام فى سيرته والبيهقى فى دلائله ٥٨/١ بينما ذكر القسطلانى فى المواهب — مع شرحه ٨٩/١ — وابن حجر الهيثمى فى شرح الهمزية — ص ٦١ — أن عدد إبل عبد المطلب هذه كانت أربعمائة .

فيروى الامام القسطلانى والحافظ ابن حجر الهيثمى ونور الدين الحلبى وغيرهم : أن عبد المطلب — عندئذ — قد ركب فى قريش حتى طلع جبل « ثبير » ، فاستدارت دارة غرة رسول الله ﷺ على جبهته كالهلال ، واشتد شعاعها على البيت الحرام مثل السراج !! فلما نظر عبد المطلب إلى ذلك : قال : يامعشر قريش ، ارجعوا فقد كفيتم هذا الأمر ، فوالله ما استدار هذا النور منى إلا أن يكون الظفر لنا !! فرجعوا متفرقين .

ثم إن أبرهة قد بعث رسولا من قومه إلى مكة — بين يديه — ليدخل الرعب على قريش ويوطىء لهدم البيت ، فلما دخل مكة ، ونظر إلى وجه عبد المطلب : خضع وتلجلج لسانه ، وخر مغشياً عليه ، فكان يخور كما يخور الثور عند ذبحه ، فلما أفاق : خر ساجداً لعبد المطلب وقال : أشهد أنك سيد قريش حقاً !! هذا سياق تناقلته مصادر موثقة عن رسول أبرهة إلى مكة(١) .

وذكر ابن هشام وغيره . أن أبرهة قد بعث حناطة الحميرى ليسأل عن سيد أهل مكة وشريفها ، ليخبره أنه لا يريد حربهم ولا حاجة له بدمائهم وإنما هو آت لهدم الكعبة ، فإن لم يتعرضوا لحربه نجوا ، وجاء لسيد قريش عبد المطلب وبلغه ما كلف به فقال له عبد المطلب : والله مانريد حربه ، ومالنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم — عليه السلام — فإن يمنعه منه فهو بيته ، ثم حمله إليه فأكرمه وأجله ، ونزل أبرهة عن سرير ملكه وأجلس عبد المطلب معه على بساطه ثم سأله

---

(١) أنظر : شرح الزرقانى على المواهب ٨٥/١ ، وشرح ابن حجر على الهمزية ص ٦٢ .

عن حاجته ، فقال : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى .
فقال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه ؟؟! فقال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه !! فقال أبرهة : ما كان ليمتنع منى ، فقال له أنت وذاك !

وخرج عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب ثم أخذ بحلقة باب الكعبة وقال :

يارب لا أرجو لهم سواكا   يارب وامنع منهمو حماكا
إن عدو البيت من عاداكا   امنعهموا أن يخربوا فناكا(١)

وقال أيضاً :

لاهم(٢) إن العبد(٣) يمـ   ـنع رحله فامنع حلالك(٤)

---

(١) البيتان فى دلائل النبوة للبيهقى ٦١/١ والوفا لابن الجوزى ٩٢/١ والسيرة الشامية ٢٥٤/١

(٢) أصلها . اللهم ، والعرب تحذف منها الألف واللام وتكتفى بما بقى أنظر الروض الأنف للسهيلى ٧٠/١

(٣) ورد لفظ العبد فى دلائل البيهقى ٥٨/١ وفى سيرة ابن هشام وروضها الأنف ٧٠/١ بينما ورد لفظ المرء فى الوفا لابن الجوزى ٩٢/١ والسيرة الشامية ٢٥٤/١

(٤) الحلال — هنا — بكسر الحاء . القوم الحلول فى المكان ، ويطلق — فى غير البيت — على متاع البيت — وجائز أن يستعيره هنا — كما يطلق على مركب من مراكب النساء . قاله السهيلى فى الروض ٧٠/١

لا يغلبن صليبهم ... ومحالهم عـدواً محالك(١)

جروا جمـوع بلادهم والفيل كى يسبوا عيالك

عمدوا حماك بكيدهم جهلا ومارقبوا جلالك(٢)

انصر على آل الصليـ ـب وعابديه اليوم آلك(٣)

إن كنت تاركهم وكعـ ـبتنا فأمر ما بدا لك(٤)

وكانت أبواب السماء مفتحة لهذا التضرع المطلبى المشع بوهج الإيمان وصدق الحنيفية الغيورة على بيت الله الحرام، فقد حان نصر الله لبيته الذى سيكون منطلقاً لدعوة رسوله الخاتم صلى الله عليه وسلم.

---

(١) المحال — بكسر الميم — القوة والشدة. وهذا البيت شاهد بحنيفية عبد المطلب وتوحيده حيث كان توجهه إلى الله وحده لا ئذاً ببيته الأمين طالباً نصره على آل الصليب واللفظ فى دلائل البيهقى لا يغلبوا بصليبهم.

(٢) هذا البيت وسابقه : أثبتهما ابن الجوزى ضمن أبيات عبد المطلب فى الوفا ٩٢/١

(٣) أثبت السهيلى هذا البيت فى الروض (٧٠/١) مستدركا على ابن هشام تركه. وزاد واواً فى أوله، كما أثبته الشامى فى سيرته (٢٥٤/١) قبل البيت التالى له ههنا بدون واو أوله.

(٤) أورده ابن هشام بلفظ (وقبلتنا) بدل (وكعبتنا) والمثبت هنا من دلائل البيهقى والوفا والسيرة الشامية، والذى اقتصر عليه ابن هشام فى روايته: البيتان الأولان مع البيت الأخير — ههنا — وقد عقب على الثلاثه قائلا. هذا ماصح له منها، وقد مر بك تخريج باقى الأبيات.

إذ تهيأ أبرهة – عند المغمس – لدخول مكة بجيشه وفيله الذى هيأه لاقتلاع أركان البيت بأن تجعل السلاسل فى الأركان وتوضع فى عنق الفيل ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة(١)،

بيد أنهم لما وجهوا الفيل نحو الكعبة : ولدى وصوله أول الحرم : حدثت الخوارق المعجزة ، إذ أقبل نفيل بن حبيب(٢) .فأخذ بأذن الفيل وقال له : أبرك محمود أو ارجع راشدا فإنك فى بيت الله الحرام ! ثم أرسل أذنه فبرك الفيل ، فضربوه فى رأسه بالطبر زين – وهو آلة من حديد – وادخلوا المحاجن فى مراقه – وهو أسفل بطنه – حتى أدموه ، فأبى ، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام فهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ثم وجهوه إلى مكة فبرك ! !

وقد سجل ذلك أمية بن أبى الصلت فى شعره إذ قال :

إن آيات ربنا باقيات ما يمارى فيهن إلا الكفور

حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يحبو كأنه معقور(٣)

---

(١) أنظر شرح المواهب للزرقانى ٨٧/١ وسبل الهدى والرشاد ٤٥٥/١

(٢) هذا عند ابن هشام ، بيد أن السهيلى ذكر أنه نفيل بن عبد الله بن جزء ابن عامر (الروض الأنف ٧٢/١) .

(٣) البيتان من قصيدة لأميه فى ديوانه ضمن دواوين فحول الشعراء ص ٣٧ ط / المكتبة الاهليـة فى بيروت ، وقد أوردهما العلامة الزرقانى فى شرح المواهب ٨٧/١

ولم يكن بروك الفيل ثم أول ما ظهر فيه من خوارق ، فقد ذكر الإمام القسطلانى أنه لما حضر عبد المطلب عند أبرهة أولا : أمر سائس فيله الأكبر الأبيض العظيم — الذى كان لا يسجد للملك أبرهة كما تسجد سائر الفيلة — أن يحضره بين يديه[١] ، فلما نظر الفيل إلى وجه عبد المطلب برك كما يبرك البعير وخر ساجدا[٢] وأنطق الله تعالى الفيل فقال : السلام على النور الذى فى ظهرك يا عبد المطلب[٣] .

ولم يكن بروك الفيل لدى توجيهه نحو الكعبة إيذانا بحماية رب البيت للبيت وآله فحسب ، بل وبالنصرة الساحقة على أعدائه ومنتهكى حرماته أيضاً ، فقد أعقب أبرهة وجنده بالعقاب الأليم ، إذ أرسل إليهم — عند شروق الشمس[٤] .

---

(١) كان قصد أبرهة من ذلك : أن يرهب به شيبة الحمد . أو لتأكده عما علمه من كهانه من أن الفيل يهابه وينطق له . أنظر شرح المواهب للعلامة الزرقانى ٨٦/١

(٢) نقل شارح المواهب عن الدر المنظم : أن أبرهه تعجب من ذلك ودعا بالسحرة والكهان فسألهم عن ذلك فقالوا : إنه لم يسجد له وإنما سجد للنور الذى بين عينيه . (شرح المواهب ٨٦/١) .

(٣) أنظر نفس المصدر ، وانظر شرح ابن حجر على متن الهمزية ص ٦٢ ، وانظر السيرة الحلبية ٧١/١ .

(٤) تذكر رواية البيهقى فى دلائل النبوة (٥٩/١ — ٦٠) أن إدلاج أبرهة وجنده بالفيل كان بسحر فلم يزالوا يعالجوه حتى كان مع طلوع الشمس طلعت عليهم الطير معها .

طيرا من البحر أمثال الخطاطيف(١) مع كل طائر منها ثلاثة أحجار، حجر فى منقاره وحجران فى رجليه كأمثال العدس، فجعلت ترميهم بها فإذا رمت بتلك مضت وطلعت جماعة أخرى، فكان الحجر من حجارتهم لا يقع على بطن إلا خرقه ولا عظم إلا أوهاه ونقبه، وثاب أبو يكسوم(٢) راجعا قد أصابته بعض الحجارة فجعل كلما قدم أرضا انقطع منه فيها إرب — أى عضو — حتى وصل إلى صنعاء اليمن وهو مثل فرخ الطائر وسال منه الصديد والقيح والدم، وما مات حتى تصدع قلبه وشق بطنه فهلك.

القرآن الكريم يقص حادثة الفيل»:

قال تعالى شأنه: «بسم الله الرحمن الرحيم. ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم فى تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول»؟؟

وقد افتتحت السورة الكريمة — بعد البسملة — بقوله تعالى: «ألم تر كيف..»، والخطاب فيه: للرسول صلى الله عليه وسلم.

قال البيضاوى: «وهو وإن لم يشهد تلك الواقعة لكن شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها..»(٣).

---

(١) الخطاطيف جمع خطاف وهو طائر معروف، وفى رواية البيهقى: «أمثال اليحاميم» جمع يحموم وهو الفرس.

(٢) هى كنيه أبرهة الأشرم.

(٣) أنظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير القاضى البيضاوى) ٤٥١/٢ ط الحلبى.

من ثم : كان العلم الضرورى الحاصل بالسماع كالعلم الحاصل بالرؤية والمشاهدة .

وللامام العارف بالله تعالى سيدى سهل بن عبد الله التسترى - رضى الله تعالى عنه - تفسير رائع لهذه الفاتحة من السورة إذ يقول : « قال : ألم تعلم كيف فعل ربك بأعدائك وأنت بعد لم تظهر فى الدنيا ؟ ؟

كذلك يفعل بأعدائك وأنت بين ظهرانيهم ويرفع عنك مكرهم »(١) .

وإنما كان التعبير القرآنى : (ألم تر كيف فعل ربك) ولم يكن : « ألم تر ما فعل ربك » فكان الاستفهام عن رؤية كيفية الفعل لا عن حقيقته : — لأن المراد هو التذكير بما فى تلك الكيفية من وجوه الدلالة على كمال علم الله تعالى وقدرته وعزة نبيه ، وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم حيث أنها من الإرهاصات التى وقعت فى سنة مولده صلى الله عليه وسلم تكريما له(٢) .

ثم إنه تعالى : قال (بأصحاب الفيل) ولم يقل بأرباب الفيل أو ملاك الفيل : تحقيرا لشأنهم وتعبيرا عن انحطاط درجتهم ، لأن الصاحب يكون مجانسا لما صاحبه ، فكان التعبير بأصحاب الفيل دالا على أن أبرهة وجنده كانوا من جنس الفيل فى البهيمية وعدم الفهم والعقل بل وأدون منه ، لأنه إذا حصلت المصاحبة بين اثنين فإنه يقال للأدنى منهما إنه صاحب الأعلى دون العكس .

---

(١) أنظر : تفسير القرآن العظيم للامام أبى محمد سهل بن عبد الله التسترى ص ١٢٨ ط الحلبى .

(٢) أنظر : تفسير القاضى البيضاوى ٤٥١/٢ مع التصرف فى العبارة .

ومن ثم يقال لمن صحب الرسول صلى الله عليه وسلم إنهم : الصحابة ، وقد كان أولئك الفيليون أدون وأضل من فيلهم ، بدليل أنهم كانوا كلما وجهوه إلى جهة الكعبة كان يتحول عنه وينفر كأنه كان يقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »(١) ! !

وإنما عبر بالكيد فى قوله تعالى : « ألم يجعل كيدهم فى تضليل » مع أن الكيد هو ارادة المضرة بالغير على الخفية ، وهم كانوا يعلنون عزمهم على هدم البيت : لأن الذى وقر بقلب أبرهة وقومه كان شرا مما ظهر . لأنه كان يضمر الحسد للعرب ابتداء من قبل أن يتغوط الكنانى بكنيسته ، فانتهزها فرصة للانتقام وصرف الشرف الحاصل للعرب بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى بلده و نفسه(٢) .

والتضليل : هو التضييع والإبطال ، فقد ضلل كيدهم الأول وهو بناء القليس لصرف العرب عن الكعبة بإيقاع حريق فيه دمره ، ثم ضلل كيدهم الثانى — وهو إرادة هدم الكعبة — بإرسال الطير عليهم .

---

(١) أنظر مفاتيح الغيب (تفسير الإمام فخر الدين الرازى) ٩٨/٣٢ ط/ دار الفكر بلبنان .

(٢) نفس المصدر .

وأما حقيقة الطير الأبابيل :

فقد روى الثقات في تفسيرها عجبا :

فقد روى القرطبي عن الإمام سعيد بن جبير - رضى الله عنه - أنه قال : كانت طيرا من السماء لم ير قبلها ولا بعدها مثلها(١) .

وعنه أيضا أنه قال في وصفها : « هي طير خضر لها مناقير صفر »(٢) .

كما روى الإمام ابن سيرين عن الإمام ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - أنه قال : كانت طيرا لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب(٣) ! !

وعن عكرمة - رضى الله عنه - أنها كانت طيرا خضراء خرجت من البحر لها رءوس كرءوس السباع ولم تر قبل ذلك ولا بعده(٤) .

وعن السيدة عائشة - رضى الله تعالى عنها - أنها قالت :

---

(١) أنظر تفسير القرطبي ١٩٦/٢٠

(٢) أنظر : تفسير القرطبي ١٩٧/٣٠

(٣) أنظر دلائل النبوة للبيهقي ٦٢/١ واللفظ فيه « . . كخراطيم الطير » وكذا في تفسير ابن كثير ٥٠٨/٨ بينما في الدر المنثور (٣٩٥/٦) خرج الأثر عن ابن أبي شيبه وابن حميد وابن جرير وغيرهما عن الإمام ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما — بلفظ (خراطيم الإبل) .

(٤) أنظر : جامع البيان للامام الطبري ٢٩٨/٣٠ وتفسير القرطبي ١٩٦/٢٠

« هى أشبه شىء بالخطاطيف »(١) .

والأبابيل : تطلق فى اللغة على الجماعة فى تفرقة ، فيقال : جاءت الخيل أبابيل أبابيل من هنا ومن هنا(٢) .

وقد ذهب بعض اللغويين - كالأخفش والفراء - إلى أنه لا واحد له من لفظه كالشماطيط(٣) .

وبعضهم قال : بل واحده : إبالة - بتشديد الباء - وهى الحزمة الكبيرة ، وقد سميت الجماعة الكبيرة من الطير فى نظامها بالإبالة(٤) .

ومن هذا الوصف يعلم : أن هذا الطير جاء على هيئة جماعات متفرقة ، متتابعة فى مجيئها ، وكل جماعة منها عظيمة فى كثرتها منظمة كأنها حزمة من شىء واحد .

أما من أين جاءت ؟ ؟ فبعض الروايات الآنفة يصرح أنها جاءت من السماء وبعضها يذكر أنها خرجت من البحر ، ويؤيد الأولى تفسير «سجيل»

---

(١) المصدر الأخير .

(٢) نقله العلامة الفخر — عن أبى عبيدة — فى تفسيره : (١٠٠/٣٢) ونقل القرطبى عن عكرمة قوله : « أبابيل » أى مجتمعة ، وعن الامامين ابن عباس ومجاهد أنهما قالا . متتابعة بعضها فى أثر بعض وقال النحاس : وحقيقة المعنى أنها جماعات عظام .

(٣) قال فى القاموس المحيط (٣٨٣/٢) : وقوم شماطيط ، متفرقة ، وثوب شماطيط : خلق متمزق .

(٤) أنظر : مفاتيح الغيب للفخر الرازى ١٠٠/٣٢

بأنه السماء الدنيا كما رواه الطبرى عن ابن زيد وعليه قيل : ترميهم بحجارة من سماء الدنيا(١) .

ولعل مراد من ذكر أنها جاءت من البحر أنها جاءت من قبله وجهته كما روى عن عطاء أنه قال : طير سود جاءت من قبل البحر فوجا فوجا(٢) .

وفى تفسير قوله تعالى « ترميهم بحجارة من سجيل » أيضا : يروى عكرمة عن الإمام ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم إلا نفط جلده وثار به الجدرى(٣) .

ثم قال عكرمة فى رواية : فإنه لأول ما رؤى الجدرى(٤) .

وفى رواية أخرى عن عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - يقول « فلما حاذتهم رمتهم فما بقى منهم أحد إلا أخذته الحكة ، فكان لا يحرك إنسان منهم جلدة إلا أصابته الحكة »(٥) .

ويؤخذ من هذه الروايات ومن غيرها تنوع الآثار التى أحدثتها فيهم الحجارة وكلها ناطقة بالإعجاز الخارق للعادات .

---

(١) تفسير الطبرى ٣٠/٢٩٩

(٢) تفسير الفخر الرازى ٣٢/١٠٠

(٣)،(٤) أنظر : دلائل النبوة للبيهقى ١/٦٣ — ٦٤ وانظر تفسير الفخر ٣٢/١٠٠ والدر المنثور ٦/٣٩٥ .

(٥) أنظر دلائل النبوة للبيهقى ١/٦٥ والدر المنثور ٦/٣٩٥ والتخريج فيه عن عبد بن حميد عن ابن عباس .

وليس بغاض من شأن التفكير العلمى لدينا أن نذعن لتلك الخوارق ما دمنا نعتقد أنها من صنع الله العليم القدير الذى لا تخضع قدرته لمنطق العادات، كما أنه لا يرجح كفتنا بنا - فى ميزان العقل والمنطق العلمى - أن نتجاهل هذه الخوارق كما صنع الدكتور هيكل إذ أرجع سبب هلاك أصحاب الفيل إلى تفشى وباء الجدرى دون أن يستند إلى رواية واحدة تفسر سر تفشى هذا الوباء أو علاقته بالطير الأبابيل، وكأن الأمر مجرد ظاهرة طبيعية كانتشار المرض الكوليرا مثلا(١) !!

ثم إن المفسرين قد ذكروا للسجيل وجوها : منها أن السجيل . اسم للديوان الذى كتب فيه عذاب الكفار، كما أن « سجينا» علم لديوان أعمالهم، كأنه قيل : بحجارة من جملة العذاب المكتوب عليهم(٢) .

ومنها : أنه طين طبخ بنار جهنم — والعياذ بالله تعالى — وقد كتب فى تلك الحجارة التى صنعت منها أسماء القوم فكان على كل حجر اسم صاحبه الذى سيهلك به، نقله القرطبى عن الصحاح(٣) .

ويدل عليه ماخرجه الحافظ السيوطى عن ابن مردويه وأبى نعيم عن أبى صالح، أنه رأى عند أم هانىء بنت أبى طالب من تلك الحجارة

---

(١) أنظر : حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل ص ١٠٢ ط / النهضة المصرية « التاسعة » .

(٢) أنظر مفاتيح الغيب للامام فخر الدين الرازى ٣٢/١٠١ وتفسير القرطبى ٢٠/١٩٨

(٣) أنظر تفسير القرطبى ٢٠/١٩٨

نحوا من قفيز مخططة بحمرة ، كأنها جزع ظفار ، مكتوب فى الحجر اسمه واسم أبيه(١) ! !

ومنها ما نقله القرطبى أيضا عن عبد الرحمن بن أبزى أنه قال : « من سجيل » من السماء ، وهى الحجارة التى نزلت على قوم لوط(٢) .

وروى عن الإمام ابن عباس – رضى الله عنهما – : أن معنى سجيل : سنك وكل ، يعنى : بعضه حجر و بعضه طين . وعن أبى عبيدة : أن السجيل معناه الشديد(٣) .

ثم صور لنا القرآن الكريم وصف أصحاب الفيل بعد رميهم بالحجارة بأروع تشبيه إذ قال تعالى : « فجعلهم كعصف مأكول » أى : جعل الله تعالى أصحاب الفيل كورق الزرع الذى أكلته الدواب ثم ألقته روثا ثم جف وتفرقت أجزاؤه ! ! فشبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث ، وهذا مروى عن ابن زيد(٤) .

وثمة وجه آخر وهو أنه تعالى قد شبه أصحاب الفيل بورق الزرع الذى وقع فيه الأكال . . وهو أن يأكله الدود(٥) .

---

(١) أنظر الدر المنثور ٣٩٦/٦

(٢) يشير إلى ما ذكره التنزيل فى قصة قوم لوط فى قوله تعالى « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود » سورة هود/٨٢ . وانظر تفسير القرطبى ١٩٨/٢٠

(٣) أنظر تفسير الفخر الرازى ١٠١/٢٠

(٤) أنظر نفس المصدر وتفسير القرطبى ١٩٩/٢٢

(٥) أنظر مفاتيح الغيب ١٠١/٣٢

ثم وجه آخر مروى عن حبر الأمة رضى الله عنه : أنه قال : « فجعلهم كعصف مأكول » : إن المراد به : قشر البر ، يعنى الغلاف الذى تكون فيه حبة القمح ، اهـ .

وقد أتبعه القرطبي بقوله : ويروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل مافى جوفه ، فيبقى كقشر الحنطة إذاخرجت منه الحبة[1] اهـ .

إنه سخط الله تعالى على أعدائه قد حاق بأهل الفيل حتى لقد روى عن السيدة عائشة — رضى الله تعالى عنها — رأيت قائد للفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين بمكة يستطعمان الناس »[2] ولله در الحافظ ابن حجر الهيثمى إذ قال : —

« إن جميع ما وقع فى قصة الفيل إنما هو من كالات الإرهاص لتحقيق نبوة سيدنا محمد - ﷺ - قبل وجوده مع الإشارة إلى أنه سيظهر دينه على الأديان كلها وأنه لا يناويه أحد إلا أهلكه الله واستأصل أتباعه حتى لا يبقى منهم أحد إلا الشاذ ليخبر الناس عن الكيفية التى أخذهم الله بها ، وإلى أن ربه سبحانه وتعالى سيعطيه من خوارق المعجزات وباهر الآيات ما لم يعطه لنبي مرسل ولا ملك مقرب ، لأن هذا الأمر الباهر إذا وقع لأجله وهو حمل لم يبرز فى الوجود فما بالك بما سيقع له بعد وجوده »[3] .

---

(١) أنظر تفسير القرطبي ١٩٩/٢٠

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٦٦/١ والوفا لابن الجوزى ٩٤/١

(٣) أنظر شرح الامام ابن حجر الهيثمى على متن الهمزية ص ٦٢

ومع آية الفيل الكبرى هناك العديد من الآيات التى واكبت ميلاده ﷺ بالإحتفاء والتكريم.

فمن تلك الآيات : ماروى من حزن إبليس ورنينه وحجبه عن السموات وما سمع من هواتف الجن لما ولد ﷺ وما شوهد من تنكيس الأصنام وسقوطها.

أما رنينه — وهو صياحه بحزن وكآبة — فقد نقله السهيلى وغيره عن تفسير الحافظ بقى بن مخلد(١).

حيث ذكر فيه أن إبليس رن أربع رنات : رنة حين لعن، ورنة حين أهبط ، ورنة حين ولد النبى صلى الله عليه وسلم ورنة حين أنزلت فاتحة الكتاب(٢) اهـ.

وأما حجبه عن السموات : فقد روى الزبير بن بكار وابن عساكر عن معروف بن حزبوذ رحمه الله تعالى أنه قال : «كان إبليس يخترق السموات السبع ، فلما ولد عيسى حجب من ثلاث سموات - وكان يصل إلى أربع ، فلما ولد النبي ﷺ حجب من السبع»(٣).

---

(١) نقل الحلبى فى سيرته «١/٨٠» عن ابن حزم أنه قال عن تفسير ابن مخلد : «ما صنف مثله أصلا» ! !

(٢) أنظر : الروض الأنف ١/١٨١ والسيرة الحلبية ١/٨٠ والسيرة الشامية ١/٤٢٤

(٣) أنظر السيرة الشامية ١/٤٢٤ وأنظر أيضا :السيرة الحلبية ١/٨١والرواية فيها عن الامام ابن عباس رضى الله عنهما وفى ضمنها إشارة انقلها أ ضا عن وهب ابن منبه . =

وأما سماع الهواتف من الجن فرحا بقدومه ﷺ : فقد روى ابن الجوزى — فى الوفا — عن سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضى الله تعالى عنه أنه قال :

لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم : هتف الجن على أبى قبيس ، على الحجون الذى بأصله المقبرة - وكانت قريش تبل فيه ثيابها - فقال :-

فأقسم ما أنثى من الناس أنجبت

ولا ولدت أنثى من الناس واحدة

كما ولدت زهرية ذات مفخر . .

نجيبة من لؤم القبائل ماجده . .

وقد ولدت خير البرية أحمدا

فأكرم مولود وأكرم والده[١]

وأما تنكيس الأصنام وسقوطها لذى مولده صلى الله عليه وسلم :

فقد روى الحافظ السيوطى وغيره — نقلا عن الخرائطى فى الهواتف وابن عساكر — عن عروة بن الزبير — رضى الله عنهما — أن نفرا من قريش ، منهم : ورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل وعبيد الله

= وأنظر شرح العلامة الزرقانى على المواهب اللدنية ١٢٢/١ وأيضا شرح الامام الباجورى على البردة ص ٤٥ ط الحلبى والخصائص الكبرى للامام السيوطى ١ / ٥١ .

(١) أنظر الوفا لابن الجوزى ٩٦/١ وشرح شيخ الاسلام الباجورى على البردة ص ٤٣ والسيرة الشامية ٤٢٦/١

ابن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، كانوا عند صنم لهم يجتمعون إليه(١) ، فدخلوا عليه ليلة فرأوه مكبوبا على وجهه ، فأنكروا ذلك فأخذوه فردوه إلى حاله ، فلم يلبس أن انقلب انقلابا عنيفا ، فردوه إلى حاله فانقلب الثالثة ، فقال عثمان بن الحويرث : إن هذا الأمر قد حدث ، وذلك فى الليلة التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجعل عثمان يقول شعرا : —

أيا صنم العيد الذى صف حوله
صناديد وفد من بعيد ومن قرب
تنكس مقلوبا فما ذاك قل لنا
أ آذاك شىء أم تنكس للعب
فإن كان من ذنب أسأنا فإننا
نبوء بإقرار ونلوى عن الذنب
وإن كنت مغلوبا تنكست صاغرا
فما أنت فى الأوثان بالسيد الرب

قال : فأخذوا الصنم فردوه إلى حاله : فلما استوى هتف بهم هاتف عن الصنم بصوت جهير وهو يقول :

---

(١) مرجع الضمائر الثلاثة فى العبارة هو النفر من قريش باعتبار جملتهم لا باعتبار خصوص ورقة وزيد وابن جحش وعثمان ، فقد مضى بك القول عن تمردهم على عبارة الأصنام ولعل وجودهم آنذاك لدى الصنم لترقب أحداث هنالك مؤذنة بالتحول الخطير .

تردى لمولود أضاءت لنـــوره

جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب

وخرت له الأوثان طرا وأرعدت

قلوب ملوك الأرض طرا من الرعب

ونار جميع الفرس باخت وأظلمت

وقد بات شاه الفرس فى أعظم الكرب

وصدت عن الكهان بالغيب جنها

فلا مخبر منهم بحق ولا كذب

فيالقصى ارجعـــوا عن ضلالكم

وهبوا إلى الإسلام والمنزل الرحب[١]

ولقد كان من إرهاصات المولد الشريف أيضا :

ارتجاس[٢] إيوان كسرى أنوشروان[٣] - ملك الفرس - وانشقاقه وسقوط أربع عشرة من شرفاته وخمود نيران فارس ، وغيض بحيرة ساوة .

---

(١) أنظر : الخصائص الكبرى للامام السيوطى ٥٢/١ والسيرة الحلبية ٨٤/١ والسيرة الشامية ٤٢٤/١

(٢) قال المجد فى القاموس « ٢٢٧/٢ » «وارتجس البناء : رجف ، والسماء : أرعدت » .

(٣) ذكر الحلبى إنى سيرته « ٨٥/١ » أن معنى انوشروان : مجدد الملك ، =

فقد أخرج البيهقى — فى الدلائل — وكذا أبو نعيم والخرائطى وابن عساكر وغيرهم عن مخزوم ابن هانىء المخزومى عن أبيه — وقد أتت عليه مائة خمسون سنة — قال :

« لما كانت الليلة التى ولد فيها رسول الله ﷺ : ارتجس إيوان كسرى ، وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس . ولم تخمد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة ، فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فتصبر عليه تشجعا ، فلما عيل صبره : رأى أن لا يستر ذلك عن وزرائه . فلبس تاجه . وقعد على سريره ، وجمعهم إليه ، وأخبرهم بما رأى فبيناهم كذلك : إذ أتاه كتاب بخمود نار فارس ، فازداد غما إلى غمه ، فقال له الموبذان(١) :

وأنا — أصلح الله الملك — رأيت فى هذه الليلة : إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها ! !

فقال : أى شىء يكون هذا يا موبذان ؟ ؟ — وكان الموبذان أعلمهم فى أنفسهم — فقال : —

— حدث يكون من ناحية العرب ، فكتب كسرى — عند ذلك — « من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر :

= ثم عرف بإيوانه قائلا . وكان بناء محكما مبنيا بالحجارة الكبار والجص ، ث لا نعمل فيه الفؤوس ، مكث فى بنائه نيفا وعشرين سنة ، وذكر أن المنصور لما بنى بغداد أحب أن ينقص إيوان كسرى فنهاه خالد بن برمك وقال . هو آية الاسلام ! !

(١) الموبذان — بضم الميم وفتح الباء — هو فقيه الفرس وحاكم المجوس . أنظر القاموس المحيط ٣٧٣/١

أما بعد : فوجه إلى برجل عالم بما أريد أن أسأله عنه » .

فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان الغسانى ، فلما قدم عليه قال له :

ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟

قال : ليخبرنى الملك ، فإن كان عندى منه علم أخبرته ، وإلا دللته على من يعلمه .

فأخبره بما رأى ، فقال : علم ذلك عند خال لى ، يسكن مشارف الشام يقال له سطيح .

قال : فأته ، فاسأله عما سألتك عنه وائتنى بجوابه .

فنهض عبد المسيح حتى قدم على سطيح ، وقد أشفى على الموت فسلم عليه وحياه فلم يحر جوابا فأنشأ عبد المسيح قصيدة فى مطلعها :

أصم أم يسمع غطريف اليمن   أم فاد فازلم به شأو العنن[1]

عبد المسيح على جمل مشيح ، أقبل إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بنى ساسان لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان ، رأى إبلا صعابا تقود خيلا عرابا قد قطعت دجلة وانتشرت فى بلادها .

---

(١) الغطريف . هو السيد الشريف والسخى السرى كما فى القاموس ٣/١٨٧ وفاد بمعنى . مات ، وازلم . ذهب مسرعا ، أو بمعنى قبض ، وشأو العنن . اعتراض الموت على الخلق ، والمعنى . عرض له الموت فقبضه .

يا عبد المسيح : إذا كثرت التلاوة ، وظهر (١) صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة(٢) ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاما يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات ! ! وكل ما هو آت آت .

ثم قضى سطيح مكانه(٣) ، فأتى عبد المسيح إلى كسرى فأخبره بقول سطيح ، فقال : إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا كانت أمور وأمور ، فملك منهم عشرة فى أربع سنين ، وملك الباقون إلى خلافة سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه ،(٤) .

---

(١) فى الوفا لابن الجوزى . وبعث صاحب الهراوة . والهراوة العصا .

(٢) السماوة : موضع بالبادية بين الكوفة والشام ، وليست من العواصم . أنظر القاموس المحيط ٣٤٦/٤

(٣) أى ثم مات سطيح . كما ذكره أبو نعيم فى دلائله ٤٢/١ وقد ذكر الحلبى فى سيرته ٨٨/١ أن سطيحا قد مات عن ثلاثمائة سنة ، وقيل عن سبعمائة سنة ويؤيده ما نقله عن بعضهم من أن سطيحا كان فى زمن نزار بن معد بن عدنان وهو الذى قسم ميراثه بين بنيه — مضر وإخوته — كما ذكر الحلبى أن سطيحا وعبد المسيح وشقا كانوا رؤوس الكهنه وأهل العلم ، وذكر ابن الجوزى فى الوفا ١٠٠/١ أن سطيحا كان لحما على وضم لم يكن فيه عظم ولا عصب إلا الجمجمة والكفين ويطوى من ترقوته إلى رجليه كما يطوى الثوب ، ولم يكن منه شىء يتحرك إلا لسانه ، وكان يحمل على وضمة

(٤) أنظر دلائل النبوة للبيهقى ٦٧/١ — ٧١ ولأبى نعيم ٤١/١ — ٤٢ والوفا لابن الجوزى ٩٧/١ والخصائص الكبرى للامام السيوطى ٥١/١ والسيرة الحلبية ٨٧/١ — ٩٠ والسيرة الشامية ٤٢٨/١ — ٤٣٠

وقد سجل الإمام العارف بالله تعالى شرف الدين البوصيرى رضى الله عنه تلك الآيات والإرهاصات التى ناطت بمولده ﷺ فى بردته المباركة فقال :

أبان مولده عن طيب عنصره ... يا طيب مبتدإ منه ومختتم ..

يوم تفرس فيه الفرس أنهم ... قد أنذروا بحلول البؤس والنقم

وبات إيوان كسرى وهو منصدع ... كشمل أصحاب كسرى غير ملتئم

والنار خامدة الأنفاس من أسف ... عليه والنهر ساهى العين من سدم

وساء ساوة أن غاضت بحيرتها ... ورد واردها بالغيظ حين ظمى

كأن بالنار ما بالماء من بلل .. ... حزنا وبالماء ما بالنار من ضرم

والجن تهتف والأنوار ساطعة ... والحق يظهر من معنى ومن كلم

* * *

الفصل الثالث

فى ذكر فرح جده عبد المطلب به صلى الله عليه وسلم

وتسميته محمدا وأحمد

روى ابن اسحق والواقدى وابن الجوزى وغيرهم عن عمة وهب بن زمعة أنها قالت :

لما ولدت آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ : أرسلت إلى جده عبد المطلب فجاءه البشير وهو جالس فى الحجر معه ولده ورجال من قومه فأخبره أن آمنة ولدت غلاما ، فسر بذلك عبد المطلب وقام هو ومن كان معه ، فدخل عليها فأخبرته بكل ما رأت وما قيل لها ، وما أمرت به أن تسميه[1] .

---

(١) ورد فيما يتعلق بتسميته صلى الله عليه وسلم أثناء حمله بعض الروايات منها ما رواه ابن الجوزى فى الوفا ٨٨/١ — ٨٩ عن عمة وهب بن ربيعة أنها قالت . ولقد قالت آمنة : لقد علقت به فما وجدت مشقة حتى وضعته ، وأمرت أن تسميه أحمد ا ه كذلك يقول ابن هشام فى سيرته (١٠٣/١) :

« ويزعمون — فيما يتحدث الناس والله أعلم — أن آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم : كانت تحدث أنها أتيت حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى . أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ثم سميه محمدا . ا ه

فأخذه عبد المطلب فأدخله الكعبة وقام عندها يدعو الله ويشكر ما أعطاه ـ قال الواقدى ـ فأخبرت أن عبد المطلب قال يومئذ :

الحمـــد لله الذى أعطانى   هـذا الغلام الطيب الأردان

قد ساد فى المهد على الغلمان   أعيذه بالبيت ذى الأركان

حتى أراه بالغ البنيان   أعيذه من شر ذى شنآن

من حاسد مضطرب العيان(١)

وروى البيهقى ـ فى الدلائل ـ عن أبى الحكم التنوخى : أنه لما كان اليوم السابع من ولادة رسول الله ﷺ : ذبح عنه جده ، ودعا له قريشا ، فلما أكلوا قالوا : يا عبد المطلب : أرأيت ابنك هذا الذى كرمتنا على وجهه ، ما سميته ؟ ؟

قال : سميته محمدا ، قالوا : فلم رغبت به عن أسماء أهل بيته ؟ ؟

قال : أردت أن يحمده الله تعالى فى السماء وخلقه فى الأرض(٢) ! !

كذلك روى الحافظ ابن عساكر ـ من عدة طرق ـ عن الإمام ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ أنه قال : ـ ولما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم : عق عنه جده بكبش ، وسماه : محمدا ، فقيل له : يا أبا الحارث : ما حملك على أن تسميه محمدا ولم تسمه باسم آبائه ؟

وفى لفظ : وليس من أسماء آبائك ولا قومك ؟

---

(١) أنظر . طبقات ابن سعد ١٠٣/١ والوفا لابن الجوزى ٩٦/١ ثم دلائل البيهقى ٥١/١ والروض الأنف ١٨٤/١

(٢) أنظر دلائل النبوة للبيهقى ٥٢/١ والسيرة الشامية ٤٣٧/١

فقال : أردت أن يحمده الله فى السماء ويحمده الناس فى الأرض »[١] .

وقد علق الإمام الحلبى على ذلك بقوله : « وهذا هو الموافق لما اشتهر ، أن جده سماه محمدا بإلهام من الله تعالى تفاؤلا بأن يكثر حمد الخلق له لكثرة خصاله الحميدة التى يحمد عليها ولذلك كان أبلغ من محمود ، وإلى ذلك يشير حسان رضى الله عنه بقوله :

فشق له من اسمه ليجله

فذو العرش محمود وهذا محمد[٢]

وهذا الإلهام : لاينافى أن تكون أمه قالت له : إنها أمرت أن تسميه بذلك . وقد حقق الله رجاءة بأنه ﷺ تكاملت فيه الخصال المحمودة والخلال المحبوبة ، فتكاملت له ﷺ المحبة من الخالق والخليقة ، فظهر معنى اسمه على الحقيقة »[٣] ! !

---

(١) أنظر السيرة الحلبية ٩٣/١ والسيرة الشامية ٤٣٧/١ – ٤٣٨

(٢) هذا البيت من قصيدة لسيدنا حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه ، ومطلعها :

أغر عليه للنبوة خاتم من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبى إلى إسمه إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد

ثم بعدهما : البيت المذكور (أنظر ديوان حسان بن ثابت الأنصارى بشرح وتصحيح عبد الرحمن البرقوقى ص : ١٣٤ ط دار الأندلس ببيروت ، وقد نقل الشامى فى سيرته (٥٠٢/١) عن البخارى فى تاريخه الصغير عزوه لأبى طالب .

(٣) أنظر : السيرة الحلبية ٩٣/١ – ٩٤

وقد ذكر أبو القاسم السهيلي — في روايته عن ابن دريد — : أنه لما قيل لعبد المطلب : ما سميت ابنك ؟.

فقال : محمدا ، فقيل له : كيف سميت باسم ليس لأحد من آبائك وقومك ؟ فقال : إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم : قد كان ذلك لرؤيا رآها عبد المطلب — وقد ذكر حديثها على القيرواني العابر في كتاب البستان — قال : كان عبد المطلب قد رأى في منامه : كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره ، لها طرف في السماء وطرف في الأرض ، وطرف في المشرق وطرف في المغرب ثم عادت كأنها شجرة . على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها ، فقصها فعبرت له بمولود يكون من صلبه ، يتبعه أهل المشرق والمغرب ، يحمده أهل السماء والأرض .

فلذلك سماه محمدا ، مع ما حدثته به أمه حين قيل لها : إنك حملت بسيد هذه الأمة فإذا وضعته فسميه محمدا . . »(1) .

ذكر أسمائه ﷺ في الكتاب والسنة :

ذكر الحافظ السيوطي — رضي الله تعالى عنه — في خصائصه الكبرى — نقلا عن بعض العلماء — أن للنبي ﷺ ألف اسم بعضها في القرآن الكريم والحديث الشريف ، وبعضها في الكتب القديمة(2) .

وقد قال أثبات العلماء رضوان الله عليهم أجمعين : إن كثرة الأسماء دالة

---

(1) أنظر : الروض الأنف للسهيلي ١/١٨٢

(2) أنظر : الخصائص الكبرى للحافظ السيوطي ١/٧٧

عظم المسمى ورفعته، وذلك اعتناء به وبشأنه، ومن ثم ترى المسميات فى كلام العرب أكثرها محاولة واعتناء(١).

وقد أبرز الحافظ الشامى وجهة نظر الإمام النووى رضى الله تعالى عنه فى هذه الأسماء المحمدية البالغة الكثرة، فذكر أنه قال: «وغالب هذه الأسماء التى ذكرها إنما هى صفات. كالعاقب والحاشر فإطلاق الاسم عليها مجاز».

ثم عقب الإمام الشامى عليه قائلا: —

«كثيرا ما يطلق الاسم على الصفة، لاشتراكهما فى تعريف الذات وتمييزها عن غيرها وذلك من باب التغليب»(٢)،

وعزز ذلك بقول ابن القيم: «أسماؤه صلى الله عليه وسلم إذا كانت أوصاف مدح فله من كل وصف اسم، لكن: ينبغى أن يفرق بين الوصف المختص به أو الغالب عليه ويشتق له منه اسم؛ وبين الوصف المشترك فلا يكن له فيه اسم يخصه»(٣).

هذا: وقد عقد علماء السنة النبوية أبوابا وفصولا فى مصنفاتهم(٤).

---

(١) أنظر: سبل الهدى والرشاد للامام الشامى ٤٩٢/١

(٢)، (٣) نفس المصدر.

(٤) من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر. الإمام البيهقى فى دلائله ٩٢/١ وأبو نعيم فى دلائله أيضا ١٢/١ والحافظ السيوطى فى الخصائص الكبرى ٧٧/١ والإمام الشامى فى سيرته ٤٨٨/١ وغيرهم.

فى السيرة الشريفة والشمائل المنيفة لذكر أسمائه صلى الله عليه وسلم وتناولها بالاستقصاء لها تارة وبفقه مدلولاتها المتعلقة بأوصافه وشمائله صلى الله عليه وسلم تارة أخرى : —

فالإمام البيهقى يورد العديد من أسمائه صلوات الله وسلامه عليه مستخرجا لها من القرآن الكريم والحديث الشريف ، فمما ورد به التنزيل من أسمائه ﷺ : —

« محمد » : حيث قال تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم »(١) .

« أحمد » : حيث قال سبحانه « . . ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »(٢) .

« عبد الله » : إذ قال جل شأنه : « وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا »(٣) .

« طه » : قال تعالى شأنه : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى »(٤) .

وقد وجه لذلك بقوله : والقرآن إنما نزل على رسول الله ﷺ دون غيره .

---

(١) سورة الفتح /٢٩ وأنظر الدلائل للبيهقى ٩٢/١

(٢) سورة الصف /٦ وأنظر الدلائل للبيهقى ٩٢/١

(٣) سورة الجن /١٩ وأنظر الدلائل للبيهقى ١٠٣/١

(٤) سوره طه / ١ — ٢ وأنظر الدلائل للبيهقى ١٠٣/١

« يس » قال تبارك اسمه « يس والقرآن الحكيم »(١) .

قال — فى الدلائل — يعنى : يا إنسان ، والإنسان ههنا : العاقل ، وهو محمد ﷺ : « إنك لمن المرسلين »(٢) .

كما روى البيهقى بسنده عن الإمام محمد بن الحنفية رضى الله عنه أنه قال : « يس » قال : محمد ﷺ(٣) .

« رءوف » و « رحيم » وهما فى قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »(٤) .

ومن أسمائه ﷺ التى وردت فى القرآن الكريم وذكرها غير البيهقى من الأثبات :

« رسول الله » و « خاتم النبيين » : وهما فى قوله تعالى : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما »(٥) .

ومنها : « النبى » و « الشاهد » و « المبشر » و « النذير » و « الداعى إلى الله » و « السراج المنير » وهى فى قوله تعالى : « يا أيها النبى إنا

---

(١) سورة يس /١ — ٢ وأنظر الدلائل للبيهقى ١٠٣/١

(٢) سورة يس /٣

(٣) أنظر دلائل النبوة للبيهقى ١٠١/١

(٤) سورة التوبة /١٢٨ والمصدر السابق ٩٥/١ والسيرة الشامية ٥٧٤/١

(٥) سورة الأحزاب /٤٠ . وانظر سبل الهدى والرشاد ٤٧٤/١ ، ٥٥٩

أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا »(١).

ومنها : « المزمل » قال تعالى : « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا »(٢) .

ومنها . « المدثر » قال عز شأنه : « يا أيها المدثر قم فأنذر »(٣) .

ومنها : « رحمة العالمين» قال تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »(٤) .

ومنها : « نور » وهو فى قوله جل شأنه : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين »(٥) .

هذا بعض ما أورده العلماء من أسمائه ﷺ فى لقرآن الكريم ، وقد بلغ بها صاحب (الشفاء) نحو ثلاثين إسما » .

وأما السنة النبوية الشريفة فقد حفلت بالقسط الأوفر من أسمائه المباركة صلى الله عليه وسلم . وحسبنا أن نأتى بطرف منها مستشرفين أنواره الوضاءة :

فمن ذلك ما أخرجه الشيخان عن جبير بن مطعم رضى الله تعالى عنه

---

(١) سورة الأحزاب / ٤٥ — ٤٦ والمصدر السابق الجزء الأول ص ٦٥٤؛ ٥٨٦ ؛ ٦٢٣ ، ٦٥٦ ٥٦٥ ، ٥٧٩

(٢) سورة المزمل / ١ — ٢ والمصدر السابق ٦٣٣/١

(٣) سورة المدثر / ١ — ٢ والمصدر السابق ١ / ٦٣٠

(٤) سورة الأنبياء /١٠٧ والمصدر السابق ٥٧٣/١

(٥) سورة المائدة /١٥ والمصدر السابق ٦٥٧/١

أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن لى أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب »(١) .

ومن ذلك : ما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أنه قال . « كان رسول الله عليه وسلم يسمى لنا نفسه أسماء ، فقال: أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبى التوبة ونبى الرحمة »(٢) .

كذلك روى أبو نعيم ، فى الدلائل - وابن مردويه - فى التفسير - والديلمى - فى مسند الفردوس عن أبى الطفيل أنه قال . قال رسول الله ﷺ . « لى عشرة أسماء عند ربى . أنا محمد وأحمد والفاتح والخاتم وأبو القاسم والحاشر والعاقب والماحى ويس وطه »(٣) .

ومن الملاحظ فى جل الأحاديث والروايات الواردة بأسمائه ﷺ

---

(١) أنظر صحيح البخارى : كتاب تفسير القرآن : سورة الصف ٣/١٣٥ ط حجازى ، وأنظر : صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى : كتاب الفضائل ١٨٢٨/٤ ط الحلبى وقد زاد فى آخره من قول الزهرى « الذى ليس بعده أحد ، وقد سماه الله رءوفا رحيما » .

(٢) نفس المصدر الأخير فى الموضع ذاته . وأنظر : الفتح الربانى ١٨٨/٢٠

(٣) أنظر : دلائل النبوة للحافظ أبى نعيم ١٢/١ والتخريج عن الآخرين فى الخصائص الكبرى للحافظ السيوطى ٧٧/١ — ٧٨ وأنظر الشفا للقاضى عياض بتحقيق على البجاوى ٢١٦/١ ط الحلبى .

أنها مصدرة باسمه (محمد) صلى الله عليه وسلم ، ولهذا الاسم الشريف خصوصيات جمة يعرفها الراسخون فى العلم .

وقد نقل الحافظ ابن الجوزى من ذلك عن ابن قتيبة دلالة هذا الاسم المبارك على نبوته صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم إذ قال .

« قال ابن قتيبة : ومن أعلام نبوته ﷺ أنه لم يسم أحد قبله باسمه(١)، صيانة من الله لهذا الاسم ، كما فعل بيحيى بن زكريا، إذ لم يجعل له من قبل سميا(٢)، وذلك أنه سماه فى الكتب المتقدمة ، وبشرت به الأنبياء ، فلو جعل الاسم مشتركا فيه : شاعت الدعوى، ووقعت الشبهة ، إلا أنه لما قرب زمنه،وبشر أهل الكتاب بقربه : حضر أربعة أنفس عند راهب وأخبرهم باسمه وقرب زمنه ، فسموا أولادهم بذلك(٣) ولا يعرف غيرهم »(٤)

---

(١) أى : (محمد) ﷺ

(٢) فى ذلك إشارة إلى مشاركته ﷺ الأنبياء فى خصائصهم وسموه عنهم بخصائصه ﷺ .

(٣) اختلف فى عدد من سموا بمحمد لسماع آبائهم بذكره وبقرب زمانه ﷺ ، فالسهيلى ينقل فى الروض (١/١٨٢) عن ابن فورك أنهم ثلاثة هم : محمد ابن سفيان بن مجاشع ومحمد بن أحيحة ابن الجلاح ومحمد بن حمران بن ربيعة ، ورفعهم القاضى عياض إلى ستة أسماء فى الشفاء : (١ / ٣١٤) ط الحلبى واختلاف العدد لا ينافى أن المسمى باسمه صلى الله عليه وسلم — فى نفس زمانه — مع عدم ادعاء النبوة من أى سمى منهم أوله من أعلام نبوته ﷺ .

(٤) أنظر : الوفا بأحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم لابن الجوزى ١/١٠٤-١٠٥ .

ويتناول صاحب « الشفا » هذه الخصوصية فى اسميه ﷺ « أحمد » و « محمد » فيقول : « ثم فى هذين الاسمين من عجائب خصائصه وبدائع آياته فن آخر ، وهو أن الله — جل اسمه — حمى أن يسمى بهما أحد قبل زمانه ، أما (أحمد) الذى أتى فى الكتب وبشرت به الأنبياء : فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى به أحد غيره ، ولا يدعى به مدعو قبله حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب أو شك . وكذلك (محمد) أيضاً : لم يسم به أحد من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبل وجوده ﷺ وميلاده أن نبياً يبعث . أسمه محمد فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك ، رجاء أن يكون أحدهم هو ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته » (١).

ولقد بلغت عناية علماء الإسلام مداها فى استقصاء أسمائه صلى الله عليه وسلم وشرحها كما شملت هـذه العناية استقصاء شمائله وشتى جوانب سيرته الزكية ، فألفينا مثلا الحافظ الجليل الإمام السيوطى — عليه الرضوان — يقول فى خصائصه الكبرى : « وقد ألفت كتابا فى شرح أسمائه الكريمة ، أوردت فيه ثلاثمائة وأربعين اسما مأخوذة من القرآن والأحاديث والكتب القـديمة (٢) .

---

(١) أنظر : الشفا للقاضى عياض بتحقيق على محمد البجاوى ٣١٣/١ .

(٢) أنظر : الخصائص الكبرى ٧٨/١ .

وأما كنيته(١) صلى الله عليه وسلم :

فقد كان يكنى أبا القاسم ، وكان أكبر أولاده صلى الله عليه وسلم واختلف : هل مات قبل البعثة أو بعدها ، وقد ولد إبراهيم فى المدينة من مارية ، وكان يكنى به أيضا .

وقد روى الإمام البخارى فى صحيحه عن سيدنا أنس - رضى الله تعالى عنه - أنه قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم فى السوق . فقال رجل : يا أبا القاسم ، فالتفت النبى صلى الله عليه وسلم فقال : سموا باسمى ولا تكتنوا بكنيتى »(٢) .

كما أخرج البخارى — فى الأدب المفرد — والترمذى والحاكم عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الكنية : ما صدرت بأب أو أم ، وهى مأخوذة من الكناية ، فتقول : كنيت عن الأمر بكذا : إذا ذكرته بغير ما يستدل به عليه صريحا ، وقد اشتهرت الكنى للعرب حتى أنها ربما غلبت على الأسماء كأبى طالب وأبى لهب وغيرهما ، وقد يكون للواحد أكثر من كنية ، وقد يشتهر باسمه وكنيته معا (أنظر فتح البارى ٦/٤٣٧) .

(٢) أنظر : صحيح البخارى : كتاب المناقب : باب كنية النبى صلى الله عليه وسلم ٢/١٧٩ ط حجازى .

وسلم : « لا تجمعوا اسمى وكنيتى : أنا أبو القاسم . الله يرزق وأنا أقسم »(١) !!

كذلك أخرج الحاكم والبيهقى عن سيدنا أنس بن مالك - رضى الله عنه - أنه لما ولد إبراهيم بن النبى صلى الله عليه وسلم من مارية جاريته ، كان يقع فى نفس النبى صلى الله عليه وسلم منه حتى أتاه جبريل عليه السلام فقال : السلام عليك أبا إبراهيم »(٢) .

* * *

(١) أنظر : الأدب المفرد / ٢١٩ وسنن الترمذى : كتاب الأدب ١٣٧/٢ والمستدرك ٦٠٤/٢ ودلائل النبوة للبيهقى ١٠٦/١ والتخريج بحاشيته .

(٢) أنظر : دلائل النبوة للبيهقى ١٠٦/١ - ١٠٧ والوفا لابن الجوزى ١٠٥/١ .

الفصل الرابع

فى ذكر رضاعه صلى الله عليه وسلم وما جرى

خلاله من الآيات ومايتصل به من شق صدره الشريف

كان أول من أرضع النبي الحبيب صلى الله عليه وسلم — بعد أمه السيدة آمنة رضى الله تعالى عنها - هى السيدة ثويبة رضى الله عنها .

فقد روى ابن سعد - فى طبقاته - عن برة بنت أبى تجراة ، أنها قالت : أول من أرضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثويبة(١) بلبن ابن لها ، يقال له مسروح ، أياما قبل أن تقدم حليمة . وكانت قد أرضعت قبله : حمزة بن عبد المطلب ، وأرضعت بعده : أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى »(٢) .

وقد كانت السيدة (ثويبة) مولاة لأبى لهب عم الرسول صلى الله عليه وسلم فأعتقها حين بشرته بمولد النبى صلى الله عليه وسلم - على أشهر الأقوال وأصحها - حيث قالت لأبى لهب : أشعرت أن آمنة قد ولدت غلاما

---

(١) المراد بالاولية هنا : الاولية النسبية — أى بالنسبة لغير أمه رضى الله تعالى عنها من المراضع وليست الأولية المطلقة كما حققه الإمام الحلبى فى سيرته (١ / ١٠٠ — ١٠٤) ط التجارية .

(٢) أنظر . الطبقات الكبرى لابن سعد ١٠٨/١

لأخيك عبد الله ؟ ؟ فقال لها : اذهبى فأنت حرة(١) !!

ويؤكد ذلك : ما رواه الإمام البخارى فى صحيحه وابن سعد ـ فى طبقاته ـ عن عروة بن الزبير رضى الله عنه : أن ثويبة كان أبو لهب أعتقها ، فأرضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مات أبو لهب رآه بعض أهله(٢) فى النوم بشر حيبة(٣) .

فقال : ماذا لقيت ؟ قال أبو لهب : لم نلق بعدكم رخاء غير أنى سقيت فى هذه بعتاقى ثويبة ـــ وأشار إلى النقيرة التى بين الابهام والتى تليها من الأصابع »(٤) !!

مشروعية الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم :

لقد ساق الإمام القسطلانى تعليقا رائعا على ما روى آنفا من عتق ثويبة فرحا بمولده صلى الله عليه وسلم ، للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن الجزرى إمام القراءات إذ قال : ـــ

---

(١) أنظر : شرح الزرقانى عن المواهب ١٣٨/١ وقد نقله عن السهيلى فى الروض كما ذكره .

(٢) الرائى هو سيدنا العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه كما نقله الزرقانى عن السهيلى . أنظر المرجع السابق .

(٣) الحيبة ـــ بكسر الحاء ـــ تطلق على الحالة كما فى القاموس (٦٠/١) بيد أن الحلبى قد ضبطها فى سيرته (١٠١/١) بالخاء ، وهو سوء الحالة .

(٤) أنظر صحيح البخارى : كتاب النكاح ١٦٢/٣ ط حجازى وطبقات ابن سعد ١٠٨/١ وانظر : شرح الزرقانى على المواهب ١٣٨/١

قال ابن الجزرى : فإذا كان هذا الكافر الذى نزل القرآن بذمه جوزى فى النار بفرحه ليلة مولد النبي صلى الله عليه وسلم به ، فما حال المسلم الموحد من أمته عليه السلام يسر بمولده ويبذل ما تصل إليه قدرته فى محبته صلى الله عليه وسلم ؟ لعمرى إنما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضله العميم جنات النعيم (١) .

وقد نظم حافظ الشام شمس الدين محمد بن ناصر فى هذا المعنى شعرا رائعا إذ قال : —

إذا كان هــذا كافرا جاء ذمــه
وتبت يداه فى الجحيم مخــلدا
أتى أنه فى يوم الاثنــين دائما
يخفف عنه للسرور بأحــمدا
فما الظن بالعبــد الذى كان عمره
بأحمد مسرورا ومات موحدا (٢)

ومن ثم يعلم :

مشروعية الاحتفال بمولد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : والابتهاج به والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات شكرا له جل جلاله على

---

(١) أنظر شرح المواهب (١٣٨/١ — ١٣٩) حيث عاق على هذا النص بقوله : « وهو استفهام تفخيم ، أى لحاله بذلك أمر عظيم » ثم ساق شعر الحافظ ابن ناصر المثبت أعلاه .

(٢) المصدر السابق .

هذه النعمة العظمى ، على أن يكون ذلك فى الإطار الشرعى الذى لا يتعداه إلى اللهو والبعد عن مرضاة الله تعالى .

ومما ساقه الإمام القسطلانى من كلام الحافظ ابن الجزرى فى الاحتفال بالمولد الشريف وذكر بعض خواصه : « ولازال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه الصلاة والسلام ويعملون الولائم ويتصدقون فى لياليه بأنواع الصدقات ويظهرون السرور ويزيدون فى المبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم .

ومما جرب من خواصه : أنه أمان فى ذلك العام وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام »(١) .

ثم عقب الشهاب القسطلانى — عليه رضوان الله — بقوله : —

« فرحم الله امرأ اتخذ ليالى شهر مولده المبارك أعيادا ليكون أشد علة على من فى قلبه مرض وأعيادا(٢) » .

ولقد أطنب ابن الحاج — فى المدخل — فى الإنكار على ما أحدثه الناس من البدع والأهواء والغناء بالآلات المحرمة عند عمل المولد

---

(١) أنظر شرح الزرقانى على المواهب ١٣٩/١ والنص فيه منقول عن مصنف الإمام ابن الجزرى المسمى « عرف التعريف بالمولد الشريف » وقد عرف به صاحب كشف الظنون ١١٣٢/٢

(٢) أصله : وأعياداء ، لكنه قصره للسجع . وهو معطوف على قوله (أشد علة) .

الشريف ، فالله تعالى يثيبه على قصده الجميل فإنه حسبنا ونعم الوكيل»(١) .

ثم لقد نقل الإمام الشامى عن شيخه حافظ الإسلام جلال الدين السيوطى عليه من الله الرضوان أنه قال فى حكم الاحتفال بالمولد الشريف — فى شرحه على سنن ابن ماجه — « الصواب أنه من البدع الحسنة المندوبة إذا خلا عن المنكرات شرعا »(٢) .

هذا : وقد ذكر الإمام الحلبى أن الحافظ ابن منده قد قال بإسلام ثويبة رضى الله عنها ، وهو مختلف فيه عند غيره ، وقد نقل شارح المواهب عن الذهبى قوله « يقال إنها أسلمت » كما نقل عن الحافظ ابن حجر قوله : « فى طبقات ابن سعد ما يدل على أنها لم تسلم لكن لا يدفع به نقل ابن منده »(٣) .

ثم نقل شارح المواهب عن الإمام القاضى أبى بكر بن العربى أنه قال فى « سراج المريدين » : — « إنه لم ترضعه مرضعة إلا أسلمت » !!

ونفس العبارة المضيئة نقلها الحلبى عن الإمام السيوطى من خصائصه الصغرى(٤) .

وهو ما يستريح إليه القلب حقا وتمليه الفطرة النورانية ، إذ كيف

---

(١) أنظر المواهب اللدنية ١/٢٧ ط الشرفيه وشرح العلامة الزرقانى على المواهب ١/١٣٩

(٢) أنظر : سبل الهدى والرشاد ١/٤٤٥

(٣) أنظر أولا : إنسان العيون للحلبى ١/١٠٤ ثم شرح الزرقانى على المواهب ١ / ١٣٧

(٤) أنظر نفس المصدرين السابقين .

يساغ أن يمتزج بدمه الشريف لبن من غير مسلم ؟ لا ريب فى منافاته لما اختصه الله تعالى به من عظيم التكريم والتشريف .

رضاعه من السيدة حليمة :

ثم كانت مرضعته صلى الله عليه وسلم - بعد السيدة ثويبة - هى السيدة حليمة السعدية رضى الله تعالى عنها[1] .

روى البيهقى بسنده عن ابن اسحق أنه قال : « فدفع رسول الله ﷺ إلى أمه والتمس له الرضعاء ، واسترضع[2] له من حليمة بنت أبى ذؤيب »[3] .

وقد نص ابن اسحق — فى روايتى ابن هشام والبيهقى عنه — على إخوته صلى الله عليه وسلم فى الرضاع من السيدة حليمة فقال : « وإخوته من الرضاعة : عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وحذافة بنت

---

(١) عقد ابن الجوزى فى الوفا (١٠٧/١) الباب الثامن والعشرين : (فى ذكر حليمة وهى التى أرضعته بعد ثويبة) .

(٢) ضمير الفاعل فى الأفعال الثلاثة يعود إلى عبد المطلب كما يوضحه السياق فى سيرة ابن هشام ١٠٤/١

(٣) أنظر دلائل النبوة ٧٣/١ وعبارة ابن اسحق فى سيرة ابن هشام هى : فاسترضع له امرأة من بنى سعيد بن بكر يقال لها : حليمة ابنة ذؤيب ، وساق كل من ابن هشام والبيهقى نسب أبى ذؤيب إلى قيس بن عيلان بن مضر ، كما ساقا نسب أبيه صلى الله عليه وسلم من الرضاع وهو زوج السيدة حليمة : الحارث بن عبد العزى بن رفاعة . . . إلى سعد بن بكر بن هوازن .

الحارث – وهى الشيماء ، غلب ذلك على اسمها فلا تعرف إلا به — وهم :
لحليمة بنت أبى ذؤيب عبدالله بن الحارث أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ
ويذكرون أن الشيماء كانت تحضنه مع أمها إذا كان عندهم »[1] .

وقد أضاف الشامى حفصا و أمية إبنا الحارث[2] .

سياق قصة الرضاع من السيدة حليمة وماوقع فيها من الآيات :

أثبت الأئمة الأثبات ـ فى هذا الباب ـ حديثا حافلا عن السيدة حليمة رضى الله عنها .

رواه كل من الأئمة : ابن اسحق ، وابن راهوية وأبى يعلى والطبرانى وابن حبان وأبى نعيم والبيهقى[3] .

عن سيدنا عبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنهما أنه قال : —

---

(١) أنظر : سيرة ابن هشام ١٠٥/١ بتحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ـ ودلائل النبوة للبيهقى ٧٣/١ - ٧٤

(٢) نص الشامى فى سيرته (٤٦٣/١) على عبد الله بن الحارث وحفص وأمية دون أنيسة — ولعلها هى . وهؤلاء أخوته صلى الله عليه وسلم فى الرضاع من السيدة حليمة وقد سبق إخوته من السيدة ثويبة رضى الله عنهم .

(٣) رواية البيهقى — وهى التى نسوقها — عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وثمة رواية أخرى له ولابن عساكر عن الإمام ابن عباس — رضى الله عنهما — كما رواه أبو يعلى وأبو نعيم عن شداد بن أوس وبقية التخريجات فى السيرة الشامية ٤٧٠/١

حدثت عن حليمة بنت الحارث - أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أرضعته - أنها قالت :

قدمت مكة فى نسوة من بنى سعد بن بكر ألتمس بها الرضعاء ، وفى سنة شهباء (أى : مجدبة) فقدمت على أتان لى قمراء (أى يخالط بياضها كدرة) كانت أذمت (أى تأخرت) بالركب ، ومعى صبى لنا ، وشارف لنا (أى ناقة مسنة) والله ما تبض بقطرة (أى : ما تدر قطرة لبن) وما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك ، ما يجد فى ثديى ما يغنيه ، ولا فى شارفنا ما يغذيه ، فقدمنا مكة ، فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه : إذ قيل إنه يتيم تركناه ، قلنا : ماعسى أن تصنع إلينا أمه ؟؟ إنما نرجو المعروف من أب الوليد .

وأما أمه : فماذا عسى أن تصنع إلينا ؟؟ فوالله ما بقى من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعا ، غيرى ! فلما لم أجد رضيعا غيره :

قلت لزوجى الحارث بن عبد العزى : والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع ، لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه ، فقال : لا عليك .

فذهبت فأخذته ، فوالله ما أخذته إلا أنى لم أجد غيره ، فما هو إلا أن أخذته(١) .

---

(١) أضاف صاحب : (مختصر بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى ٢٠/ ١٩٣) ههنا من بعض الروايات المخرجة عن المصادر المذكورة آنفا : أنها قالت : « فذهبت فإذا به مدرج فى ثوب صوف أبيض من اللبن . يفوح منه المسك ، وتحته حريرة خضراء ، راقدا على قفاه يغط . فأشفقت أن أوقظه لحسنه وجماله ،=

فجئت به إلى رحلى ، فأقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى ، وشرب أخوه حتى روى (١) ! !

وقام صاحبى إلى شارفنا تلك ، فإنها إذا لحافل (أى ممتلئة الضرع من اللبن) فحلب ما شرب وشربت حتى روينا فبتنا بخير ليلة ! !

فقال صاحبى : يا حليمة ، والله إنى لأراك وقد أخذت نسمة مباركة ، ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه ؟ فلم يزل الله عز وجل يزيدنا خيرا حتى خرجنا (٢) .

راجعين إلى بلادنا ، فوالله لقطعت أتانى بالركب حتى ما يتعلق بها حمار ، حتى إن صواحباتى يقلن : ويلك يا ابنة أبى ذؤيب ، أهذه أتانك التى خرجت عليها معنا ؟ فأقول : نعم ، والله إنها لهى ، فيقلن : والله إن لها لشأنا ، حتى قدمنا أرض بنى سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله تعالى

= فدنوت منه رويدا ، فوضعت يدى على صدره فتبسم ضاحكا ، ففتح عينيه ينظر إلى ، فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر ! فقبلته بين عينيه وأعطيته ثديى الأيمن فأقبل عليه بما شاء من لبن ، فحولته إلى الأيسر فأبى ! ! وكانت تلك حاله بعد ! ! » .

(١) أضاف ابن هشام فى روايته (بسيرته ١/١٠٦) ههنا لقول السيدة حليمة : فناما وما كنا ننام معه قبل ذلك ، وهى آية أخرى .

(٢) أضاف الشيخ الساعاتى ههنا فى (مختصر بلوغ الأمانى ٣٠/١٩٣) من بعض الروايات : « قالت حليمة : فودعت أم النبى صلى الله عليه وسلم ثم ركبت أتانى وأخذته بين يدى فسبقت دواب الناس الذين كانوا معى . . . » .

أجدب منها ، فإن كانت غنمى لتسرح ، ثم تروح شباعا لبنا[١] ، فنحلب ما شئنا ! !

وما حولنا أحد تبض (أى : ما تدر) له شاة بقطرة لبن ! !

وإن أغنامهم لتروح جياعا حتى إنهم ليقولون لرعيانهم : ويحكم ! !

أنظروا حيث تسرح غنم ابنة أبى ذؤيب ، فاسرحوا معهم ، فيسرحون مع غنمى حيث تسرح ، فيريحون أغنامهم جياعا ما فيها قطرة لبن ، وتروح غنمى شباعا لبنا نحلب ما شئنا[٢] ! !

فلم يزل الله تعالى يرينا البركة ونتعرفها حتى بلغ سنتيه[٣] . فكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان[٤] .

---

(١) ضبط (لبنا) بضم اللام وفتح الباء المشددة ، أى ذوات لبن .

(٢) أضاف الإمام الشامى فى سيرته (٤٧٢/١) بعد هذه الفقرة ما نصه : « قالت : ولما دخلت به إلى منزلى لم يبق منزل من منازل بنى سعد إلا شممنا منه ريح المسك ، وألقيت محبته صلى الله عليه وسلم فى قلوب الناس حتى إن أحدكم كان إذا نزل به أذى فى جسده أخذ كفه صلى الله عليه وسلم فيضعها على موضع الأذى فيبرأ بإذن الله تعالى سريعا ، وكذلك : إذا اعتل لهم بعير أو شاة فعلوا ذلك » اهـ

(٣) العبارة فى سيرة ابن هشام (١٠٦/١) . حتى مضت سنتاه وفصلته » .

(٤) فى رواية الوفا لابن الجوزى (١٠٩/١) « قالت : وكان يشب فى اليوم شباب الصبى فى الشهر ويشب فى الشهر شباب الصبى فى السنة » .

فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاما جفرا(١) ! ! .

فقدمنا به على أمه ونحن أضن شيء به مما رأينا فيه من البركة ، فلما رأته أمه قلنا لها : يا ظئر(٢) : دعينا نرجع ببنينا هذه السنة الأخرى فإنا نخشى عليه وباء مكة ، فوالله ما زلنا بها حتى قالت : فنعم . فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة . . . »

شق صدره الشريف صلى الله عليه وسلم

للمرة الأولى

قال الله تعالى فى القرآن العظيم « ألم نشرح لك صدرك » ؟ ؟

وقد فسر شرح الصدر الشريف فى السورة الكريمة بشقه واستخراج قلبه وغسله ونحو ذلك .

قال الإمام الفخر فى تفسيره : « وفى شرح الصدر قولان :

الأول : ما روى أن جبريل عليه السلام أتاه وشق صدره وأخرج قلبه ، وغسله وأنقاه من المعاصى ثم ملأه علما وإيمانا ووضعه فى صدره »(٣) .

---

(١) من قولهم . جفر الصبي واستجفر . إذا انتفخ لحمه وأكل ،
أنظر القاموس المحيط ٤٠٦/١ ط الحلبى .

(٢) الظئر هى العاطفة على ولد غيرها المرضعة له فى الناس وغيرهم (القاموس المحيط ٨٣/١) وفى هذا التعبير دلالة على شدة تعلق السيدة حليمة به صلى الله عليه وسلم حتى اعتبرت أمه ظئرا له ! !

(٣) أنظر . مفاتيح الغيب ٢/٣٢ ط دار الفكر ببيروت .

والمراد بتنقية القلب من المعاصى : تنقيته من محلها لأنه لا معاصى ثم - وكذلك نجد الحافظ البيهقى يورد — فى الدلائل - فاتحة سورة الشرح فى أول باب : ما جاء فى شق صدر النبى صلى الله عليه وسلم : واستخراج حظ الشيطان من قلبه ، ثم يورد حديث شق الصدر الشريف تفسيرا لها ، وهو الحديث الذى أخرجه مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه : -

« أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل صلى الله عليه وسلم وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده . فى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى ظئره(١).

فقالوا : إن محمدا قد قتل : فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، قال أنس : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره »(٢).

---

(١) فسر الإمام النووى — رضى الله عنه — (ظئره) فى الحديث بأنه المرضعة ، وهذا دليل على أن هذه الواقعة قد حدثت إبان وجوده عند السيدة حليمة فى بنى سعد ، وهى المرة الأولى التى شق فيها صدره الشريف ، حيث نقل الشامى عن الواقدى عن الإمام ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . أنه صلى الله عليه وسلم رجع إلى أمه وهو ابن خمس سنين (سبل الهدى ١/٤٧٧) .

(٢) أنظر صحيح مسلم بشرح للنووى . كتاب الإيمان . باب الإسراء ٢/ ٢١٦ — ٢١٧

كذلك روى البيهقى عن إبراهيم بن طهمان أنه قال : سألت سعدا عن قوله : « ألم نشرح لك صدرك » قال : فحدثنى عن قتادة عن أنس ابن مالك :

« أنه قد شق بطنه - يعنى النبى صلى الله عليه وسلم - من عند صدره إلى صدره إلى أسفل بطنه فاستخرج منه قلبه ، فغسل فى طست من ذهب . ثم ملىء إيمانا وحكمة ثم أعيد مكانه »(١) .

ومن الروايات الموثقة التى تفصل لنا حادث شق الصدر الشريف للمرة الأولى - بعد فصاله ولدى وجوده صلى الله عليه وسلم عند السيدة حليمة رضى الله تعالى عنها فى بنى سعد : مارواه الإمام أحمد - فى مسنده - والحاكم - فى مستدركه وغيرهما : عن عتبة بن عبد السلمى : أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟ ؟

قال : كانت حاضنتى من بنى سعد بن كعب ، فانطلقت أنا وابن لها فى بهم(٢) لنا ولم نأخذ معنا زادا ، فقلت يا أخى ، اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا ، فانطلق أخى ومكثت عند البهم فأقبل طيران أبيضان كأنهما

---

(١) أنظر . دلائل النبوة للبيهقى بتحقيق السيد صقر ٣٥١/١ — ٣٥٢ والدر المنثور ٢٦٣/٦

(٢) البهم — بفتح الباء وسكون الهاء — جمع بهمة ، وهى ولد الضأن الذكر والأنثى ، والمراد : أنه صلى الله عليه وسلم كان يرعى الغنم مع أخيه من الرضاع .

نسران(١) ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ ؟

قال : نعم . فأقبلا يبتدرانى فأخذانى فبطحانى إلى القفا . فشقا بطنى ، ثم استخرجا قلبى ، فشقاه ، فأخرجا منه علقتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه : ائتنى بماء ثلج فغسلا به جوفى ، ثم قال : ائتنى بماء برد(٢) . فغسلا به قلبى ، ثم قال : ائتنى بالسكينة(٣) فذراها فى قلبى ، ثم قال أحدهما لصاحبه : حصه(٤) : فحاصه ، وختم عليه بخاتم النبوة ! !

— وقال حيوة فى حديثه — : حصه ، فحصه ، واختم عليه بخاتم النبوة ، فقال أحدهما لصاحبه : اجعله فى كفة واجعل ألفا من أمته فى كفة ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقى أشفق أن يخر على بعضهم(٥) ! ! فقال : لو أن أمته وزنت به لمال بهم ! !

---

(١) هذا وصف لصورة الملكين الذين جاء لشق الصدر الشريف .

(٢) البرد — بفتح الباء والراء — . هو ما ينزل من السماء كالملح ثم يذوب . وقد قال صاحب القاموس المحيط (٢٨٦/١) هو حب الغمام . وأما الثلج فهو ماء ينزل من السماء وينعقد على الأرض .

(٣) تطلق السكينة على الطمأنينة والسكون عن الميل إلى الشهوات . كما تطلق على العقل (المفردات /٢٣٧) .

(٤) حصه : فعل أمر من الحوص وهو الخياطة ، والمعنى خطه (أنظر . القاموس المحيط ٣١٠/٢) .

(٥) ساق الشيخ الساعاتى ههنا تعليق شيخ الاسلام برهان الدين بن أبى شريف إذ قال ، « هذا الحديث يقتضى ، أن المعانى جعلها الله ذواتا ، فعند ذلك قال الملك لصاحبه ، اجعله فى كفة واجعل ألفا من أمته فى كفة فرجح ماله صلى الله =

ثم انطلقا وتركانى ، وفرقت فرقا شديدا . ثم انطلقت إلى أمى (أى أمة من الرضاع) فأخبرتها بالذى لقيته . فأشفقت على أن يكون ألبس بى (أى حدث مس من الشيطان) . قالت . « أعوذك بالله » ! ! فرحلت بعيرا لها فجعلتنى - وقال يزيد : فحملتنى - على الرحل ، وركبت خلفى . حتى بلغنا إلى أمى ، فقالت : أو أديت أمانتى وذمتى ؟ ؟ وحدثتها بالذى لقيت فلم يرعها ذلك . فقالت : إنى رأيت خرج منى نور أضاءت منه قصور الشام »(١) ! !

وجاء فى رواية — رجالها ثقات عند الطبرانى وأبى يعلى : أن أمه ﷺ قالت لهما(٢) .

« فتخوفتما عليه ؟؟ كلا والله ، إن لابنى هذا لشأنا ، ألا أخبركما عنه ؟ إنى حملت به فلم أر حملا قط كان أخف . ولا أعظم بركة منه ، ثم رأيت نورا كأنه شهاب خرج منى حين وضعته أضاءت لى أعناق الإبل ببصرى ، ثم وضعته فما وقع كما تقع الصبيان ، وقع واضعا يده بالأرض رافعا رأسه إلى السماء ، دعاه والحقا بشأنكما »(٣) .

= عليه وسلم رجحانا طاش منه ما للآلاف بحيث يخيل إليه أنه سقط بعضهم .. » الخ
أنظر مختصر بلوغ الأمانى ٢٠/١٩١-١٩٢

(١) أنظر المسند للإمام أحمد ١٨٤/٤ والمستدرك للحاكم ٦١٦/٢ ودلائل النبوة للبيهقى ٣٥٣/١

(٢) أى قالت للسيدة حليمة وزوجها حين قدما به صلى الله عليه وسلم إليها كما يوضحه السياق فى سيرة ابن هشام ١٠٧/١

(٣) أنظر مختصر بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى للشيخ أحمد البنا الساعاتى ١٩٢/٢٠

لقد أرادت السيدة حليمة وزوجها أن يؤديا الأمانة إلى أهلها رغم شدة حرصهما على استبقاء هذا النور الإلهى معهما حيث البركة والنماء والخير العميم يحوطه أينما حل، ولكنه تخوف الأحداث عليه، ولم يكن فقط حدث شق الصدر الشريف بما حفل به من باهر الآيات، بل والخوف أيضا من الكهان الذين أفزعهم مرآه ﷺ وآذن باضمحلال شأنهم بظهور إرهاصات نبوته[1] ﷺ، حتى لقد سولت لهم أنفسهم أن يتخلصوا منه ولو بالقتل !!

---

(١) لقد تكاثرت الخوارق والارهاصات إبان نشأته المباركة بصورة يتعذر استيعابها فى هذا المؤلف وكان سياق بعضها لمجرد التمثيل والتدليل. ولقد كان من بين ما وقع له صلى الله عليه وسلم منها وهو فى بنى سعد: ما خرجه الامام القسطلانى عن البيهقى وأبى نعيم وابن عساكر عن الامام ابن عباس رضى الله تعالى عنهما. أنه قال: «كانت حليمة لاتدعه يذهب مكانا بعيدا، فغفلت عنه، فخرج مع أخته الشيماء فى الظهيرة إلى البهم، فخرجت حليمة تطلبه حتى تجده مع أخته فقالت، فى هذا الحر؟

قالت أخته، يا أمه، ما وجد أخى حرا رأيت غمامة تظل عليه، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت؛ حتى انتهى إلى هذا الموضع!!» أنظر المواهب اللدنية للامام القسطلانى ٢٩/١».

ومن ذلك أيضا، ما ذكره الحلبى من أن السيدة حليمة قالت، إنه لفى حجرى ذات يوم إذ مرت به غنيماتى فأقبلت واحدة منهن حتى سجدت له وقبلت رأسه ثم ذهبت إلى صواحبها، !! أنظر السيرة الحلبية ١٠٨/١

وها هو ذا تتابع الأحداث — بعد شق الصدر — كما يصوره البيهقى فى دلائله فى روايته عن السيدة حليمة : -

« قالت : فاحتملته فأتيت به منزلا من منازل بنى سعد بن بكر ، فقال لى الناس : اذهبى به إلى الكاهن حتى ينظر إليه ويداويه . فقال : « ما بى شىء مما تذكرون ، وإنى أرى نفسى سليمة وفؤادى صحيح بحمد الله » .

فقال الناس : أصابه لمم أو طائف من الجن ! !

قالت : فغلبونى على رأيى فانطلقت به إلى الكاهن فقصصت عليه القصة .

قال : دعينى أسمع منه ، فإن الغلام أبصر بأمره منكم ، تكلم يا غلام !

قالت حليمة : فقص ابنى محمد قصته ما بين أولها إلى آخرها .

فوثب الكاهن قائما على قدميه ، فضمه إلى صدره ، ونادى بأعلى صوته : يا آل العرب ، يا آل العرب ، من شر قد اقترب ، اقتلوا هذا الغلام واقتلونى معه ، فإنكم إن تركتموه وأدرك مدرك الرجال ليسفهن أحلامكم ، وليكذبن أديانكم . وليدعونكم إلى رب لا تعرفونه ودين تنكرونه .

قالت : فلما سمعت مقالته : انتزعته من يده ، وقلت : لأنت أعته منه وأجن ، ولو علمت أن هذا يكون من قولك ما أتيتك به ، أطلب لنفسك من يقتلك ، فإنا لا نقتل محمدا ! !

فاحتملته فأتيت به منزلى ، فما أتيت - يعلم الله - منزلا من منازل بنى سعد بن بكر إلا وقد شممنا منه ريح المسك الأذفر ! !

وكان فى كل يوم ينزل عليه رجلان أبيضان فيغيبان فى ثيابه ولا يظهران ! !

فقال الناس : رديه يا حليمة عل جده عبد المطلب وأخرجيه من أمانتك »(١) .

وقد جاء فى طبقات ابن سعد « أن أم النبى ﷺ لما دفعته إلى السعدية التى أرضعته قالت لها : احفظى ابنى — وأخبرتها بما رأت — فمر بها اليهود ، فقالت : ألا تحدثونى عن ابنى هذا(٢) فإنى حملته كذا ووضعته كذا — كما وصفت أمه — ؟ ؟

قال(٣) : فقال بعضهم لبعض : اقتلوه ، فقالوا : أيتيم هو ؟ فقالت : لا ، هذا أبوه وأنا أمه ، فقالوا : لو كان يتيما لقتلناه ! !

قال : فذهبت به حليمة وقالت : كدت أخرب أمانتى(٤) .

قال إسحق : وكان له أخ رضيع ، قال : فجعل يقول له : أترى أنه يكون بعث ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أما والذى نفسى بيده

---

(١) أنظر دلائل النبوة للبيهقى ١/٨٠—٨١

(٢) إنما أرادت السيدة حليمة بهذا أن تتعرف من أهل الكتاب ما يؤكد لها دلالة ما رأته من أحواله ﷺ على نبوته .

(٣) القائل هو الراوى الذى أسند إليه ابن سعد الرواية وهو إسحق بن عبدالله .

(٤) وهذا هو مساق القصة ههنا ، التدليل على أن الباعث لرده إلى أمه هو الخوف عليه ﷺ .

لآخذن بيدك يوم القيامة ولأعرفنك ، قال : فلما آمن بعد موت النبي ﷺ جعل يجلس فيبكي ويقول : إنما أرجو أن يأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيدي يوم القيامة فأنجو »(١) ! !

لقد تحصل لنا من جملة الروايات أن جملة من الأسباب قد دفعت بالسيدة حليمة إلى رده صلى الله عليه وسلم إلى أمه جماعها كلها الخوف عليه سواء من جانب ما يعتريه من أحداث عظام كشق الصدر الشريف أم من جانب غدر الكهان به إذ تلوح لهم منه لوائح نبوته صلى الله عليه وسلم التي يزول بها سلطانهم ومكانتهم في دنيا الناس .

ويذكر ابن سعد — في طبقاته — أن المدة التي أقامها صلى الله عليه وسلم عند السيدة حليمة رضي الله عنها بعد رجوعها به من عند أمه رضي الله عنها للمرة الثانية : كانت سنة أو نحوها ، إذ يقول : « ثم رجعت به أيضا مكان عندها سنة أو نحوها لا تدعه يذهب مكانا بعيدا ، ثم رأت غمامة تظله إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت !! فأفزعها ذلك أيضا من أمره . فقدمت به إلى أمه لترده — وهو ابن خمس سنين — فأضلها في الناس ، فالتمسته فلم تجده ! ! فأتت عبد المطلب فأخبرته ؛ فالتمسه عبد المطلب فلم يجده فقام عند الكعبة فقال :

لا هم أد راكبي محمدا
أده إلي واصطنع عندي يدا
أنت الذي جعلته لي عضدا
لا يبعد الدهر به فيبعد

---

(١) أنظر طبقات ابن سعد ١/١١٣

أنت الذى سميته محمدا(١)

ثم يردف ابن سعد هذه الرواية بأخرى تشير إلى أن عبد المطلب إنما تضرع بنحو قوله هذا لما بعث بالنبى صلى الله عليه وسلم فى طلب إبل له — ولم يبعث به فى حاجة إلا نجح — قال الراوى : فما لبثنا أن جاء فضمه إليه وقال : لا أبعث بك فى حاجة »(٢) .

وقد ذكر ابن هشام : أن السيدة حليمة لما افتقدته ﷺ بأعلى مكة وهى عائدة به وعلم جده بذلك فقام عند الكعبة يدعو الله أن يرده : قال ، فيزعمون أنه وجده ورقة بن نوفل بن أسد ورجل آخر من قريش ، فأتيا به عبد المطلب فقالا له : هذا ابنك وجدناه بأعلى مكة ، فأخذه عبد المطلب ، فجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة يعوذه ، ويدعو له ثم أرسل به إلى أمه آمنة »(٣) .

ويذكر السهيلى أن السيدة حليمة لم تر النبى صلى الله عليه وسلم — بعد أن ردته إلى أمه إلا مرتين :

إحداهما : بعد تزويجه بالسيدة خديجة — رضى الله عنها — إذا جاءته تشكو إليه السنة(٤) .

---

(١) أنظر طبقات ابن سعد ١١٢/١ وفى الوفا (١١٦/١) .

لاهم رد راكبى محمدا   رده رب واتخذ عندى يدا

أنت الذى جعلته لى عضدا

(٢) نفس المصدر .

(٣) أنظر سيرة ابن هشام بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ١٠٨/١

(٤) السنة هنا . القحط والجدب .

وأن قومها أسنتوا . فكلم لها السيدة خديجة ، فأعطتها عشرين رأسا من غنم وبكرات(١).

والمرة الثانية : يوم حنين(٢) .

وقد نص أبو الفرج بن الجوزى على إسلام السيدة حليمة مع زوجها فى قدومها الثانى على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال : « ثم قدمت عليه بعد الإسلام فأسلمت هى وزوجها وبايعا »(٣) .

ومما هو جدير بالذكر : أن للحافظ (مغلطاى) مؤلفا فى إسلام السيدة حليمة عنوانه « التحفة الجسيمة فى إسلام حليمة »(٤) .

ومن مرضعاته صلى الله عليه وسلم أيضا - غير أمه والسيدتين ثويبة وحليمة - : السيدة أم أيمن بركة ، فقد نقل الحلبى عن الخصائص الصغرى للإمام السيوطى أنها من مراضعه صلى الله عليه وسلم ، كما نقل الشامى عن القرطبى أيضا عدها مراضعه عليه الصلاة والسلام ، مع أن المشهور أنه من الحواضن(٥) .

---

(١) أى جماعة من الإبل الفتية ، وفى الوفا لابن الجوزى . (١١٤/١) أن السيدة خديجة أعطتها أربعين شاة وبعيرا موقعا للظعينه .

(٢) أنظر : الروض الأنف للسهيلى ١٩٢/١

(٣) أنظر الوفا لابن الجوزى ١١٤/١

(٤) أنظر السيرة الحلبية ١٢٥/١ وانظر إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون البغدادى ٣٤٥/٣

(٥) أنظر السيرة الحلبية ١٠٤/١ والسيرة الشامية ٤٦٠/١ وفى الدلائل للبيهقى ٩١/١ أن أم أيمن هى أم أسامة بن زيد رضى الله عنهما .

كذلك ذكروا من مراضعه صلى الله عليه وسلم : ثلاث نسوة من بنى سليم حيث مر به صلى الله عليه وسلم عليهن فأخرجن ثديهن فوضعنها فى فمه الشريف فدرت عليه ورضع منهن ، وقد ذكر الإمام الحلبى أن كل واحدة منهن تسمى عاتكة ، وهن اللاتى عناهن صلى الله عليه وسلم بقوله : « أنا ابن العواتك من سليم »(١) . . »(٢) .

وأما الثامنة من مراضعه صلى الله عليه وسلم : فقد ذكروا أنها أم فروة ، نقله الشامى عن المستغفرى(٣) .

والتاسعة : هى السيدة خولة بنت المنذر بن زيد ، من بنى النجار ، وقيل إنها مرضعة ابنه صلى الله عليه وسلم : إبراهيم رضى الله تعالى عنه(٤) .

وأما العاشرة : فهى سيدة من بنى سعد غير السيدة حليمة ، وكانت مرضعة لسيدنا حمزة رضى الله تعالى عنه(٥) تلك عشرة كاملة ذكرها العلماء ما بين مجمع عليه ومختلف فيه .

وهنا نتسائل : ما السبب فى استرضاعه صلى الله عليه وسلم من غير أمه ؟ ؟

والجواب : كما ذكره الحلبى : أنه كان من شيم العرب وأخلاقهم إذا ولد

---

(١) خرجه الحافظ السيوطى فى الجامع الصغير عن الطبرانى فى معجمه الكبير ورمز له بالصحة وذكر الحافظ المناوى فى شرحه (فيض القدير ٣٩/٢) أن الهيثمى قال فيه . رجاله رجال الصحيح .

(٢) أنظر السيرة الحلبية ١٠٤/١ والسيرة الشامية ٤٦٠/١

(٣) المصدر السابق ، وفيه تفصيل الخلاف فى عدها من مراضعه صلى الله عليه وسلم .

(٤) ، (٥) نفس المصدر .

لهم ولد يلتمسون له مرضعة فى غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد وأفصح .
ويدل لذلك ما جاء من أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول لأصحابه «أنا أعربكم
أنا من قريش، ولسانى لسان بنى سعد بن بكر»[١] ، وجاء أيضا أن سيدنا
أبا بكر رضى الله تعالى عنه لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم : ما رأيت
أفصح منك يا رسول الله قال «وما يمنعنى وأنا من قريش واسترضعت فى
بنى سعد»[٢] .

---

(١) أخرجه ابن سعد فى طبقاته (١/١١٣) عن يحيى بن يزيد مرسلا السعدى
وخرجه عنه صاحب الفتح الكبير ١/٧٠

(٢) أنظر السيرة الحلبية ١/١٠٦

الفصل الخامس

« فى ذكر وفاة أمه صلى الله عليه وسلم »
وكفالة جده عبد المطلب إياه

عبر تلك الأحداث التى حفلت بها حياة المصطفى الأعظم ﷺ : بشتى مراحلها وبمختلف جوانبها كانت معالم الشخصية المحمدية فى تألق متزايد وإشعاع مستمر ، وكان إغداق عطاء الربوبية متواصلا بمدد الإنعام وعظيم العناية وكمال الرعاية ورحمانية الإحسان ورحيمية الإكرام، وكانت شواهد العناية الربانية ناطقة للذات المحمدية فى جميع أحوالها ومراتب وجودها بقول من جلت أسماؤها وصفاته « فإنك بأعيننا » !!

وبقوله تباركت آلاؤه : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » !!

ولنتأمل دلالات الأحداث ومرامى إشارات العبارات لنقتبس من ضيائها ونقتات من نورها هدى القلب وإشراق الروح .

يروى ابن سعد بإسناده عن الإمام ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وكذا عن الزهرى وعاصم بن قتادة أنهم قالوا :

كان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب ، فلما بلغت به ست سنين : خرجت به إلى أخواله [1] بنى عدى بن النجار بالمدينة تزورهم

---

(١) ذكر شارح المواهب اللدنية (١/١٦٣) أن إضافة الأخوال إليه ﷺ هنا مجازية لأنهم أخوال جده عبد المطلب ، لأن أمه : سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد بن خداش بن عامر بن عدى بن النجار البخارية . ا ه

به (١) ، ومعه أم أيمن تحضنه وهم على بعيرين ، فنزلت به فى دار النابغة(٢)
فأقامت به عندهم شهراً ، فكان رسول الله ﷺ يذكر أموراً كانت فى
مقامه ذلك :

لما نظر إلى أطم (٣) بنى عدى بن النجار عرفه ، وقال : كنت ألاعب
أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم، وكنت مع غلمان من أخوالى نطير
طائراً كان يقع عليه .

ونظر إلى الدار فقال : ههنا نزلت بى أمى ، وفى هذه الدار : قبر أبى
عبدالله بن عبد المطلب ، وأحسنت العوم فى بئر بنى عدى بن النجار .

وكان قوم من اليهود يختلفون ينظرون إليه، فقالت أم أيمن : فسمعت
أحدهم يقول هو نبى هذه الأمة ، وهذه دار هجرته !! فوعيت ذلك كله
من كلامه .

---

(١) قال الزرقانى : نسب الزيارة لها ، لأنها المرادة لها وهى المباشرة ، وعند
ابن إسحق وتزويره إياهم — من أزاره : إذا حمله على الزيارة ، أى : أنها قصدت
بزيارتها نقل المصطفى (ﷺ) إليهم وإراءته لهم . (أنظر المصدر السابق)

(٢) ضبطه فى شرح المواهب (التابعة) وعرفه بأنه رجل من بنى عدى
بن النجار .

(٣) الأطم : هو القصر كما ذكر فى القاموس المحيط ٧٦/٤ ويطلق أيضاً على
كل حصن مبنى بالحجارة .

ثم رجعت به أمه إلى مكة(١) فلما كانوا بالأبواء : توفيت آمنة بنت وهب ، فقبرها هناك(٢) .

فرجعت به أم أيمن على البعيرين اللذين قدموا عليهما مكة ، وكانت تحضنه مع أمه ثم بعد أن ماتت .

فلما مر رسول الله ﷺ — فى عمرة الحديبية — بالأبواء(٣) قال :

« إن الله قد أذن لمحمد فى زيارة قبر أمه ، فأتاه رسول الله ﷺ فأصلحه وبكى عنده وبكى المسلمون لبكاء رسول الله ﷺ ، فقيل له ، فقال « أدركتنى رحمتها فبكيت » .»(٤)

ومما روى بصدد الحديث عن وفاة أمه ﷺ وما وقع عندها من الآيات : فاخرجه الإمامان السيوطى والقسطلانى عن الحافظ أبى نعيم

---

(١) علل الإمام الزرقانى رجوعها إلى مكة بالخوف عليه ﷺ مستشهداً بما رواه أبو نعيم من قوله ﷺ (فنظر إلى رجل من اليهود يختاف ينظر إلى . فقال ياغلام ، ما اسمك ؟ قلت أحمد . ونظر إلى ظهرى فأسمعه يقول : هذا نبى هذه الأمة ثم راح إلى إخوانه فأخبرهم فأخبروا أمى : فخافت على ، فخرجنا من المدينة)

(٢) هذا هو المشهور وقد جمع بينه وبين ما ورد من دفنها بالحجون بأنها دفنت أولا بالأبواء ثم نقلت من قبرها هناك إلى مكة .

(٣) قال السهيلى فى الروض (١٦٣/١) عند ذكر الأبواء (وهو موضع معروف بين مكة والمدينة وهو إلى المدينة أقرب)

(٤) انظر طبقات ابن سعد ١١٦/١ — ١١٧ وانظر الوفا لابن الجوزى ١١٧/١ — ١١٨ .

الأصبهانى — من طريق الزهرى — عن أم سماعة(١) بنت أبى رهم عن عن أمها أنها قالت :

شهدت آمنة أم رسول الله ﷺ فى علتها التى ماتت فيها ، ومحمد غلام يفع له خمس سنين(٢) عند رأسها فنظرت إلى وجهه ثم قالت :

بارك الله فيك من غلام ... يا ابن الذى من حومة الحمام (٣)

نجا بعون الملك المنعام ... فودى غداة الضرب بالسهام (٤)

بمائة من إبل سوام ... إن صح ما أبصرت فى المنام

فأنت مبعوث إلى الأنام ... من عند ذى الجلال والإكرام

تبعث فى الحل وفى الحرام ... تبعث بالتحقيق والاسلام

---

(١) أورد القسطلانى فى روايته أسمها فقال (عن أسماء بنت رهم) وضبط الزرقانى أسم أبيها بضم الراء ثم قال : وفى نسخة بنت أبى رهم (أنظر شرح المواهب ١/١٦٤) .

(٢) تعددت الاقوال فى سنه ﷺ عند وفاة أمه رضى الله عنها فنقل صاحب المواهب المدنية فى ذلك عدة آراء وعزاها الزرقانى إلى ذويها فنقل عن العراقى أنه كان أربع سنين وعن مغلطاى أنه كان خمساً وعن ابن اسحق أنه كان ستاً (وقد رجحه) وقيل سبعاً وقيل تسعاً (أنظر شرح المواهب ١/١٦٣)

(٣) الحمام هو الموت ، وحومته معظمه أو أشد مواضعه أو قدره ، من قولهم حم كذا أى قدر .

(٤) أى : افتدى بعد الضرب بالقداح بينه وبين أخوته حين أراد عبد المطلب وفاء نذره .

دين أبيك البر إبراهام فالله أنهاك عن الأصنام
أن لا تواليها مع الأقوام

ثم قالت : كل حي ميت ، وكل جديد بال ، وكل كبير يفنى ، وأنا ميتة وذكرى باق وقد تركت خيرا وولدت طهرا ! !

ثم ماتت فسمعنا نوح الجن عليها ، فحفظنا من ذلك :

نبكى الفتاة البرة الأمينة ذات الجمال العفة الرزينه
زوجة عبد الله والقرينة أم نبى الله ذى السكينه
وصاحب المنبر بالمدينه صارت لدى حفرتها رهينه(١)

هذا وقد ورد فى كتب السير عند الحديث عن وفاة والديه ﷺ بعض المرويات التى تفيد الإشراك وعدم النجاة — والعياذ بالله تعالى — وهذا العمرى مزلق خطير وقد تردى فيه بعض الكبار من العلماء بكل أسف ، بيد أن الحق تعالى قد قيض للحق رجالا ينافحون عنه برسوخهم وتحققهم كالإمام الفخر الرازى والحافظ السيوطى والإمام ابن حجر الهيثمى والإمام

---

(١) انظر الخصائص الكبرى للحافظ السيوطى ١/٧٩ — ٨٠ وشرح الزرقانى على المواهب ١/١٦٤ وفيه صرح بأن الرواية عن أبى نعيم من دلائل النبوة — بسند ضعيف — ومع ذلك آثرنا هنا ذكرها لما تضمنته من فوائد تتعلق وروعة المقام وجلال الذكرى وقد سوغ الثقات لاسيما الامام أحمد بن حنبل وابن مهدى — رضى الله عنهما — رواية الضعيف فى باب الفضائل : أنظر الباعث الحثيث لابن كثير ٩١ — ٩٢

القسطلانى وغيرهم ممن أحقوا الحق ووضعوه فى نصابه ، فقد أثبت الإمام السيوطى رضى الله عنه نجاة أبويه ﷺ وتحنفهما فى ست مؤلفات حافلة كما نص عليه الزرقانى[١] ومنها « مسالك الحنفا فى والدى المصطفى » الذى جعله ضمن كتاب « الحاوى للفتاوى » ، وقد قرر فيه نجاة أبويه ﷺ سالكا فى ذلك مسالك ثلاثة :

الأول : أنهما ماتا قبل البعثة ولا تعذيب قبلها لقوله تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا[٢] ولاجماع أئمة متكلمى وأصوليى الأشاعرة وفقهاء الشافعية على نجاة من مات ولم تبلغه الدعوة ولأدلة أخرى[٣] .

والثانى : أنهما لم يثبت عنهما شرك بل كانا على دين الحنيفية الإبراهيمية وقد قدم العديد من دلائل ذلك[٤] .

والثالث : أن الله تعالى قد أحياله ﷺ أبويه حتى آمنا به ، وقد مال إلى هذا المسلك طائفة كثيرة من حفاظ المحدثين وغيرهم مثل الحافظ ابن شاهين والحافظ الخطيب البغدادى والسهيلى والقرطبى والمحب الطبرى وغيرهم ومن أدلتهم لذلك : ما أخرجه كل من الحفاظ : ابن شاهين والخطيب البغدادى والدارقطنى وابن عساكر عن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : « حج بنا رسول الله ﷺ حجة الوداع . فمر بى على عقبة

---

(١) أنظر شرح المواهب ١/١٨٦

(٢) سورة الإسراء / ١٥

(٣) انظر الحاوى للفتاوى ٢/٣٥٣ — ٣٦٦

(٤) نفس لمصدر ٢ / ٣٦٦ — ٣٩٩

بالحجون وهو بال حزين مغتم ، فنزل ، فمكث عنى طويلا ، ثم عاد وهو فرح مبتسم ، فقلت له فقال : « ذهبت لقبر أمى فسألت الله أن يحييها فأحياها فآمنت بى وردها الله[١] » .

كما أورد الإمام السهيلى فى الروض — بسند ذكر أن فيه مجهولين — عن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها : « أن رسول الله ﷺ سأل ربه أن يحيي أبويه فأحياهما له وآمنا به ثم أماتهما[٢] » .

وقد نص الحافظ السيوطى على أن جمعا من الأئمة والحفاظ — السابق ذكر طائفة منهم — قد جعلوا حديث إحياء أبويه ﷺ ناسخا للأحاديث

---

(١) ذكر الحافظ السيوطى (فى الحاوى للفتاوى ٢/٣٩٩) أن هذا الحديث ضعيف عند المحدثين . ولكنه غير موضوع كما ذهب ابن الجوزى الذى نص ابن الصلاح وغيره على تساهله فى الموضوعات إذا أورد أحاديث ضعيفة وربما تكون حسنة أو صحيحة ومن ثم قرر السيوطى فى سبل النجاة (ونقله عنه شارح المواهب ١/١٦٨) أن هذا الحديث ضعيف وتجوز روايته فى الفضائل والمناقب وليس بموضوع ا هـ .

(٢) نقل شرح المواهب عن الحافظ السيوطى — من كتابه سبل النجاة — أن حديث السهيلى المذكور لم يذكره ابن الجوزى ، وإنما أورد حديثا آخر من طريق آخر فى إحياء أمه فقط ، وفيه قصة بلفظ غير لفظ الحديث الذى أورده السهيلى ، فعلم أنه حديث آخر مستقل ا هـ من شرح المواهب ١/١٦٩ قلت : ومن ثم فإن حديث الإحياء الذى أورده السهيلى ولم يتعقب بالوضع معاضد ومقو للحديث الآخر .

الواردة بما يخالفه(١) إذ أنه متأخر عنها وقال : « جعلوه ناسخا ولم يبالوا بضعفه ، لأن الحديث الضعيف يعمل به فى الفضائل والمناقب . وهـــذه منقبة » .

وقد عقب العلامة الزرقانى على كلام الحافظ الحبر السيوطى هذا بقوله: « هذا كلام الجهبذ وهو فى غاية التحرير(٢) » .

ولله در الإمام ابن حجر الهيثمى محققا ومنصفا إذ قال فى تزكية آباء النبى ﷺ عند شرحه لقول الإمام البوصيرى — عليه رضوان الله تعالى — فى همزيته :

لم تزل فى ضمائر الكون تختا ... ر لك الأمهات والآباء

---

(١) ذكر الحافظ السيوطى أنه لم يصح فى أم النبى ﷺ سوى حديث أنه استأذن فى الاستغفار لها فلم يؤذن له ، وهو المروى فى مسلم فى كتاب الجنائز من صحيحه عن أبى هريرة أنه قال : « زار النبى ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال: استأذنت ربى فى زيارة قبر أمى فأذن لى واستأذنته فى الاستغفار فلم يأذن لى . . » وقد قال فيه الإمام السيوطى إنه معارض بما تقدم من الأدلة (أى كقوله تعالى : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) والحديث الصحيح إذا عارضه أدلة أخرى هى أرجح منه وجب تأويله وتقديم تلك الأدلة عليه كما هو مقرر فى الأصول، على أنه يمكن فيه دعوى عدم الملازمة ، بدليل أنه كان فى صدر الإسلام ممنوعا من الصلاة على من عليه دين وهو مسلم ، فلعله كانت عليها تبعات غير الكفر فمنع من الاستغفار لها بسببها (أنظر الحاوى ٢/٣٩٤) .

(٢) انظر شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ١/١٦٩

، لك أن تأخذ من كلام الناظم الذى علمت أن الأحاديث مصرحة به لفظا فى أكثره ومعنى فى كله : أن آباء النبى ﷺ — غير الأنبياء — وأمهاته من آدم إلى حواء : ليس فيهم كافر ، لأن الكافر لا يقال فى حقه إنه مختار ولا كريم ولا طاهر بل نجس كما فى آية : « إنما المشركون نجس(١) » ، وقد صرحت الأحاديث السابقة بأنهم مختارون وأن الآباء كرام والأمهات طاهرات . وأيضا : فهم إلى إسماعيل كانوا من أهل الفترة وهم فى حكم المسلمين بنص الآية الآتية ، وكذا من بين كل رسولين ، وأيضا قال تعالى : (وتقلبك فى الساجدين(٢)) - على أحد التفاسير فيه — أن المراد : تنقل نوره من ساجد إلى ساجد ، وحينئذ : فهذا صريح فى أن أبوى النبى ﷺ - آمنة وعبد الله — من أهل الجنة لأنهما أقرب المختارين له ﷺ ، وهذا هو الحق ، بل فى حديث صححه غير واحد من الحفاظ ولم يلتفتوا لمن طعن فيه : أن الله تعالى أحياهما له فآمنا به خصوصية لهما وكرامة له ﷺ(٣) .

ونختتم هذه القضية بما أنشده الحافظ شمس الدين الدمشقى من شعره :

حبا الله النبى مزيد فضل .·. على فضل وكان به رءوفا
فأحيا أمه وكذا أبوه .·. لإيمان به فضلا لطيفا
فسلم فالقدير بذا قدير .·. وإن كان الحديث به ضعيفا(٤)

---

(١) سورة التوبة /٢٨

(٢) سورة الشعراء / ٢١٩

(٣) أنظر المنح المكية فى شرح الهمزية للإمام ابن حجر الهيثمى ص : ١٩ — ٢٠ ط التقدم العلمية.

(٤) أنظر هذه الأبيات فى الحاوى للفتاوى للإمام السيوطى ٢/ ٤٠١ نقلا عن مورد الصادى فى مولد الهادى للدمشقى .

كفالة جده عبد المطلب إياه ﷺ :

كان عبد المطلب للنبي صلى الله عليه وسلم بمثابة الأب بعد أبيه ، وكان يدعوه بابنه كما سيرد فى الروايات عنه ، ولم تكن كفالته إياه مبتدأة بموت أمه ، بل لقد كان فى حياتها نعم الوالد والكفيل ، إذ يقول ابن إسحاق :

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا ، لما يريد به من كرامته ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين توفيت أمه آمنه بنت وهب[1] » .

بيد أنه بوفاة أمه صلى الله عليه وسلم : وضع الله تعالى فى قلب جده عبد المطلب أضعافاً مضاعفة من إنعطاف القلب نحوه وحنوه عليه ، فكان أقرب إليه من بنيه جميعا ، ولقد روى عن أمر هذه الكفالة وماحفلت به من كريم الرعاية وعميق المحبة وعظيم الإجلال ما يملأ القلب خشوعا وجلالا وروعة وإعجاباً .

فيروى ابن سعد فى طبقاته عن نافع بن جبير والزهرى ومجاهد وغيرهم[2] أنهم قالوا :

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام ١٠٩/١ .

(٢) ساق ابن سعد هذه الرواية بجملة أسانيد عن المذكورين وغيرهم وقال : دخل بعضهم فى حديث بعض ، قالوا .... وأسندها ابن الجوزى فى الوفا (١١٩/١) إلى نافع بن جبير وحده .

« كان رسول الله ﷺ يكون مع أمه آمنه بنت وهب ، فلما توفيت قبضه إليه جده عبد المطلب ، وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده ، وكان يقربه منه ويدنيه ، ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام ، وكان يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك : دعو ابنى ، إنه ليؤتين(١) ملكا !! (٢) .

وكان حب جده له ﷺ مصحوبا بالإجلال والحفاوة فكان منه بالمكانة التى لا يدانيه فيها بنو عبد المطلب أنفسهم ، كان حباً فوق الطبيعة والعاطفة ، حباً يغمره النور الإلهى والحنان القدسى ، يقول ابن اسحق :

« فكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالا له ، قال : فكان رسول الله ﷺ يأتى وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى ، فوالله إن له لشأنا ، ثم يجلسه على الفراش ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع »(٣) !!

ويروى ابن سعد أن عبد المطلب كان لا يأكل طعاماً إلا قال : « على بابنى » فيؤتى به إليه (٤) .

---

(١) اللفظ فى طبقات ابن سعد (ليؤنس ملكا) والمثبت من الوفا لابن الجوزى وهو أوضح معنى .

(٢) أنظر : طبقات ابن سعد ١/١١٧ — ١١٨ والوفا ١/١١٩

(٣) أنظر سيرة ابن هشام ١/١٠٩

(٤) أنظر طبقات ابن سعد ١/١١٨

ولقد كانت دلائل النبوة تشع من ذات النبي ﷺ وتحيط به من كل اتجاه فلا عجب أن يكون من جده بهذه المثابة وأن يحله هذه المنزلة والبشريات تترى والأنباء تتوالى ، فيروى ابن سعد أن قوماً من بني مدلج قالوا لجده عبد المطلب « احتفظ به ، فإنا لم نر قدماً أشبه بالقدم التي في المقام منه(١) !!

فقال عبد المطلب لأبي طالب: اسمع مايقول هؤلاء ، فكان أبو طالب يحتفظ به(٢) ، (٣) .

ومع كفالة عبد المطلب لحفيده الأمجد سيدنا محمد ﷺ ، كانت حضانة أم أيمن له صلوات الله وسلامه عليه ، يقول صاحب المواهب .

« وقد كانت أم أيمن بركة : دايته وحاضنته بعد موت أمه ، وكان عليه السلام يقول لها « أنت أمي بعد أمي »(٤) .

---

(١) يعنون أن قدم النبي ﷺ أشبه قدم بقدم سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام التي يرى أثرها في مقام إبراهيم الذي اعتلاه وهو يرفع قواعد البيت الحرام .

(٢) من هنا نتعرف سر خصوصية أبي طالب بكفالته للنبي ﷺ من بعد أبيه وسهره على رعايته وعدم اعتراضه بعد بعثه على دعوته !! .

(٣) أنظر طبقات ابن سعد ١/١١٨ والوفا لابن الجوزي ١/١٢٠

(٤) أنظر شرح الزرقاني على المواهب اللدنية للقسطلاني ١/١٨٨ ، وقد ذكر فيه من مناقب السيدة أم أيمن مارواه ابن سعد من أنها لما هاجرت أمسته بالمنصرف دون الروحاء فعطشت ، فدلى عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض فأخذته فشربته حتى رويت فكانت تقول : ما أصابني بعد ذلك عطش !!

وقد كان عبد المطلب لشدة حبه وحرصه على حفيده ﷺ يوصى به أم أيمن أن لا تغفل عنه، وأن ترمقه دائماً بلحظها وتحيطه برعايتها لأن نبوته مرتقبه وحديثها صار بين الكهان وأهل الكتاب، ومن ثم ينبغى أن يكون فى السوادين من القلب والعين .

ولقد أبرز ابن سعد فى طبقاته ذلك فيما رواه من قوله وقال عبد المطلب لأم أيمن وكانت تحضن رسول الله ﷺ : يابركة، لا تغفلى عن ابنى، فإنى وجدته مع غلمان قريباً من السدرة، وإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى هذا نبى هذه الأمة » (١) ! !

ويورد الحافظ أبو الفتح بن سيد الناس فى سيرته نحو هذه الرواية بشىء من التفصيل إذ يقول: « وكانت أم أيمن تحدث تقول: — كنت أحضن رسول الله ﷺ فغفلت عنه يوماً فلم أدر إلا بعبد المطلب قائماً على رأسى يقول: يابركة، قلت: لبيك، قال: أتدرى أين وجدت ابنى؟ قلت: لاأدرى، قال: وجدته مع غلمان قريباً من السدرة، لا تغفلى عن ابنى فإن أهل الكتاب يزعمون أن ابنى نبى هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم »(٢) .

لقد سكن حبه ﷺ فى قلب جده عبد المطلب فلم يكن يطيق فراقه وغيابه، كان منه بمنزلة السمع والبصر بل والقلب والفؤاد .

ولقد كان جده عليه السلام يعتمد عليه — وهو لم يتم الثامنة بعد من عمره — فى قضاء ما يعجز عنه بنوه من حاجاته، وتؤكد الروايات أنه لم يبعثه ﷺ فى حاجة قط إلا أنجح فيها .

فقد أخرج البخارى — فى تاريخه — وابن سعد وأبو يعلى

---

(١) أنظر طبقات ابن سعد ١/١١٨

(٢) أنظر عيون الأثر لابن سيد الناس ١/٣٨

والطبرانى والحاكم — وصححه — والبيهقى وغيرهم عن كندير بن سعيد عن أبيه أنه قال :

حججت فى الجاهلية فرأيت رجلا يطوف بالبيت وهو يقول :

رد إلى راكبى محمداً يارب رده واصطنع عندى يدا(١)

قلت من هذا ؟ قالوا . هذا عبد المطلب بعث بابن له فى طلب إبل له ، ولم يبعثه فى حاجة قط إلا أنجح فيها ، وقد أبطأ عليه ، فلم يلبث حتى جاء النبى ﷺ والإبل (٢) .

---

(١) سبق إيراد نحو هذا البيت بصدد رد السيدة حليمة له ﷺ إلى أمه وقد أضلها فى الناس فالتمسته فلم تجده فأتت جده عبد المطلب فأخبرته فأنشد عند الكعبة قوله : (لاهم أدراكبى محمداً .... الخ . ولعله قد كرر إنشاده إذا افتقده فى طلب الرزق .

(٢) انظر الرواية بتخريجها فى الخصائص الكبرى للحافظ السيوطى ٨١/١ وقد أخرجها البيهقى بزيادات عن معاوية بن حيدة ، إذ قال : « خرج حيدة بن معاوية فى الجاهلية معتمراً فإذا هو بشيخ عليه بمصرتان وهو يطوف بالبيت وهو يقول : رب رد إلى راكبى محمدا رده على واصطنع عندى يدا

قلت : من هذا ؟ قالوا : سيد قريش وابن سيدها ، هذا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، قلت : فما محمد هذا منه ؟ قالوا : هذا ابن ابن له وهو أحب الناس إليه ، وله إبل كثيرة ، فإذا اضل منها بعث بنيه يطلبونها ، وإذا أعيى بنوه بعث ابن ابنه ، وقد بعثه فى ضالة أعيى منها بنوه ، وقد احتبس عنه ، فوالله ما برحت البلد حتى جاء محمد وجاء بالإبل !! (انظر دلائل النبوة البيهقى ٣٦٨/١)

استسقاء أهل مكة بجده ﷺ وهو معه :

أخرج ابن سعد والبيهقي — واللفظ منه — والطبراني وغيرهم عن مخرمة ابن نوفل عن أمه رقيقة بنت صيفي — وكانت لدة(١) عبد المطلب — قال : تتابعت على قريش سنون جدبة أقحلت الجلد وأرقت العظم ، قالت : فبينا أنا ومعي صنوي أصغر مني معنا بهمات لنا ورباه (٢) وأعبد يردون على السجف(٣) ، فبينا أنا راقدة اللهم أو مهومة(٤) إذا أنا بها تف صيت يصرخ بصوت صحل(٥) يقول : يامعشر قريش ، إن هذا النبي ميعوث منكم وهذا إبان مخرجه ، فحيهلا بالخير والخصب ، ألا فانظروا منكم رجلا طوالا عظاما ، أبيض ، بضا ، أشم العرنين ، له فخر يكظم عليه(٦) وسنة تهدى إليه ، ألا فليخلص هو وولده ، وليد لف إليه من كل بطن رجل ، ألا فليسقوا من الماء ، وليمسوا من الطيب ، وليستلموا الركن ، وليطوفوا بالبيت سبعاً ، ثم ليرتقوا أبا قبيس ، فليستسق الرجل ، وليؤمن القوم إلا وفيهم الطاهر والطيب لذاته وإلا فغثتم إذا ما شئتم وعشتم .

قالت : فأصبحت — علم الله — مفئودة مذعورة ، قد قف جلدي ووله

(١) لدة الرجل : تربه ، أي من يولد معه في عام واحد .

(٢) الرباه ما يربى من الغنم في البيت ونحوه

(٣) السجف : هو الستر

(٤) مهومة : بضم الميم الأولى وفتح الهاء وكسر الواو المشددة .. اسم فاعل من التهويم وهو أول النوم .

(٥) الصحل : هو الذي فيه بحة .

(٦) المعنى له حسب خلق بالفخر وهو لا يبديه ويظهره .

عقلى ، فاقتصصت رؤياى ، فنمت (١) فى شعاب مكة ، فو الحرمة والحرم إن بقى بها أبطحى إلا قال : هذا شيبة الحمد ، هــذا شيبة ا وتتمت عنده قريش ، وانقض إليه من كل بطن رجل ، فشنوا ،(٢) وطيبوا ، واستلموا وطافوا ، ثم ارتقوا أبا قبيس ، وطفق القوم يدفون حوله ما إن يدرك سعيهم مهله حتى قر لذروته ، فاستكنوا جنابيه ، ومعهم رسول الله ﷺ وهو يومئذ غلام قد أيفع أو كرب(٣) ، فقام عبد المطلب فقال :

اللهم ساد الخلة ، وكاشف الكربة ، أنت عالم غير معلم ، ومسئول غير منجل(٤) ، وهذه عبداؤك وإماؤك عدرات (٥) حرمك ، يشكون إليك سنتهم التى قد أقحلت الظلف(٦) والخف فاسمعن اللهم وأمطرن غيثاً مريعاً مغدقا .

فما راموا البيت حتى انفجرت السماء بمائها وكظ الوادى بثجيجه(٧) .

---

(١) ضبطها بثلاث فتحات فسكون : أى : ارتفعت وذاعت ، والضــمير للرؤيا .

(٢) أى : صبوا الماء .

(٣) أى : دنا وقرب .

(٤) منجل : بصيغة اسم المفعول . ومعنى غير منجل : غير منازغ ، إذ يقال تناجل القوم بينهم ، إذا تنازعو .

(٥) تطلق العدرة على فناء الدار وعلى مجلس القوم انظر القاموس المحيط ٢/٨٩

(٦) المراد : ذات الظلف ، والمعنى : أهزلت الماشية وألصقت جلودها بعظامها . انظر لسان العرب ٤/٧٠١

(٧) أى : امتلأ بسيله .

فلسمعت شيخان قريش وهى تقول لعبد المطلب : هنيئاً لك أبا البطحاء هنيئا، أى : بك عاش أهل البطحاء . وفى ذلك تقول رقيقة :

بشيبة الحمد أسقى الله بلدتنا ... وقد فقدنا الحيا واجلوذ المطر(١)

فجاء بالماء جونى له سبل ... دأن فعاشت به الأمصار والشجر

سيل من الله بالميمون طائره ... وخير من بشرت يوماً به مضر

مبارك الأمر يستسقى الغمام به ... مافى الأنام له عدل ولا خطر(٢)

---

(١) الحيا : المطر والخصب ، والاجلواذ : ذهاب المطر . انظر القاموس المحيط ٣٢٣/٤ ؛ ٣٦٥/١

(٢) انظر دلائل النبوة للبيهقى ٣٦١/١ — ٣٦٣ والخصائص الكبرى للامام السيوطى ٨٠/١

الفصل السادس

فى ذكر وفاة جده صلى الله عليه وسلم
وكفالة عمه أبى طالب له

عاش عبدالمطلب جد المصطفى ﷺ سيدا لقريش ودرة فى عقد مجدهم، وسؤددهم وقائماً على أمرهم بما آتاه الله من نور وحكمة وبصيرة وعزم.

ثم لقد نال بالنبى ﷺ مجدا لا يسامقه مجد وشرف لا يطاوله شرف، إذ بشرت به الركبان والكهان وسطعت بنور نبوته الآيات فكان منه أثناء كفالته له بعد أمه ﷺ فى السوادين من العين والقلب، إذ عقد على حفيده المحمد الممجد نياط فؤاده ولبه ومع سطوع آيات اصطفائه للرسالة المنتظرة يوماً بعد يوم كان الجد الحانى يرمق بعينيه من يرعى هذه الدرة ويحفظها من بعده، وقد نطقت الشواهد بأن عبد المطلب كان يرشح ابنه أبا طالب ليخلفه بعده فى كفالة الحبيب محمد ﷺ، فقد تراءى ذلك فيما رواه ابن سعد من قول بعض بنى مدلج لعبد المطلب: احتفظ به(1)، فإنا لم نر قدما أشبه بالقدم التى فى المقام منه، عندئذ قال عبد المطلب لأبى طالب: — وكأنما يسلمه الوديعة الثمينة ويستحفظه إياها —: اسمع ما يقول هؤلاء!! — قال الراوى: فكان أبو طالب يحتفظ به(2)!!

---

(1) الضمير للنبى ﷺ، وقد مر بيان دلالة هذا الأثر على نبوته صلوات الله وسلامه عليه.

(2) انظر طبقات ابن سعد ١١٨/١.

ثم لقد ذكر الرواة أنه عند احتضار عبد المطلب أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله ﷺ وحياطته(١) وقد توفى عبد المطلب بعد عام الفيل بثمان سنين(٢) ورسول الله ﷺ ابن ثمان سنين من عمره المبارك، إذ يروى ابن سعد فى طبقاته: أنه قد سئل رسول الله ﷺ: أتذكر موت عبد المطلب؟ قال: نعم، أنا يومئذ ابن ثمان سنين(٣)

ويروى ابن هشام عن ابن اسحق بسنده عن محمد بن سعيد بن المسيب: أن عبد المطلب لما حضرته الوفاة وعرف أنه ميت: جمع بناته وكن ست نسوة: صفية وبرة وعاتكة وأم حكيم البيضاء وأميمة وأروى فقال لهن: (إبكين على حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت) !!

ثم أورد ابن هشام لكل منهن قصيدة فى رثاء أبيها، بيد أنه قال قبل إيراد قصائدهن «ولم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر إلا أنه لما رواه عن محمد بن سعيد بن المسيب كتبناه»(٤).

وهنا نؤثر إيراد ما رواه ابن سعد حيث قال: «فبكته كل واحدة منهن بشعر فلما سمع قول أميمة(٥) وقد أمسك لسانه جعل يحرك رأسه

---

(١) أنظر نفس المصدر والوفاء لابن الجوزى ١/١٢٩

(٢) ذكر ابن الجوزى فى الوفاء (١/١٠١) أنه فى نفس العام: مات كسرى أبو شروان وولى ابنه هرمز.

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١/١١٩ وسيرة ابن هشام ١/١١٠ والوفا لابن الجوزى ١/١٢٩

(٤) انظر سيرة ابن هشام ١/١١٠

(٥) عزا ابن هشام فى روايته هذه القصيدة ابرة لا لأميمة. أنظر نفس المصدر السابق.

أي قد صدقت ، وهو قولها :

أعيني جـودا بدمع درر ... على طيب الخيم والمعتصر
على ماجد الجد وارى الزناد ... جميل المحيا عظيم الخطر
على شيبة الحمد ذى المكرمات ... وذى المجد والعز والمفتخر
وذى الحلم والفضل فى النائبات ... كثير المكارم جم الفخر ...
له فضل مجـد على قومه ... مبين يلوح كضوء القمر
أتته المنايا فلم تشوه ... بصرف الليالى وريب القدر(١)

وقد كانت وفاة عبدالمطلب عن سن عالية مختلف فى حقيقتها أدناها — فيما نقله ابن سيد الناس عن الربيع بن سالم والزبير بن بكار : خمس وتسعون سنة ، وأعلاها — فيما نقله أيضاً عن الزبير عن نوفل بن عمارة أنه قال : كان عبيد بن الأبرص ترب عبدالمطلب، وبلغ عبيد مائة وعشرين سنة وبقى عبد المطلب بعده عشرين سنة وكانت وفاته سنة تسع من عام الفيل..(٢) ، وقد دفن بالحجون مع جده قصى

كفالة أبى طالب لرسول الله ﷺ :

أورد ابن هشام وغيره عن ابن إسحق سبب اختصاص أبى طالب بعد أبيه بكفالة سيدنا رسول الله ﷺ إذ قال : « وكان(٣) رسول الله ﷺ

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ١/١١٨ — ١١٩ وسيره ابن هشام ١/١١١

(٢) انظر عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس ١/٣٩ — ٤٠ .

(٣) اللفظ بالواو فى طبعة السيرة النبوية لابن هشام التى يذيلها الروض =

بعد عبد المطلب مع عمه أبي طالب(١) ، وكان عبد المطلب — فيما يزعمون — يوصى به عمه أبا طالب ، وذلك : لأن عبد الله — أبا رسول الله ﷺ — وأبا طالب : أخوان لأب وأم ، أمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عبد ابن عمران(٢) بن مخزوم » اهـ.

وقد حفلت هذه الحقبة التى وليت وفاة عبد المطلب وشهدت كفالة أبي طالب لرسول الله ﷺ بضروب شتى من الآيات والأحـداث ذات الدلالات العظمى التى تشير إلى مبعث النور وإشراق شمس النبوة ..

فلننظر أولا : كيـف حاله ﷺ فى كفـالة عمـه أبي طالب بعد جدة ؟ هنا تطالعنا مصادر السيرة النبوية بمرويات تشع بالحب الغامر الذى ملأ الله تعالى به قلب أبي طالب للنبي ﷺ وبالآيات التى كانت تصاحب رسول الله ﷺ أينما حل إبان نشأته المباركة ، فيروى ابن سـعد فى طبقاته عن الإمام ابن عباس ومجاهـد — رضى الله عنهمـا — وعن طائفـة أنهم قـالوا : —

= الأنف وهى بتقديم وتعليق وضبط طه عبد الرءوف سعد (٢٠٤/١ ط الكليات الأزهرية) بينما فى طبعة صبيح بتحقيق محمـــد محـي الدين عبد الحميـد بالغاء (فكان) : ١١٦/١

(١) ذكر الإمام الحـلبى فى سيرته ١٣٤/١ : أن اسم أبي طـالب — على الصحيح — هو عبد مناف .

(٢) قال ابن هشام معلقاً على إيراد ابن اسحق للنسب المذكور : عائذ : ابن عمران بن مخزوم .

لما توفى عبد المطلب : قبض أبو طالب رسول الله ﷺ إليه ، فكان يكون معه ، وكان أبو طالب لا مال له(١) ، وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده !! .

وكان لا ينام إلا إلى جنبه ، ويخرج فيخرج معه ، وصب به صبابة لم يصب مثلها بشىء قط !! وكان يخصه بالطعام ، وكان إذا أكل عيال أبى طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا . وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا !! فكان إذا أراد أن يغذيهم قال : كما أنتم حتى يحضر إبنى !! فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم فكانوا يفضلون من طعامهم !! وإن لم يكن معهم لم يشبعوا ، فيقول أبو طالب : إنك لمبارك !!

وكان الصبيان يصبحون رمصا شعثا ، ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم دهينا كحيلا ،(٢) .

إنها العناية الربانية فى أسمى صورها وأعلى مراتبها تكتنف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نشأته الطاهرة المباركة ، فما هو بالبشر العادى منذ أن أطل على الدنيا ، بل هو نور متألق يغمر الأرجاء .

لقد كانت بشريته صلى الله عليه وسلم نورانية لا تأسرها قوانين المادة ولا تحكمها نوازع الجسد إنها البشرية التى أعدها الله تعالى لحمل نور النبوة

---

(١) قال ابن سيد الناس فى عيون الأثر (١/٤٠) : « ذكر الواقدى أن أبا طالب كان مقلا من المال ، وكانت له قطعة من الإبل تكون بعرنة فيبدو إليها فيكون فيها ويؤتى بلبنها إذا كان حاضراً بمكة ... » .

(٢) أنظر طبقات ابن سعد ١/١١٩ — ١٢٠ .

والرسالة لتخرج الناس من الظلمات إلى النور وهذه بعض شواهد التفرد الأسمى والتحور من مألوفات العادة :

أخرج الحافظ أبو نعيم وغيره عن طريق الواقدى عن أم أيمن حاضنة النبى صلى الله عليه وسلم أنها قالت : «ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم شكا جوعا قط ولا عطشا وكان يغدو إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة ، فربما عرضنا عليه الغداء فيقول : لا أريد أنا شبعان »(١) .

وكان صلى الله عليه وسلم فى نشأته النورانية مطبوعا على الكرامة والإحساس بالعزة وسمو الذوق ورفاهية الشعور ، فيروى ابن سعد عن ابن القبطية . أنه قال : كان أبو طالب تودع له وسادة بالبطحاء مثنية يتكىء عليها : فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فبسطها ثم استلقى عليها .

قال : فجاء أبو طالب فأراد أن يتكىء عليها ، فسأل عنها فقالوا : أخذها ابن أخيك ، فقال : وحل البطحاء إن ابن أخى هذا ليحسن بنعيم »(٢)

ولقد تعرف به صلى الله عليه وسلم وهو فى كفالة عمه أبى طالب أهل العيافة والعرافة ، وكان من هؤلاء : اللهبى العائف ، فقد روى ابن اسحق عن عباد بن عبد الله بن الزبير . أن رجلا من لهب (٣) كان عائفا ، فكان إذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم و يعتاف لهم فيهم ، قال :

---

(١) أنظر : عيون الأثر لابن سيد الناس ٤٠/١ والخصائص الكبرى للامام السيوطى ٨٣/١

(٢) أنظر طبقات ابن سعد ١٢٠/١

(٣) قال ابن هشام : ولهب : أزد شنوءة ، وقال السهيلى : وهى القبيلة التى تعرف بالعيافة والزجر (أنظر : الروض الأنف ٢٠٤/١)

فأتى به(١) أبو طالب – وهو غلام – مع من يأتيه ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم شغله عنه شيء ، فلما فرغ قال : أين الغلام ؟ على به ، فلما ، رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه ، فجعل يقول : ويلكم ! ردوا على الغلام الذى رأيت آنفا ، فوالله ليكون له شأن !! قال : فانطلق به أبو طالب »(٢) .

استسقاء أبي طالب به ﷺ :

أخرج ابن عساكر عن جلهمه بن عرفطة أنه قال : قدمت مكة وهم فى قحط فقالت قريش : يا أبا طالب أقحط الوادى وأجدب العيال فهلم واستسق ، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن(٣) تجلت عنه سحابة قتماء ، وحوله أغيلمة ، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ الغلام بإصبعه وما فى السماء قذعة ، فأقبل السحاب من ها هنا وها هنا وأغدق وأغدوق وانفجر له الوادى وأخصب النادى والبادى ففى ذلك يقول أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه
ثمال اليتامى عصمة للأرامل

---

(١) الضمير : النبي صلى الله عليه وسلم :

(٢) أنظر سيرة ابن هشام ١١٦/١

(٣) الدجن هو إظلال الغيم والندى . أنظر أساس البلاغة ٢٦٤/١ ط / دار الكتب .

يلوذ به الهلال من آل هاشم
فهم عنده فى نعمة وفواضل(١)

* * *

شق صدره الشريف للمرة الثانية :

لما بلغ النبي الكريم ﷺ عشر سنين وأشهرا جاءه ملكان وهو فى صحراء مكة للمرة الثانية فشقا صدره الشريف فأخرجا منه أشياء وأدخلا فيه أشياء كما بينته الأحاديث الشريفة .

فقد روى الإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل — فى زوائد المسند — بسند رجاله ثقات ، وابن حبان والحاكم وغيرهم عن أبي بن كعب : أن أبا هريرة رضى الله عنه كان جريئا على أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، فقال : يا رسول الله : ما أول ما رأيت فى أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال :

« لقد سألت أبا هريرة ، إنى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ قال : نعم . فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى ، لا أجد لأحدهما مسا .

---

(١) أنظر الخصائص الكبرى للإمام السيوطى ٨٦/١ وشرح ابن حجر الهيثمى على الهمزية ص ٤٧ وأنظر مختصر بلوغ الأمانى للساعاتى ١٩٤/٢٠

فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه ، فأضجعانى بلا قصر ولا هصر(١) ، وقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، ففلقها فيما أرى بلا دم ولا وجع(٢). فقال له : أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلى اليمنى فقال : اغد واسلم ؛ فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير »(٣) .

وهنا نقف وقفة تأمل لنتعرف حكمة شق الصدر الشريف أصلا ثم حكمة تعدده ثم دلالات ما ورد فى الروايات من أحداث وتعبيرات :

أما الحكمة فى شق صدره الشريف أصلا :

فهى كما تطهيرا لله تعالى لنبيه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وتنزيه قلبه الشريف عن رجس الشيطان بانتزاع حظه ومغمزه منه كما نطقت بذلك الروايات المختلفة ، ومغمز الشيطان : هو محل ما يلقيه من الأمور التى

---

(١) القصر معناه : القهر والاجبار ، والهصر أصله : أن تأخذ برأس العود فتثنيه إليك ، والمعنى : أنهما لم يثنيا ظهرى ولم يكرهانى عندما أضجعانى .

(٢) جاء ههنا فى بعض الروايات ، فكان أحدهما يختلف بالماء فى طست من ذهب والاخر يغسل جوفى ثم قال : شق قلبه فشق قلبى فأخرج الغل والحسد منه. أنظر شرح الزرقانى على المواهب ١٥٣/١ وشرح ابن حجر على الهمزية ص ٤٤ وأنظر كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال ٤٠٠/١٢

(٣) أنظر الفتح الربانى بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى للساعاتى ١٩٥/٢٠

لا تنبغي فإن هذه العلقة السوداء قد خلقها الله تعالى فى قلوب البشر جميعاً قابلة لما يلقيه الشيطان فيها ، وبإزالتها من قلبه الشريف لم يعد للشيطان سبيل إليه ، حيث استئصل مغمزه الذى يغمز فيه بالقلب ، هذا : ولا يلزم من وجود هذه العلقة قبل الشق حصول الإلقاء قبله ، فقد حفظه الله تعالى قبل الشق وبعده وكيف لا وقد حجب إبليس عن السموات السبع بمجرد ولادته صلى الله عليه وسلم. أو ليس من الأحرى حجبه عن الوصول إلى قلبه الشريف ؟؟

وقد يقال : ولم خلق الله تعالى أصلا هذا القابل للإلقاء فى ذاته الشريفة ﷺ مادام قد أراد تطهيره وتنزيهه وكان فى مقدوره تعالى أن لا يخلقه به أصلا .

والجواب - كما حرره الإمام السبكي عليه رضوان الله تعالى : أن هذا القابل من جملة الأجزاء الأنسانية ، فخلق أولا : تكملة للخلق الإنسانى ، ثم نزع : تكرمة له ﷺ ، أى وليظهر للخلق بذلك التكرمة ، ليتحققوا كمال باطنه كما تحققوا كمال ظاهره صلى الله عليه آله وسلم[1] .

ثم تأتى حكمة تعدد شق صدره الشريف : من منطلق أن لكل مرة خصائصها وبواعثها ومترتباتها فكانت حكمة شق الصدر الشريف فى حال طفولته فى بنى سعد: هى - كما قال السهيلى - لينقى قلبه من مغمز الشيطان، وليطهر ويقدس من كل خلق ذميم[2] .

---

(١) أنظر إنسان العيون للامام الحلبى ١/١١٤ — ١١٥

(٢) ساق السهيلى أسرار وحكم الشق فى حالة الطفولية أولا ثم حالة الكهولة بعد النبوة وقبل الإسراء ثانيا وقد أجمل أسرار المرتين الاوليين فى الحالة الاولى ، فاستخلصنا من كلامه مناسب كل مرة على حدة .

وأيضاً : حتى لا يكون فى قلبه شىء إلا بالتوحيد ، ولذا جاء فى بعض الروايات قوله : « فوليا عنى — يعنى الملكين — وكأنى أعاين الأمر معاينة »(١) .

وكذلك : غسل فى المرة الأولى بالثلج : لما يشعر الثلج من ثلج اليقين وبرده على الفؤاد ، وقد حصل له ثمة اليقين التام بوحدانية الله تعالى وبالأمر الذى يراد به .

ويستوحى العلماء كذلك دلالة طست الذهب على المعنى المقصود(٢) : فيقول السهيلى « فإن نظرت إلى لفظ الذهب : فمطابق للأذهاب ، فإن الله عزوجل أراد أن يذهب عنه الرجس ويطهره تطهيراً ، وإن نظرت إلى معنى الذهب وأوصافه : وجدته أنقى شىء وأصفاه ، يقال فى المثل : أنقى من الذهب ، وقالت بريرة فى عائشة — رضى الله عنها — ما أعلم عليها إلا ما يعلم الصائغ الذهب الأحمر !! وقال حذيفة فى صلة بن أشيم رضى الله عنهما : إنما قلبه من ذهب(٣) .

ثم كانت السكينة فى المرة الأولى أيضاً : لتسكين قلبه ﷺ بادىء ذى بدء عن الشهوات ، ولسكون قلبه إلى الله عزوجل وطمأنينته بذكره عز وجل .

---

(١) انظر الروض الأنف ١/١٩٠

(٢) جعل السهيلى مناسبة الذهب للمعنى المقصود فى كل حالى شق الصدر فى الطفولة وفى الكهولة . انظر المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر .

وأما ختم النبوة فى قلبه المقدس : فإن حكمته : الإشارة إلى ختم النبوة به ﷺ كما ذكره القسطلانى والزرقانى (١) .

وبينما قطع السهيلى بأن حديث شق الصدر — فى الرضاعة — قد أفاد تحديد زمان وكيفية وضع خاتم النبوة فيه ﷺ وأنه لم يولد به : رجح الحلبى — ونحن معه — أن هذا الخاتم غير خاتم النبوة الذى ولد به ﷺ لما صح من أنه ﷺ ولد به لاسيما وقد تعدد محل الختم فوجد بين كتفيه وفى قلبه الشريف(٢).

ومن ثم كانت حكمة الختم المبارك لدى الشق الأسبق : أن قلبه الشريف قد أودع من الأسرار الإلهية مالم تنشره الأخبار لأن تلك الأسرار لا يعلمها إلا الله تعالى فكان هذا الختام لحفظ أسراره التى أودعت فيه فلا يفضى إليها بعده بحال ، ولله در الإمام البوصيرى إذ قال :

شق عن قلبه وأخرج منه مضغة عند غسله سوداء
ختمته يمنى الأمين وقد أو دع ما لم يذع له أنباء ...
صان أسراره الختام فلا الفض ض ملم به ولا الإفضاء (٣)

وأما حكمة شق الصدر الشريف للمرة الثانية : ففضلا عما استأثر الله تعالى بعلمه من أسرارها قد استنبط العلماء لها حكما ، منها ما قاله

---

(١) انظر شرح الزرقانى على المواهب ١/١٥٢

(٢) أنظر السيرة الحلبية ١/١١٧ — ١١٨

(٣) نفس المصدر ١/١٢٠

الإمام ابن حجر الهيثمى : « وحكمة شق صدره الشريف فى حال صباه[١] واستخراج ما مر منه : تطهيره عن نقائص الصبا ليكون حينئذ على أكمل صفات الرجولية ، ولذا نشأ صلى الله عليه وسلم على أكمل الأحوال .

ـ قال بعض الأئمة : ولعل هذا الشق كان سببا لإسلام قرينه ـ المروى عند البزار ـ أو إشارة إلى حظ الشيطان المباين له كالعفريت الذى أراد أن يقطع عليه صلاته وأمكنه الله منه »[٢] .

قلت : وفيما ذكر لطيفة : حيث جعل الشق الأول لنزع حظ الشيطان من داخل الذات الشريفة وفى المرة الثانية كان الشق لقطع حظ الشيطان المباين خارجها ، فلا مطمع للعين فى الذات المحمدية مطلقا من قريب أو بعيد ، بوسوسة داخلية أو خارجية ! !

كذلك ينقل العلامة الزرقانى عن الشامى : أن الحكمة فيه : أن العشر قريب من سن التكليف فشق قلبه وقدس حتى لا يتلبس بشىء مما يعاب على الرجال »[٣] .

وأقول أيضا : وفوق عقولنا للحكيم سبحانه حكم وأسرار وفى العجز عن الإدراك إدراك[٤] ! !

---

(١) لا تخفى مغايرة حال صباه لحال طفولته ﷺ ، وقد أورد الامام ابن حجر هذه الحكمة عقب رواية الشق وهو ﷺ ابن عشر سنين .

(٢) أنظر : المنح المكية فى شرح الهمزية للإمام ابن حجر الهيثمى / ٤٤

(٣) أنظر شرح المواهب ١/١٥٣

(٤) هنا : التسليم بالعجز عما لا مطمع للعقل فى الوصول إليه من الأسرار ، وقد بين السهيلى بصدد ذكر تعدد شق الصدر ما تراءى له من حكم فى حدث الشق لدى الإسراء والمعراج فذكر أنه طهر لمعنى آخر وهو دخول حضرة القدس والصلاة فيها ولقاء الملك القدوس فغسله روح القدس بماء زمزم التى هى هزمة روح القدس .

﴿ خروجه ﷺ مع عمه أبي طالب إلى الشام ولقاء بحيرى ﴾

كانت رحلة مباركة تجسدت فيها آيات نبوته ﷺ رأى العين ونطق بها من عرف الكتاب وكان من أولى الألباب ، وقد كانت هذه رحلته الأولى إلى الشام فى صحبة عمه أبى طالب وهو إبن اثنى عشرة سنة كما ذكر ابن سعد وابن الجوزى فى روايتهما عن داود بن الحصين (١) .

وقد رويت وقائع هذا السفر فى عدة روايات من طرق شتى تتفاوت فى ذكر تفاصيلها ، ولكننا نؤثر أن نستقيها من الحديث الشريف أساساً . فنجد الإمام السيوطى يخرج لنا فيها حديثا عن ابن أبى شيبة والترمذى — الذى حسنه — والحاكم - الذى صححه - والبيهقى وابن نعيم والخرائطى - فى الهواتف عن أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه أنه قال :

« خرج أبو طالب إلى الشام فخرج معه رسول الله ﷺ فى أشياخ قريش ، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم ، فخرج إليهم الراهب ، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت لهم (٢) ، فجعل يتخللهم حتى جاء بيد رسول الله ﷺ وقال هذا سيد العالمين ، وهذا رسول رب العالمين ، يبعثه الله رحمة للعالمين !! فقال له أشياخ من قريش : ما علمك ؟

---

(١) أنظر طبقات ابن سعد ١/١٢١ .

(٢) اللفظ فى سنن الترمذى (٥/٥٩٠) وفى المستدرك (٢/٦١٥) « ولا يلتفت قال : فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب ، غير أن رواية المستدرك فيها « قال رهم » بالواو .

فقال : إنكم حين أشرفتم من العقبة : لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجداً ولا يسجدان إلا لنبي ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ، ثم رجع فصنع لهم طعاما ، فلما أتاهم به وكان هو فى رعية الإبل قال : أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله ، (فقال : أنظروا إليه غمامة تظله (١) فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فىء الشجرة ، فلما جلس : مال فىء الشجرة عليه ، فقال : أنظروا إلى فىء الشجرة مال عليه ، فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه ، فالتفت فإذا هو بتسعة نفر قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم ، فقال : ما جاء بكم ؟ .

قالوا جئنا إلى هذا النبي الذى هو خارج فى هذا الشهر ، فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس ، وإنا أخبرنا خبره فبعثنا إلى طريقك هذا (٢) .

قال : أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه ، هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ : قالوا : لا . قال : فبايعوه (٣) وأقاموا معه ، فأتاهم فقال : أيكم وليه ؟

---

(١) ما بين القوسين ساقط من رواية الترمذى .

(٢) فى رواية الترمذى (وإنا قد أخبرنا خبره بعثنا إلى طريقك هذا ، فقال هل خلفكم أحد هو خير منكم ؟ قالوا : انما إخترنا خيرة لك لطريقك هذا قال : أفرأيتم . .

(٣) قوله (فبايعوه) بفتح الياء — فعل ماض . أى أنهم إقتنعوا بقول الراهب فبايعوه صلى الله عليه وسلم .

قالوا : أبو طالب ، فلم يزل يناشده حتى رده(١) وبعث معه أبو بكر بلالا وزوده الراهب من الكعك والزيت »(٢) .

وقد اعتمد جل المؤرخين وأصحاب السير فى قصة بحيرى على رواية ابن اسحاق التى ساقها ابن هشام فى سيرته إذ قال : —

« قال ابن اسحق : ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجرا إلى الشام ، فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير : صب به رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما يزعمون — فرق له أبو طالب وقال : والله لأخرجن به معى ، ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا — أو كما قال — فخرج به معه ، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام ، وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له — وكان إليه علم النصرانية — ولم يزل فى تلك الصومعة قط(٣) راهب إليه

---

(١) فى رواية الترمذى : حتى رده أبو طالب . والمثبت من الخصائص الكبرى والمستدرك .

(٢) أنظر الخصائص الكبرى للامام السيوطى ١/٨٤ وقد عقب الحافظ السيوطى بقوله : ولها شواهد عدة سأوردها تقضى بصحتها إلا أن الذهبى ضعف الحديث لقوله فى آخره (وبعث معه أبو بكر بلالا) فإن أبا بكر لم يكن إذ ذاك متأهلا ولا اشترى بلالا ، وقد قال ابن حجر فى الاصابة : الحديث رجاله ثقات وليس فيه منكر سوى هذه اللفظة فتحمل على أنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر .

(٣) المثبت فى سيرة ابن هشام (ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهب) والمثبت من رواية دلائل النبوة للبيهقى ١ / ٣٧٣ والخصائص الكبرى للحافظ السيوطى ١ / ٨٤ .

يصير علمهم عن كتاب فيها — فيما يزعمون — يتوارثونه كابرا عن كابر، فلما نزلوا ذلك العام بحيرى — وكانوا كثيرا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام — فلما نزلوا به قريبا من صومعته: صنع لهم طعاما كثيرا، وذلك - فيما يزعمون - عن شيء رآه وهو فى صومعته.

يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى صومعته فى الركب حين أقبلوا وعمامة تظله من بين القوم.

قال: ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريبا منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة، وتهصرت أغصان الشجره على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها!!!

فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته، ثم أرسل إليهم فقال: إنى قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم، صغيركم وكبيركم، وعبدكم وحركم، فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن لك لشأنا اليوم! فما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيرا!! فما شأنك اليوم؟

قال له بحيرى: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما فتأكلوا منه كلكم، فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم، لحداثة سنه، فى رحال القوم تحت الشجرة.

فلما نظر بحيرى فى القوم: لم ير الصفة التى يعرف ويجد عنده، فقال: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى، قالوا له: يا بحيرى،

ما تخلف عنك أحد ينبغي أن يأتيك إلا غلام — وهو أحدث القوم سنا — فتخلف في رحالهم، فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. قال: فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى إن كان للؤما بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم.

فلما رآه بحيرى: جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرى فقال له: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه — وإنما قال له بحيرى ذلك: لأنه سمع قومه يحلفون بهما، فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما، فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له سلني عما بدا لك.

فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه، وهيئته، وأموره، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده.

قال ابن هشام: وكان مثل أثر المحجم.

قال ابن اسحق: فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟.

قال: ابني. قال له بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا.

قال : فإنه ابن أخى ، قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه حبلى به ، قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ماعرفت : ليبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده (١) .

* * *

(١) أنظر سيرة ابن هشام ١١٦/١ – ١١٨ ودلائل النبوة للبيهقى ٣٧٣/١ والخصائص الكبرى للحافظ السيوطى ٧٤/١ وعيون الأثر لابن سيد الناس ٤٠/١

الفصل السابع

فى ذكر شهوده صلى الله عليه وسلم

حرب الفجار ثم حلف الفضول

من المعالم الوضاءة فى حياة النبى ﷺ قبل مبعثه المبارك معايشته لجلل الأحداث التى عاصرها فى شبابه الزكى وإسهامه فيها بالقدر الذى شاءه له ربه عز وجل ، فإن حياة الصفوة من عباد الله جلت عن أن تصاغ بإعمال رأى أو تترك لمحض المصادفة أو تذوب فى خضم الأحداث ، بل هى الإشعاع النافذ إلى وجدان الحياة ليغمرها بالضياء ، وناهيك بالنور الأعظم والرحمة المهداة للعالمين جميعا ، فإن حياته الشريفة صلوات الله صلوات الله وسلامه عليه فوق كل المقاييس الخلقية(1) لأنها بعثت مهيمنة — بإذن الله تعالى — على الخليقة جمعاء !

ولقد كان من كبريات الأحداث التى عاشها النبى ﷺ إبان شبابه المبارك : « حرب الفجار » . والفجار — بكسر الفاء — بمعنى المفاجرة ، كالقتال بمعنى المقاتلة وقد سميت حرب الفجار بهذا الاسم : لأن القتال قد وقع فى الشهر الحرام ، ففجروا فيها جميعا . فسمى بالفجار(2) .

وقد كانت للعرب فجارات أربع - كما ذكره السهيلى نقلا عن

---

(1) الخلقية : بفتح الخاء وسكون اللام نسبة إلى الخلق .

(2) أنظر : الروض الأنف ١٠٩/١

المسعودى واستظهره الحلبى[1] — ولم يشهد النبى ﷺ إلا الحرب الأخيرة منها كما سيأتى ، بيد أن موضوعية البحث تقتضى إيرادها جميعا[2] .

فأما الفجار الأول :

فقد وقع وللنبى ﷺ عشر سنين ، وكان سببه : أن بدر بن معشر الغفارى كان له مجلس بجلس فيه بسوق عكاظ ويفتخر على الناس ، فبسط يوما رجله وقال : أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف !! فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته فأندرها[3].

وقد ذكر ابن الجوزى : أن الذى فعل ذلك ببدر الغفارى رجل من بنى نصر بن معاوية ، يقال له : الأحمر بن مازن . فاقتتلوا ، وكان الفجار الأول .

وأما الفجار الثانى : فكان سببه : أن امرأة من بنى عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فأطاف بها شاب من قريش — من بنى كنانة فسألها أن تكشف وجهها فأبت !! فجلس خلفها وهى لا تشعر وعقد ذيلها

---

(١) نفس المصدر والسيرة الحلبية ١٥٢/١

(٢) وجه هذا الاقتضاء : أن فى عرض أسباب هذه الحروب وملابساتها — قدر ما يسمح المقام — كشفا عن بعض الجوانب الاجتماعية والخلقية التى عاصرها النبى صلى الله عليه وسلم فى شبابه المبارك .

(٣) يقال : أندر الشىء بمعنى : أسقطه ، والمعنى هنا . أنه بتر رجله بالسيف : هذا ما أثبته ابن الجوزى فى الوفا (١٣٥/١) ونقل الحلبى فى سيرته (١٥١/١) عن بعضهم : أن الأصح هو ما قيل من أنه جرحه جرحا يسيرا .

بشوكة ، فلما قامت انكشف دبرها فضحك الناس منها[١] ، فنادت المرأة يا آل عامر فثاروا بالسلاح ، ونادى الشاب : يا بنى كنانة ، فاقتتلوا ووقعت بينهم دماء ، فتوسطها حرب بن أمية ، وأرضى بنى عامر من مثلة صاحبتهم[٢] .

وهنا ملحظ جوهرى أبداه الإمام الحلبى تعليقا على رواية الأثبات لهذه الواقعة إذ قال : « وقوله فسألها أن تكشف وجهها فأبت : يدل على أن للنساء فى الجاهلية كن يأبين كشف وجوههن »[٣] وهو — ولا شك — ملحظ له أهميته فى إبراز وتجلية نفاسة المعدن العربى الأصيل وتجسيد قيمه الرفيعة المثلى التى حاول الحاقدون على الجنس العربى طمسها وإبراز نقائضها التى تفشت فى الطبقة الدنيا من الأعراب ، ومن ثم : نقف من خلال الإلمام بسبب الفجار الثانى وأحداثه على طابع التحفظ والاحتشام لدى المرأة العربية فى العصر الجاهلى ، فإذا ما انتهكت حرمة المرأة من عابث مستهتر كانت الحرب المستعرة ثأرا للحرمة والكرامة ! !

وأما سبب الفجار الثالث : فهو أنه كان لرجل من بنى جشم بن عامر دين على رجل من بنى كنانة فلواه به ومطله ، فجرت بينهما الخصومة واقتتل الحيان ثم انقضت الحرب على إثر تحمل عبد الله بن جدعان لذلك الدين فى ماله[٤] .

---

(١) عبارة الوفا لابن الجوزى : « فضحكوا وقالوا : منعتينا النظر إلى وجهك وجدتى لنا بالنظر إلى دبرك » .

(٢) أنظر : الوفا (١/١٣٥) والسيرة الحلبية (١/١٥١) .

(٣) أنظر إنسان العيون للامام الحلبى ١/١٥١ .

(٤) أنظر الوفا لابن الجوزى ١/١٣٥ والمصدر السابق .

وهـذه الفجارات الثلاث لم يحضرها النبي ﷺ كما صرح به ابن الجوزي وغيره(١) .

وأما الفجار الرابع : — وهو الذي شهده الرسول ﷺ — فهو المعروف بفجار البراض ، وكان بين هوازن وكنانة التي ظاهرتها قريش .

وقد ذكر الرواة : أن سبب هـذا الفجار : أن النعمان بن المنذر — ملك الحيرة — كان يبعث إلى سوق عكاظ بلطيمة(٢) له للتجارة ، وذلك في جوار رجل من أشراف العرب ، فلما جهز اللطيمة كان عنده جماعة من العرب فكان فيهم : البراض بن قيس — أحد بني بكر بن عبد مناة بن كنانة — وكان خليعا ، وعروة بن عتبه بن جابر بن كلاب — وهو من هوازن — من بني قيس بن عيلان .

فقال البراض : أنا أجيرها على بني كنانة — يعني قومه — فقال له النعمان بن المنذر :

ما أريد إلا من يجيرها على أهل نجد وتهامة !

فقال له عروة الرحال : أنا أجيرها لك .

فقال له البراض : أتجيرها على كنانة ؟

---

(١) نفس المصدر الأسبق والسيرة الحلبية ١٥٢/١

(٢) ذكر الحلبي في سيرته : أن للطيمة هي العير التي تحمل الطيب والبز للتجارة ، فكان النعمان يرسلها لتباع في عكاظ ويشترى له بثمن ذلك أدم من أدم الطائف (أنظر الموضع الآنف) .

فقال : نعم ، وعلى أهل الشيخ والقيصوم ، ونال من البراض ! !

فخرج عروة الرحال مسافرا ، وخرج البراض خلفه يطلب غفلته حتى إذا كان بتيمن ذى طلال بالعالية(١) غفل عروة(٢) ، فوثب عليه البراض فقتله فى الشهر الحرام وهرب إلى خيبر فاستخفى بها ، ولقى بشر ابن أبى خازم الأسدى الشاعر فأخبره الخبر وأمره أن يعلم به بعض سادات بنى كنانة كعبد الله بن جدعان وهشام بن المغيرة وحرب بن أمية ، فوافى عكاظا فأخبرهم ، فخرجوا موائلين منكشفين إلى الحرم وهوازن لا تشعر بذلك ، ثم بلغهم الخبر آخر ذلك اليوم فقال كبيرهم — وهو أبو براء عامر بن مالك بن جعفر — : « ما كنا من قريش إلا فى خدعة » فخرجوا فى آثارهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرام(٣) فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم فأمسكت عنهم هوازن ، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياما ، يقول السهيلى معرفا بأيام هذا الفجار : —

---

(١) هكذا حدد مكان قتل عروة فى سيرة ابن هشام (أنظر السيرة النبوية مع الروض الأنف ٢٠٩/١) بينما ذكر ابن سعد فى طبقاته (١٢٧/١) أنه قتل حين نزل باللطيمة على ماء يقال له أوارة إذ وثب البراض عليه فقتله .

(٢) فسر الحلبى فى سيرته (١٥٢/١) غفلة عروة بأنه : شرب الخمر وغنته القينات فسكر ونام فجاء البراض وأيقظه فقال له الرحال : ناشدتك الله لا تقتلنى فإنها كانت منى زلة وهفوة ، فلم يلتفت إليه وقتله .

(٣) هكذا قال ابن هشام (أنظر سيرته مع الروض الأنف ٢١٠/١) بينما قال ابن سعد فى طبقاته (١٢٧/١) : « فخرجوا فى آثارهم فأدركوهم وقد دخلوا الحرم » وذكر الحلبى فى سيرته (١٥٢/١) أن هوازن أدركوا كنانة قبل دخولهم الحرم فأمسكت عنهم هوازن ثم التقوا بعد هذا اليوم وعاونت قريش =

« وكان لكنانة ولقيس فيه أربعة أيام مذكورة : يوم شمطة ، ويوم العبلاء — وهما عند عكاظ — ويوم الشرب — وهو أعظمها يوما — وفيه قيد حرب بن أمية وسفيان وأبو سفيان أبناء أمية أنفسهم كى لا يفروا ، فسموا : العنابس ، ويوم الحريرة عند نخلة ، ويوم الشرب : انهزمت قيس إلا بنى نضر منهم ، فإنهم ثبتوا . . »[1] .

حضور النبي ﷺ هذه الحرب وسطوع آية نبوته فيها ﷺ :

أجمعت المصادر على حضوره ﷺ حرب الفجار الأخير الذى كان بين كنانة وهوازن ومعها قريش ، فروى ابن سعد فى طبقاته أنه ﷺ : ذكر الفجار فقال : « قد حضرته مع عمومتى ورميت فيه بأسهم وما أحب أنى لم أكن فعلت »[2] .

= كنانة ، ثم قال : « ولا يخفى أن فى هذا تصريحا بأن القتال لم يكن فى الشهر الحرام ، لأنهم إذا كانوا فى الشهر الحرام لا يقاتلون مطلقا ، أي وإن لم يدخلوا الحرم فكفهم عن قتالهم لمقاربتهم دخول الحرم ، وقتالهم لهم فى اليوم الثانى دليل على أن قتالهم لم يكن فى الشهر الحرام » هذا ولا يخفى أن تسمية هذا الحرب بالفجار إنما هو لوقوع سببه وهو قتل البراض لعروة فى الشهر الحرام .

وقد ذكر ابن سعد أن قيسا قد واعدت كنانة وقريشا حين أدركوهم أن تكون الملاقاة بعد عام فلم تقم سوق عكاظ تلك السنة وظلوا طيلة السنة يتأهبون لهذه الحرب .

(١) الروض الأنف ٢٠٩/١ (٢) أنظر طبقات ابن سعد ١٢٨/١

كما روى بسنده عن حكيم بن حزام أنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ بالفجار وقد حضره »(١) .

ومن سواطع الآيات الباهرات والإرهاصات الدالة على نبوته ﷺ التي تجلت في حضوره ﷺ حرب الفجار : ما ذكره الإمام الحلبي — نقلا عن الإمتاع(٢) — إذ قال : — « كان أبو طالب يحضر أيام الفجار — أي فجار البراض — وكانت أربعة أيام ومعه رسول الله ﷺ : وهو غلام ، فإذا جاء : هزمت قيس — ولعل المراد قيس هوازن ، فلا ينافي ما يأتي من الاقتصار على هوازن — وإذا لم يجيء هو في أي يوم من تلك الأيام : هزمت كنانة !! فقالوا : لا أبالك ، لا تغب عنا ، ففعل »(٣) .

لقد كان حضوره ﷺ نصرا لقومه وهزيمة لأعدائهم ، وغيابه عن قومه هزيمة لهم حتى استصرخوه عليه الصلاة والسلام أن لا يغيب عنهم .

وقد اختلف علماء السير في اشتراكه ﷺ في القتال في حرب الفجار ، فنجد السهيلي يقول : « وإنما لم يقاتل رسول الله ﷺ مع أعمامه ، وكان ينبل عليهم — وكان قد بلغ سن القتال — ، لأنها كانت حرب فجار ، وكانوا كلهم كفارا ، ولم يأذن الله تعالى لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله هي العليا »(٤) .

---

(١) أنظر طبقات ابن سعد ١٢٨/١

(٢) ذكره الحلبي بهذا العنوان وأغلب الظن أنه كتاب (امتاع الإسماع فيما للنبي صلى الله عليه وسلم من الحفدة والمتاع) للمقريزي (أنظره في كشف الظنون ١٦٦/١) .

(٣) أنظر إنسان العيون للامام الحلبي ١٥٢/١

(٤) أنظر : الروض الأنف ٢٠٩/١

وكذلك يقول ابن الجوزى فى الوفا : « وحضر رسول الله ﷺ وقال :
ـ (كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار) أى : أنا ولهم النبل . . »[١] .

ومفاده : الاقتصار على مناولته صلى الله عليه وسلم النبل لأعمامه ورده عليهم نبل عدوهم دون رمى منه ﷺ بالأسهم أى : أنه ﷺ لم يقاتل فى حرب الفجار بنفسه كما جنح إليه السهيلى فيما مر آنفا .

بينما أثبتت رواية ابن سعد التى أوردناها فيما سبق إسهامه ﷺ فى قتال الفجار بالرمى بالأسهم حيث قال صلوات الله وسلامه عليه : « ورميت فيه بأسهم وما أحب أنى لم أكن فعلت » ، واستنادا إلى ذلك اتجه فريق إلى الجزم بقتاله ﷺ وقد وفق العلامة الحلبى بين الاتجاهين فقال : « وقد يقال : لا مخالفة ، لأنه ليس فى هذه العبارة[٢] أنه لم يرم ، بل فيها : أنه كان ينبل ، ويجوز أن يكون أغلب أحواله ﷺ ذلك ، أى : أنه كان ينبل ، أى يرد النبل ، فلا ينافى أنه رمى فى بعض الأوقات بأسهم »[٣] .

ولقد عزز الحلبى متجه قتاله ﷺ فى هذه الحرب بما نقله عن صاحب « الإمتاع » من أنه ﷺ طعن أبا براء[٤] ملاعب الأسنه فى تلك الحروب أى : فى بعض تلك الأيام[٥] . وقد استظهر الحلبى من ذلك أنه ﷺ لم يقتصر

---

(١) أنظر : الوفا بأحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم ١٣٥/١

(٢) يشير إلى عبارة رواية بن الجوزى « كنت أنبل على أعمامى » .

(٣) أنظر : إنسان العيون ١٥١/١

(٤) هو عامر بن مالك بن جعفر الذى كان يلى أمر قيس هوازن ، وكانت راية القتال بيده ، وهو الذى سوى صفوفهم كما ذكر ابن سعد فى طبقاته ١٢٧/١

(٥) انظر : إنسان العيون ١٥٢/١

فى قتاله ـ فى حرب الفجار ـ على الرمى بالأسهم . بل لقد طعن بالرمح أيضاً حيث أن الطعن ظاهر فى الرمح محتمل للنبل ، والحمل على الظاهر أولى حيث لامعارض له .

ثم لقد رد مدعى السهيلى ـ وهو عدم قتال الرسول ﷺ مع أعمامه بحجة أنها كانت حرب فجار ـ بما ذكره من أن حرب الفجار هذا لم يكن فى شهر حرام وإنما كان سببه ـ وهو قتل البراض لعروة الرحال ـ هو الذى كان فى الشهر الحرام ، ومما يدل على كون الحرب نفسها لم تكن فى الشهر الحرام : أن هوازن لما بلغها خبر قتل عروة أتبعوا كنانة فأدركوهم قبيل دخولهم الحرم . فأمسكت عنهم هوازن ، ثم التقوا بعد هذا اليوم وعاونت ريش كنانة .

قال للعلامة الحلبى : ولا يخفى أن فى هذا تصريحاً بأن القتال لم يكن فى الشهر الحرام (١) ، لأنهم إذا كانوا فى الشهر الحرام لا يقاتلون مطلقاً ـ ى وإن لم يدخلوا الحرم ـ فكفهم عن قتالهم لمقاربتهم دخول الحرم وقتالهم لهم فى اليوم الثانى دليل على أن قتالهم لم يكن فى الشهر الحرام »(٢) .

وأما احتجاج العلامه السهيلى للقول بعدم قتاله ﷺ بكون كل المحاربين من الفريقين كفاراً وأن الله تعالى لم يأذن لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله هى العليا : فيمكن أن يرد بأن وجه الحكمة من قتاله ﷺ وإن خفى

---

(١) يؤيد ذلك مانقله الإمام الصالحى فى سيرته (٢/٢٠٥) عن الواقدى أنه كان فى شوال ، وعن السهيلى أنه كان فى شعبان .

(٢) انظر نفس المصدر السابق .

عنا لكنه جلى فى حقه ﷺ بدليل قوله صلوات الله وسلامه عليه - فى رواية ابن سعد - « ورميت فيه بأسهم وما أحب أنى لم أكن فعلت » . فلا ريب أن نفى حبه لعدم القتال يؤخذ منه بمفهوم المخالفة حبه للقتال فى هذه الحرب وماذاك إلا لما أراه الله تعالى إياه من الحق المقتضى لقتاله ﷺ فى حرب الفجار .

وقد اختلف فى سنه ﷺ وقت شهوده حرب الفجار واشتراكه فى خوضها ، فقال ابن الجوزى . « وكان لرسول الله ﷺ يومئذ أربع عشرة سنة ، ويقال : عشرون سنة » وهذا ماذكره ابن سعد فى طبقاته إذ قال : « فكان يوم حضر ابن عشرين سنة [١] » .

وروى ابن هشام عن أبى عبيدة عن عمرو بن العلاء : أن حرب الفجار قد هاجت بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان : لما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة أو خمس عشرة سنة [٢] بيد أنه قد روى عن ابن إسحق أنها هاجت ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة [٣] .

ولعل هذا الاختلاف فى سنه ﷺ آنذاك راجع إلى امتداد فترات حرب الفجار التى مكثت عدة أعوام ، فمن المحتمل أن تكون بداية الفجار وعمره ﷺ أربع عشرة أو خمس عشرة سنة كما روى ابن هشام ثم امتدت على فترات حتى كانت نهايتها عند بلوغه ﷺ العشرين من عمره المبارك كما ذكر ابن سعد وابن إسحق [٤] .

---

(١) انظر الوفا بأحوال المصطفى ﷺ ١/١٣٥ وطبقات ابن سعد ١/١٢٨

(٢) انظر سيرة ابن هشام ومعها الروض الأنف ١/٢٠٩

(٣) انظر الروض الأنف للسهيلى ١/٢١٠

(٤) ممن نحا هذا المنحى للتوفيق بين الروايات المختلفة : الشيخ محمد الصادق -

ولقد كان مآل حرب الفجار آخرا هو الصلح بعد قتال عنيف دارت فيه الدائرة على هوازن حيث كانت الدبرة(١) لكنانة وقريش على هوازن فقتلوهم قتلا ذريعاً . وكان رئيس قريش وكنانة حرب بن أمية ، وكان عتبة بن ربيعة يتيما فى حجره ، وقد أشفق حرب من خروجه معه للقتال فضن به ، بيد أن عتبه قد خرج للفجار بغير إذنه وكان شاباً دون الثلاثين -كما ذكر ابن سعد- فلم يشعروا به إلا وهو على بعيره بين الصفين ينادى بالصلح بين الفريقين على أن يعد القتلى من الجانبين وتدفع كنانه وقريش لهوازن دية من قتل منها فضلا عن قتلاهما ويتم العفو عن الدماء فقالت هوازن : وكيف ؟ فقال عتبة : ندفع إليكم رهنا منا . قالوا : ومن لنا بهذا ؟ قال : أنا !! قالوا : ومن أنت ؟ قال : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، فرضوا ورضيت كنانة ، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلا فيهم حكيم بن حزام ، فلما أبصر بنو عامر بن صعصعة الرهن فى أيديهم عفوا عن الدماء وأطلقوهم وانتهت بذلك حرب الفجار !! ونال عتبة بن ربيعة بهذا الموقف مكانة فى تاريخ العرب حيث قيل: لم يسد من قريش مملق إلا عتبة وأبو طالب فإنهما سادا بغير مال .(٢) .

- عرجون فى كتابه (محمد ﷺ من نبعته إلى بعثته) ص ١٧٥ والدكتور محمد حسين هيكل فى (حياة محمد) ص ١١٧

(١) الدبرة - بفتحتين - هى الهزيمة فى القتال ، وهى اسم من الإدبار .

(٢) انظر : الروض الأنف ٢١١/١ وارجع إلى طبقات ابن سعد ١٢٨/١

حضوره صلى الله عليه وسلم حلف الفضول

ولهذا الحلف علاقة وثيقة بحرب الفجار ، وله دلالة عميقة تجسد اعتداد العرب بالقيم النبيلة العليا وتمسكهم بأشرف المبادىء فى سياستهم وفى حياتهم الاجتماعية التى جردها الحاقدون من كل فضيلة ومأثرة .

فأما علاقة هذا الحلف بحرب الفجار : فثمة علاقة زمنية وعلاقة سببية ، فالعلاقة الزمنية : أنهما كانا فى عام واحد وفى فترة زمنية محددة من حياة الرسول ﷺ وهى منتصف عمره الشريف قبل البعثة المباركة ، وفى إطار هذه العلاقة الزمنية(1) التى لا يقع ترتيبها بمحض الصدفة بل بتدبير إلهى حكيم : نجد لكل من الحدثين الكبيرين المقترنين فى هذا التوقيت بعده المجسد فى شخصية الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وكلا البعدين مكمل للآخر فى نطاق التربية الإلهية المثلى للرسول الكامل ﷺ .

فلقد كان شهوده ﷺ حرب الفجار واشتراكه فيها محكا تجريبياً وتدريبياً للجانب القتالى الحربى فى شخصيته ﷺ . ثم كان فى حضوره حلف الفضول إنطلاق للجانب السياسى فى حياته صلوات الله وسلامه عليه ، وكلا الجانبين من أبرز مقومات الرسول القائد والراعى العظيم المضطلع بقوامة خير أمة أخرجت للناس .

من ثم : كان لتوقيت الحدثين وارتباطهما حكمته ودلالته البارزتين .

---

(1) تتزاوج مع هذه العلاقة الزمنية وتنوط بها علاقة تكامل وتكميل خاصة بالرسول الأعظم صلوات الله وسلامه عليه يتضح مرآتها فى سياق الحديث .

وقد نطقت الروايات المتعددة بتاريخ هذا الارتباط ، منها ما رواه ابن سعد بسنده عن عروة بن الزبير رضى الله عنه أنه قال : سمعت حكيم ابن حزام يقول : « كان حلف الفضول منصرف قريش من الفجار ورسول الله ﷺ يومئذ ابن عشرين سنة »(١) .

ويروى ابن سعد عن الواقدى أن الفجار كان فى شهر شوال وحلف الفضول كان فى ذى القعدة(٢) .

أما العلاقة السببية بين الحدثين : فإن حرب الفجار قد اشتركت فيها قريش مع كنانة بمقتضى تحالف بينهما فاضطرت إلى خوضها رغم انتهاكها لحرمة الشهر الحرام وقد أريقت فيها الدماء بغزارة ولعل شعور قريش بالتورط فى خوض تلك الحرب كان المحرك لدعوتهم للصلح فيها آخر(٣) .

وكان هذا الشعور نفسه هو المنطلق للدعوة إلى إبرام حلف قائم على التناصر لإحقاق الحق وإنصاف المظلوم ، وما أحرى رسول الحق صلى الله عليه وسلم بالمشاركة فى هذا الحلف ومباركته بحضوره الكريم !!

ولقد غفا المؤرخون وعلماء السير عن إبراز هذه العلاقة السببية بين الفجار وحلف الفضول ، وأثبتوا أسبابا أخر لعقد حلف الفضول هى دون ما ذكرنا فى عموم السببية وإحكام الوشيجة واستبطان جـذور الأحداث ، وإن كانت تدور أيضا فى فلك السببية .

---

(١) أنظر طبقات ابن سعد ١٢٨/١ وانظر الوفا لابن الجوزى ١٣٧/١

(٢) نفس المصدرين .

(٣) أنظر : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول صلى الله عليه وسلم للدكتور أحمد ابراهيم الشريف ص ١٤٠ ط دار الفكر العربى بالقاهرة .

فمرة يقول ابن الجوزى : « وسبب هذا الحلف : أن قريشا كانت تتظالم فى الحرم »[١] .

ومرة أخرى يروى عن أبى عبيدة أنه قال : « كان سبب حلف الفضول : أن رجلا من اليمن قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها رجل من بنى سهم ، فلوى الرجل بحقه ، فسأله ماله فأبى عليه فسأله متاعه فأبى عليه ، فقام على الحجر وقال : —

يا آل فهر لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائى الدار والنفر
ثم من بنى سهم بذمتهم
أم ذاهب فى ضلال مال معتمر »[٢]

ثم يروى عن أبى عبيدة سببا آخر إذ يقول : « قال : وقال بعض العلماء : إن قيس بن شبة السلمى باع متاعا من أبى بن خلف ، فلواه وذهب بحقه ، فاستجار برجل من جمح فلم يقم بجواره ، فقال قيس : —

يا قصى كيف هذا فى الحرم   وحرمة البيت وأخلاق الكرم
أظلم لا يمنع منى ظلم

فقام العباس وأبو سفيان حتى ردوا عليه حقه ، واجتمعت رجال من قيس فى دار عبد الله بن جدعان فتحالفوا على رد الظلم بمكة وأن لا يظلم أحد بمكة ، وأن لا يظلم أحد إلا منعوه وأخذوا له بحقه »[٣] .

---

(١) أنظر الوفا لابن الجوزى ١/١٣٥

(٢) ، (٣) نفس المصدر .

وتجتمع جملة هذه الأسباب — مضافة إلى ماذكرنا — ليقوم بها أعظم حلف عرفته العرب فى جاهليتها وقوامه : العدل الرشيد ، ونصرة المظلوم حتى ينال حقه والتعاون على انتزاع الحق لصاحبه شريفا كان أو وضيعا ومهما كانت صفة مغتصبه أو قوته وعلى التآسى فى المعاش . وقد انبثقت فكرته من الزبير عم النبى صلى الله عليه وسلم :

يقول ابن سعد فى طبقاته : « قال محمد بن عمر : وأخبرنى غير الضحاك قال : كان الفجار فى شوال . وهذا الحلف فى ذى القعدة ، وكان أشرف حلف كان قط ، وأول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب . فاجتمعت بنو هاشم ، وزهرة ، وتيم فى دار عبد الله بن جدعان(١) فصنع لهم طعاما فتعاقدوا وتعاهدوا بالله(٢) ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه ما بل بحر صوفة ، وفى التآسى فى المعاش ، فسمت قريش ذلك الحلف: حلف الفضول »(٣) .

---

(١) هو عبد الله بن جدعان التيمى ، كان سيدا فى قومه ذا شرف وسن ، وكان من جملة من حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية بعد كلفه بها ، وكان بنو تيم فى حياته كأهل بيت واحد يقوتهم ، وكان يذبح فى داره كل يوم جزورا وينادى مناديه : من أراد الشحم واللحم فعليه بدار ابن جدعان (أنظر السيرة الحلبية ١/١٥٤) .

(٣) العبارة فى الطبقات « وتعاهدوا بالله القائل لنكونن » ولا شك أن لفظة (القائل) ههنا بمعزل عن السياق مما يغلب على الظن أنها مدرجة فى النص بدليل خلو رواية ابن الجوزى عنها فى الوفا ١/١٣٧

(٣) أنظر : طبقات ابن سعد ١/١٢٨ — ١٢٩

وقد نقل ابن الجوزى عن الزبير بن بكار عن عبد العزيز بن عمر العنسى تحديدا أوسع لأهل هذا الحلف إذ قال : « وأهل حلف الفضول : بنو هاشم وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزى ، وبنو زهرة ، وبنو تيم ، تحالفوا بالله أن لا يظلم أحد إلا كنا جميعا مع المظلوم على الظالم حتى نأخذ له مظلمته ممن ظلمه شريفا ووضيعا »(١) .

ولقد شرف هذا الحلف بحضور أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم ولا عجب فهو نبى الحق والمعدلة ، وأجدر به صلوات الله وسلامه عليه أن يبارك هذا الحلف وأن يعتز بالمشاركة فيه ، وأن يدعى به فى الإسلام .

فقد روى ابن إسحق بسنده إلى طلحة بن عبدالله بن عوف الزهرى ، كما روى ابن سعد والبيهقى عن جبير بن مطعم رضى الله عنهما أنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت فى دار عبد الله ابن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت »(٢) .

كذلك روى الإمام أحمد والحاكم عن سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شهدت حلف

---

(١) أنظر الوفا لابن الجوزى ١٢٧/١

(٢) أنظر : سيرة ابن هشام بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ٨٧/١ ط / صبيح ، واللفظ منه ، وانظر : الروض الأنف ١٥٨/١ ، وطبقات ابن سعد ١٢٩/١ وانظر سبل الهدى والرشاد للشامى — وبه التخريج — ٢٠٩/٢ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

المطيبين مع عمومتى وأنا غلام فما أحب أن لى حمر النعم وأنى أنكثه »[1] .

وكذلك روى البيهقى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما شهدت حلفا لقريش إلا حلف المطيبين ، وما أحب أن لى حمر النعم وأنى كنت نقضته »[2] - قال : والمطيبين : هاشم ، وأمية ، وزهرة ، ومخزوم - .

قال البيهقى : « كذا روى هذا التفسير مدرجا فى الحديث ولا أدرى قائله . وزعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفضول وأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يدرك حلف المطيبين »[3] .

وقد حقق العلامة الحلبى رحمه الله ورضى عنه وجه ذكر « المطيبين » فى حديث البيهقى أنه يحتمل فيه أمران : أحدهما : أن لفظ « المطيبين » مع تفسيره مدرج فى الحديث من أحد الرواة ، حيث أن النبى ﷺ لم يدرك حلف المطيبين المتقدم على ولادته صلى الله عليه وسلم ، وقد كان بين بنى عبد مناف بن قصى وهم : هاشم وإخوته عبد شمس والمطلب ونوفل وبنو زهرة وبنو أسد بن عبد العزى وبنو تيم وبنو الحارث ابن فهر - وهؤلاء هم المطيبون - وبين بنى عمهم عبد الدار بن قصى

---

(١) أنظر المسند للامام أحمد ١/١٩٠ والفتح الكبير للامام النبهانى ٢/١٧٨

(٢) أنظر دلائل النبوة للبيهقى ١/٣٨٨ - ٣٨٩ بتحقيق السيد صقر .

(٣) نقل الأستاذ السيد صقر فى تعليقه على دلائل النبوة للبيهقى - بالموضع المذكور آنفا - تعقب البيهقى على الحديث فى سننه الكبرى (٦/٣٦٦) الذى قال فيه : « وبلغنى أنه إنما قيل : (حلف المطيبين) : لأنهم غمسوا أيديهم فى طيب =

وأحلافهم بنى مخزوم وغيرهم ويقال لهم «الأحلاف» . وحيث أنه صلى الله عليه وسلم لم يدرك هذا الحلف — لوقوعه قبل ولادته — يصير لفظ (المطيبين) مع تفسيره مدرجا فى حديث البيهقى ، وحينئذ تكون الرواية : «ما شهدت حلفا لقريش إلا حلفا مع عمومتى . . . » إلخ .

وقد ظن الراوى أن حلف الفضول هو حلف المطيبين فذكر لفظ (المطيبين) وبنيهم[1] .

بيد أن هذا الاحتمال الذى أبرزه الحلبى — مستقى من تعليق البيهقى على حديثه فى الدلائل — قد يقف فى وجهه ما رواه الإمام أحمد والحاكم من قوله صلى الله عليه وسلم — فى الحديث السابق — «شهدت حلف المطيبين مع عمومتى . . . » إلخ .

حيث ورد فيه لفظ المطيبين أيضا ، ويبعد أن يكون الإدراج قد اعترى روايتى الإمام أحمد والحاكم أيضا .

وأما الاحتمال الثانى : الذى أبداه العلامة الحلبى : فهو : ما استند فيه إلى ما ذكره ابن إسحق من أنه لما قام عبد الله بن جدعان هو والزبير ابن عبد المطلب فى الدعوى للتحالف أجابهما بنو هاشم وبنو المطلب

=يوم تحالفوا ، وتصافقوا بأيمانهم وذلك حين وقع التنازع بين عبد مناف وبنى عبد الدار فيما كان بأيديهم من السقاية ، والحجابة ، والرفادة ، واللواء ، والندوة . . . » إلخ .

(١) أنظر : إنسان العيون للعلامة الحلبى ١٥٦/١

وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تميم(١). — قال الحلبى — : ولا يخفى أن هؤلاء أجل المطيبين، أطلق على هذا الحلف — الذى هو حلف الفضول — حلف المطيبين لأنهم العاقدون له فليتأمل»(٢) اهـ.

وهذا الاحتمال أرجح عندى من سابقه لوجود حيثيته من جهة، ولعدم الجنوح إلى دعوى الإدراج فى الأحاديث المصرحة بذكر «المطيبين» — بناء عليه — من جهة أخرى.

وأما سبب تسمية هذا الحلف بالفضول: فقد نقل السهيلى عن ابن قتيبة أنه قال: كان قد سبق قريشا إلى مثل هذا الحلف: (جرهم) فى الزمن الأول، فتحالف منهم ثلاثة هم ومن تبعهم، أحدهم: الفضل بن فضالة، والثانى: الفضل بن وداعة، والثالث: فضيل ابن الحارث(٣)، فلما أشبه حلف قريش الآخر فعل هؤلاء الجرهمين سمى: حلف الفضول.

وثمة سبب آخر أقوى من هذا وأحرى بالقبول لوروده فى الحديث الشريف الذى رواه الحميدى — بسنده — عن سيدنا محمد وعبد الرحمن ابنى سيدنا أبى بكر الصديق — رضى الله عنهم — قالا: قال رسول الله

---

(١) أنظر: سيرة ابن هشام بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ٨٧/١ ط: صبيح.

(٢) أنظر: السيرة الحلبية ١٥٦/١

(٣) هذا قول القتبى — فيما حكاه عنه السهيلى — بيد أن السهيلى قد نقل عن الزبير بن بكار: أن الثلاثة هم: الفضيل بن شراعة، والفضل بن وداعة والفضل بن قضاعة، أنظر: الروض الأنف ١٥٥/١]

صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا لو دعيت به فى الإسلام لأجبت ، تحالفوا أن ترد الفضول على أهلها ، وألا يعز ظالم مظلوما »[1]

أثر حلف الفضول : كان لهذا الحلف أعظم الأثر فى رعاية الحقوق وأدائها . وحفظ الأعراض وصيانتها والأخذ بيد الضعيف إذ يظلم حتى ينتصف له من الظالم ، وللتدليل على ذلك نسوق روايتين تجسدان أثر هذا الحلف فى نصرة الحق .

روى السهيلى إحداهما — نقلا عن قاسم بن ثابت من غريب الحديث — أن رجلا من خثعم قدم مكة معتمرا — أو حاجا — ومعه بنت له يقال لها « القتول » ، من أوضأ نساء العالمين فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج ، وغيبها عنه ، فقال الخثعمى : من يعدينى على هذا الرجل ؟

فقيل له : عليك بحلف الفضول . فوقف عند الكعبة ونادى : « ياالحلف الفضول » !

فإذا هم يعنقون إليه من كل جانب . وقد انتضوا أسيافهم ، يقولون :

---

(١) خرجه السهيلى — فى المصدر السابق — عن الحميدى ، كما خرجه — فى نفس المصدر — عن مسند الحارث بن عبد الله التميمى ، وعقبه بقوله « فقد بين هذا الحديث : لم سمى حلف الفضول » ، وأضاف الحلبى سببين آخرين : أحدهما : أن هؤلاء الذين تحالفوا كانوا قد أخرجوا فضول أموالهم للأضياف ، والثانى : أن قريشا قالوا عن أولئك الذين تحالفوا : (لقد دخل هؤلاء فى فضول من الأمر) .

جاءك الغوث فما لك ؟ فقال : إن نبيها ظلمنى فى ابنتى وانتزعها منى قسراً ، فساروا معه حتى وقفوا على باب الدار ، فخرج إليهم ، فقالوا له : قد علمت من نحن ، وما تعاقدنا عليه ، فقال : أفعل ولكن متعونى بها الليلة ، فقالوا له : لا ولا شخب لقحة[1] فأخرجها إليهم[2] .

وهكذا : كان حلف الفضول منقذاً وحامياً للعرض ومغيثاً للملهوف ونجدة للضعيف .

والإمام الحسين يهدد الوليد بالدعوة إلى إحياء الحلف :

كذلك كان من أثره ما رواه ابن إسحق بسنده عن محمد بن إبراهيم ابن الحارث التيمى : أنه كان بين مولانا الإمام الحسين بن سيدنا على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما ، وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان — والوليد يومئذ أمير على المدينة ، أمره عليها عمه معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه — منازعة فى مال كان بينهما بذى المروة ، وكان الوليد قد تحامل على الإمام الحسين فى حقه لما له من سلطان ، فقال له سيدنا الحسين رضى الله تعالى عنه :

أحلف بالله لتنصفنى من حقى أو لآخذن سيفى ثم لأقومن فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لأدعون بحلف الفضول ! !

قال : فقال عبد الله بن الزبير — وهو عند الوليد حين قال سيدنا الحسين

---

(١) الشخب — بضم الشين وسكون الخاء — : ما خرج من الضرع من اللبن ، واللقحة : الناقة القريبة العهد بالنتاج وتكون عادة غزيرة اللبن ، والمعنى : ولا قدر خروج اللبن من ضرع اللقحة !

(٢) أنظر الروض الأنف ١٥٧/١ .

رضى الله عنه ما قال — : وأنا أحلف بالله لئن دعابه لآخذن سيفى ثم لأقوم معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعا ! ! — قال — فبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهرى ، فقال مثل ذلك ، وبلغت عبد الرحمن ابن عثمان بن عبيد الله التيمى ، فقال مثل ذلك ، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة : أنصف الإمام الحسين من حقه حتى رضى[1] . رضى الله تعالى عنه وحشرنا فى زمرته من الآمنين يوم الدين .

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ١/٨٧—٨٨

الفصل الثامن

فى ذكر ما كان النبى صلى الله عليه وسلم

يتعبد به قبل النبوة ورعيه للغنم واشتغاله بالتجارة

ليس بمقدور أى بشر عادى أن يقوم حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى أى مرحلة من مراحلها ولا فى أى جانب من جوانبها ، لأن عناية الحق تعالى به فوق مستوى الإدراك البشرى وفوق كل المقاييس التى عرفها البشر . وكيف لا وهو بأعين الرحمن منذ خلقه ربه قبل خلق الأشياء ومحوط بكلاءته عز وجل على الدوام كما قال جل شأنه « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا »(١) .

أجل : فقد كان بأعين الحق تعالى وهو حقيقة بظهر الغيب قبل ظهوره فى عالم الشهادة ، وكان بأعينه تعالى منذ وجد فى عالم الظهور ودرج فى نشأته النورانية ، غلاما زكيا إلى أن صار كهلا مرضيا فكانت حياته الشريفة قبل البعثة وبعدها فى ذرى الكمال الأعلى الذى لم يرتق إليه مخلوق سواه صلى الله عليه وسلم ، إذ اجتمعت له صلوات الله وسلامه عليه بجامع الكمال ومحامد الصفات والخلال .

يقول ابن إسحق فى وصف حياته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة : « فشب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته حتى بلغ أن كان رجلا

---

(١) سورة الطور /٤٨

أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال ، تنزها وتكرما ، حتى ما اسمه فى قومه إلا الأمين ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما ذكر لى — يحدث عما كان الله يحفظه به فى صغره وأمر جاهليته »[1] .

أجل : لقد كان صلى الله عليه وسلم محفوظا فى صباه وفى شبابه المبارك من كل دنس كان فى الجاهلية ومما يدلنا على ذلك :

ما رواه ابن الجوزى عن الإمام ابن عباس — رضى الله تعالى عنهما — أنه قال : حدثتنى أم أيمن قالت : كانت بوانة صنما تحضره قريش وتعظمه وتنسك له المناسك ، ويحلقون رءوسهم عنده ، ويعكفون عنده يوما إلى الليل وذلك يوم فى السنة ، وكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد مع قومه ، فيأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ورأيت عماته غضبن عليه أشد الغضب وجعلن يقلن : إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا ، وجعلن يقلن ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا ! فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع فزعا مرعوبا ، فقلن له عماته : مادهاك ؟ قال : أخشى أن يكون بى لمم !

---

(١) أنظر : سيرة ابن هشام ١/١١٨—١١٩ وانظر دلائل النبوة للبيهقى بتحقيق السيد صقر ١/٣٦٧ .

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير مافيك ،
فما الذى رأيت ؟

قال : إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح
بى : وراءك يا محمد لا تمسه !

قالت : فما عاد إلى عيدهم حتى نبىء صلى الله عليه وسلم »(١) .

وأيضا مما يدلنا على حفظه صلى الله عليه وسلم ونقائه — قبل بعثه
— من أمر الجاهلية . ما رواه ابن سعد عن محمد بن عمر عن شيوخه —
من قصة لقاء النبى صلى الله عليه وسلم ببحيرى أثناء وجوده مع عمه أبى
طالب بالشام — حيث قال له بحيرى : أسألك بحق اللات والعزى إلا
أخبرتنى عما أسألك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسألنى باللات
والعزى ، فوالله ما أبغضت شيئا بغضهما »(٢) .

فأما عن الدين الذى كان يتعبد به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
قبل بعثه : فإنما هو الحنيفية فقد نقل ابن الجوزى عن أبى الوفا على بن
عقيل أنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متدينا قبل بعثه
ونزول الوحى عليه بما يصح عنده أنه من شريعة إبراهيم .

فأما بعد مبعثه : فهل كان يتعبد بشريعة من قبله ؟ فيه روايتان :

إحداهما : أنه كان متعبدا بما صح من من شرائع من قبله بطريق

---

(١) أنظر : الوفا لابن الجوزى ١٣٩/١

(٢) أنظر : طبقات ابن سعد ١٥٤/١ والمرجع السابق

الوحى إليه لا من جهتهم ولا بعلمهم ، ولا كتبهم المنزلة . واختاره أبو الحسن التميمى وهو قول أصحاب أبى حنيفة .

والرواية الثانيه . أنه لم يكن يتعبد بشىء من الشرائع إلا ما أوحى إليه فى شريعته . وهو قول المعتزلة والأشعرية ، ولأصحاب الشافعى قولان كالروايتين .

قال : واختلف القائلون بأنه متعبد بشرع من قبله ، بأى شريعة كان متعبدا ؟ ، فقال بعضهم : بشريعة إبراهيم خاصة . وإليه ذهب أصحاب الشافعى .

وذهب قوم منهم : إلى أنه كان متعبدا بشريعة موسى إلا ما نسخ فى شرعنا .

وظاهر كلام أحمد : أنه كان يتعبد بكل ما صح أنه شريعة النبى قبله ما لم يثبت نسخه ، يدل عليه قوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »[1] . . . »[2] .

ونقل ابن الجوزى أيضا عن ابن قتيبة أنه قال : « لم تزل العرب على بقايا من دين إسماعيل ، من ذلك : حج البيت ، والختان ، وإيقاع الطلاق إذا كان ثلاثا ، وأن للزوج الرجعة فى الواحدة والاثنين ، ودية النفس مائة من الإبل ، والغسل من الجنابة ، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما كانوا عليه من الإيمان بالله والعمل بشرائعهم فى الختان والغسل والحج[3] .

---

(١) سورة الأنعام /٩٠

(٢) ، (٣) أنظر الوفا لابن الجوزى ١/١٤٠

ولقد كان التعبد فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم — قبل المبعث — متعدد الجوانب ، ولا يستطيع بشر أن يحيط به كما أو كيفا لأن العبادة صلة المخلوق بخالقه وهو صلوات الله وسلامه عليه أعظم مخلوق وأكرم الخلق على ربه عز وجل ، كما شهد التنزيل الحكيم بأنه صلى الله عليه وسلم أول العابدين لله تعالى « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين »[1] وكان تعبده ونسكه صلى الله عليه وسلم على امتداد عمره المبارك وقد عرف ذلك فى حال نشأته كما قال الإمام البوصيرى فى همزيته .

ألف النسك والعبادة والخلـ ـلوة طفلا وكذا النجباء
وإذا حلت الهداية قلبـا نشطت فى العبادة الأعضاء

وعن ضروب تعبده قبل المبعث الشريف يقول الإمام الحلبى « وقيل : كان تعبده صلى الله عليه وسلم : التفكر مع الانقطاع عن الناس . . » ثم يقول بعد : « وقيل : تعبده ﷺ كان بالذكر وصححه فى سفر السعادة[2] .

ثم بدنو المبعث كانت الخلوة بغار حراء - وذلك بعد زواجه من السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها - فكان ﷺ يجاور فى حراء فى كل سنة شهرا وقد قيل إنه ﷺ مكث خمس عشرة سنة يسمع صوت الملك أحيانا ولا يرى شخصا وسبع سنين يرى نورا ولم ير شيئا وقد نقل الإمام الحلبى هذه الأقوال[3] وكلها دون الحقيقة العليا التى هى سر بين الحق تعالى ومصطفاه ﷺ .

---

(١) سورة الزخرف /٨١

(٢) ، (٣) أنظر إنسان العيون ١/٢٧٠ — ٢٧٢

وأما عن رعيه ﷺ الغنم قبل المبعث : فإن له دلالات جلى كشأن اشتغاله بالتجارة فكلاهما له أوثق علاقة بإعداده ﷺ للرسالة العظمى وهى الكفيلة بإصلاح المعاش والمعاد ، وقد جاء ذكر رعيه ﷺ فى صحيح الحديث ، إذ روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم ، فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : نعم ، كنت أرعاها على قراريط(1) لأهل مكة »(2) .

وقد أورد ابن الجوزى قبسا من حكم اشتغاله — وسائر الأنبياء — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بالرعى فقال : « قال ابن عقيل : لما كان الراعى يحتاج إلى سعة خلق وانشراح صدر المدارة ، وكان الأنبياء معدين لإصلاح الأمم حسن ذلك فى حقهم »(3) .

وكذلك اشتغاله صلى الله عليه وسلم بالتجارة :

كان تعبدا لله تعالى بابتغاء فضله ، وطلبا لرزقه الحلال من عمل يده فشاعت أمانته فى قومه حتى لقب بالأمين فكان لذلك أجل الأثر فى إيمان عارفيه بدعوته صلى الله عليه وسلم ، ففى التجارة تظهر أخلاق الرجال ومعادنهم وتصقل مواهبهم وعزائمهم ! !

---

(1) القراريط : أجزاء من الدراهم والدنانير وقيل موضع بمكة ، ورجح الأول . وقد جمع الحافظ ابن حجر بينهما وذكر أنه صلى الله عليه وسلم رعى لأهله — أى أقاربه — بغير أجرة ، ولغيرهم بأجرة (السيرة الحلبية ١/ ١٥٠

(2) أنظر صحيح البخارى : كتاب الإجارة ٢/ ٢٢ ط حجازى

(3) أنظر : الوفا لابن الجوزى ١/ ١٤٢

ولقد شارك النبي ﷺ غيره — قبل الإسلام — في التجارة ، إذ تذكر الروايات الحديثية مشاركته للسائب أبي السائب وثناءه ﷺ عليه بعد إسلامه ، ففي الإمام أحمد — بسنده — عن مجاهد ، عن السائب بن أبي السائب أنه كان يشارك رسول الله ﷺ — قبل الإسلام — في التجارة . فلما كان يوم الفتح : جاءه ، فقال النبي ﷺ : مرحبا بأخي وشريكي ، كان لا يداري[1] ولا يماري . يا سائب ، قد كنت تعمل أعمالا في الجاهلية لا تقبل منك وهي اليوم تقبل منك — وكان ذا سلف وصلة — »[2] .

وفي الفصل التالي - بمشيئته تعالى - مزيد من ذكر اشتغاله ﷺ بالتجارة قبل البعثة

* * *

---

(١) أورد ابن الجوزي — عقب روايته للحديث في الوفا ١٤٢/١ — ضبط هذا اللفظ وتفسيره فقال : «يداريء : مهموز بمعنى يشاغب ويخاصم صاحبه .

(٢) أنظر : المسند ٤٢٥/٣ وفي الموضع نفسه : عدة أحاديث تتضمن الثناء على السائب بصفاته الحسنى في الجاهلية .

الفصل التاسع

فى ذكر سفره صلى الله عليه وسلم إلى الشام مرة ثانية

وتزوجه بالسيدة خديجة - رضى الله تعالى عنها - بعد ذلك

وما ظهر هنالك من الآيات

تكاملت خصال الخير ونعوت الكمال التى لم تتوفر لإنسان فى هذا النبى العظيم الذى هو إنسان عين الوجود ومنة الله تعالى على كل موجود فى عالم الغيب والشهود ، فبصر بنعوت كماله من شاءت له العنايه أن يقتبس من مكارم أوصافه وخلاله ، فلا عجب أن تشع أنوار هذه المحامد والصفات فى جانب المعاملات كما سطع ضياؤها فى جانب العبارات ، وفى عين التحقيق : تندرج المعاملات فى العبادات فإن شأن من اصطفاه ربه أن يستغرق بكليته فى مقام العبودية لمولاه ، فلا ذرة من وجوده إلا وهى نفس يسبح بحمد الله جل علاه .

ولقد سطعت إشراقات شمائله ﷺ وهو فى ريعان شبابه واشتهرت محامده فعرف بالصادق الأمين وهما صفتان عظيمتان تنصلح بهما أمور الدنيا كما تستقيم بهما أمور الدين ، فلا غرو أن يرتجى الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه وليا على التجارة لأشراف قريش ، ولكن الذى فاز بالقسط الأوفر من هذا الشرف كان أحق الناس به وهو سيدتنا خديجة بنت خويلد رضى الله تعالى عنها ، التى نالت بعد شرفا أرفع وهو تزوجها بأشرف الخلق ﷺ .

أما قصه سفره ﷺ للتجارة فى مال السيدة خديجه : فقد روى ابن سعد

وغيره عن نفيسه بنت منية أنها قالت : ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة : قال له أبو طالب : أنا رجل لا مال لى ، وقد اشتد الزمان علينا ، وهذه عير قومك وقد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيراتها ، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك ، وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له ، فأرسلت إليه فى ذلك وقالت له : أنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك ، فقال أبو طالب : هذا رزق ساقه الله إليك !

فخرج مع غلامها ميسرة ، وجعل عمومته يوصون به أهل العير ، حتى قدما بصرى من الشام ، فنزلا فى ظل شجرة ، فقال نسطور الراهب :

ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبى !!

ثم قال لميسرة : أفى عينيه حمرة ؟ قال : نعم لا تفارقه ، قال : هو نبى وهو آخر الأنبياء !!

ثم باع سلعته ، فوقع بينه وبين رجل تلاح ، فقال له : احلف باللات والعزي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حلفت بهما قط وإنى لأمر فأعرض عنهما ، فقال الرجل : القول قولك ، ثم قال لميسرة : هذا والله نبى تجده أحبارنا منعوتا فى كتبهم !!

وكان ميسرة - إذا كانت الهاجرة واشتد الحر — يرى ملكين يظلان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشمس !! فوعى ذلك كله ميسرة .

وكان الله قد ألقى عليه المحبة من ميسرة . فكان كأنه عبد له !! وباعوا تجارتهم وربحوا ضعف ما كانوا يربحون .

فلما رجعوا فكانوا بمر الظهران : قال ميسرة : يا محمد : انطلق إلى خديجة فأخبرها بما صنع الله لها على وجهك !! فإنها تعرف لك ذلك ، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة ، - وخديجة في علية لها - فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بعيره وملكان يظلان عليه !! فأرته نساءها فعجبن لذلك ، ودخل عليها رسول الله صل الله عليه وسلم فخبرها بما ربحوا في وجههم ، فسرت بذلك.

فلما دخل ميسرة عليها . أخبرته بما رأت ، فقال ميسرة . قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام ، وأخبرها بما قال الراهب نسطور ، وبما قال الآخر الذي خالفه في البيع ، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجارتها ، فربحت ضعف ما كانت تربح ، وأضعفت له ضعف ما سمت له»[1].

إنها دلائل النبوة تتوهج وتلمع في كل اتجاه ملابسة للأحداث ومؤذنة بشروق شمس المبعث العظيم ، وها هي تلك تنبعث أضواؤها خلال رحلته صلى الله عليه وسلم - الثانية - إلى الشام[2] وتصاحبه خلال عودته ليرمقها

---

(١) أنظر طبقات ابن سعد ١/١٢٩ — ١٣١

(٢) حقق العلامة الحلبي في سيرته (١/١٦١) أنه صلى الله عليه وسلم سافر للسيدة خديجة رضى الله عنها ثلاث سفرات منها اثنتان إلى جرش — بضم الجيم وفتح الراء ، وهو موضع باليمن — وذلك لما رواه الحاكم في مستدركه وصححه وأقره الذهبي عن جابر أن خديجة استأجرته صلى الله عليه وسلم سفرتين إلى جرش ، كل سفرة بقلوص ، وهي الشابة من الإبل ، وقد استظهر أن جرش هو سوق حباشة — الذي ورد سفره صلى الله عليه وسلم إليها مع ميسرة — وإلا لزم أن يكون صلى الله عليه وسلم قد سافر لها خمس سفرات منها أربعة إلى اليمن وواحدة إلى الشام .

بصر السيدة خديجة رضى الله عنها فترى فى هذا الإنسان العظيم مجامع الآمال ومعاقد الأمانى التى يستشرفها كل عظيم ، وقد هيأ الله تعالى الأسباب لعقد الوشيجة بينهما برباط النكاح المبارك على أقوم أساس ولأشرف غاية .

تزوجه صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة رضى الله عنها :

كانت مشيئة الحق تبارك وتعالى من وراء تمهيد الأحداث لهذا القران الميمون الذى هز قريشا بأسرها وكان حدثا بارزا فى حياته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة .

فالسيدة خديجة رضوان الله عليها كانت درة فريدة فى عالم النساء[1] قد اجتمع لها من الشرف والحسب والجمال والثراء ما جعل أشراف القوم وعليتهم يطمحون إلى الاقتران بها ويعرضون أنفسهم للزواج بها فتأبى لأن شواهد الآيات قد نطقت لها بأن سيدنا محمدا — صلى الله عليه وسلم — هو نبى هذه الأمة فلم تعدل به أحدا سواه ووقره فى قلبها أنه ذاك وإلا فلا ! ! فما كان منها وهى التى أعرضت عن عروض كبار القوم إلا أن عرضت نفسها عليه ﷺ ليتزوج بها ! !

يقول ابن هشام : « وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة - مع

---

(١) مما يدل على ذلك أنها كانت تدعى : « سيدة نساء قريش » يقول السهيلى فى الروض (١/٢١٥) : —

« وخديجة بنت خويلد تسمى (الطاهرة) فى الجاهلية والإسلام ، وفى سير التيمى : أنها كانت تسمى : سيدة نساء قريش » .

ما أراد الله بها من كرامته ، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به : بعثت إلى رسول الله ﷺ فقالت له ـ فيما يزعمون ـ : يا ابن عم ، إني قد رغبت فيك لقرابتك ، وسطتك في قومك ، وأمانتك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك ، ثم عرضت عليه نفسها ، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمهن شرفا ، وأكثرهن مالا ، كل قومها كان حريصا على ذلك لو يقدر عليه »(١).

ويروى ابن سعد ـ في طبقاته ـ عن نفيسة بنت منية أنها قالت : « كانت خديجة بنت خويلد بن أسد عبد العزى بن قصى(٢) ، امرأة حازمة ، جلدة ، شريفة ، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير ، وهى يومئذ أوسط قريش نسبا ، وأعظمهم شرفا ، وأكثرهم مالا ، وكل قومها كان حريصا على نكاحها لو قدر على ذلك ، قد طلبوها وبذلوا لها الأموال ، فأرسلتني دسيسا(٣) إلى محمد ـ بعد أن رجع في عيرها من الشام ـ فقلت :

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ١٢٢/١ ط صبيح .

(٢) فهى تجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم في النسب في قصى ، وقد نقل الحلبي في سيرته (١٦٣/١) عن الحافظ ابن حجر : أنه قال : « وهى من أقرب نسائه صلى الله عليه وسلم إليه في النسب ، ولم يتزوج من ذرية قصى غيرها إلا أم حبيبة » هذا كلامه اهـ وقد تزوجت قبله ﷺ برجلين هما عتيق بن عابد وأبو هالة .

(٣) هذا يفيد أن السفير بين النبي ﷺ وبين السيدة خديجة رضى الله عنها كان نفيسة بنت منية وثمة روايات أخرى تفيد أن السفير بينهما كان ميسرة أو مولاة مولدة ، قال الحلبي في سيرته (١٦٤/١) .

« ... لا منافاة ، لجواز أن يكون كل من ذكر سفيرا » اهـ .

يا محمد ، ما يمنعك أن تتزوج ؟ فقال : ما بيدى ما أتزوج به ؟ قلت : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال و المال و الشرف والكفاءة ، ألا تجيب ؟؟ قال : فمن هى ؟ قلت : خديجة ، قال : و كيف لى بذلك ؟

قالت : قلت : على ، قال : فأنا أفعل ، فذهبت فأخبرتها ، فأرسلت إليه : أن ائت لساعة كذا وكذا ، وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها[1] ، فحضر ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمومته ، فزوجه أحدهم : فقال عمرو بن أسد : هذا البضع لا يقرع أنفه[2] .

وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة ، ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة »[3] .

وقد أفادت الروايات أن الذى زوج النبي صلى الله عليه وسلم من عمومته هو عمه أبو طالب وهو الذى خطب خطبة نكاحه ، إذ نقل الحلبى والشامى وغيرهما عن أبى الحسين بن فارس وغيره ، أن أبا طالب قد خطب يومئذ فقال :

---

(١) هذا هو الصحيح خلافا لبعض ما روى من أن الذى زوجها هو أبوها خويلد لما ذكره ابن سعد من أن أباها قد مات قبل الفجار .

(٢) هكذا سيقت العبارة فى طبقات ابن سعد ، بينما ذكر الحلبى فى سيرته (١٦٣/١) بلفظ هذا الفحل لايقدع أنفه) أى لايضرب أنفه لكرمه .

(٣) أنظر : طبقات ابن سعد ١٣٢/١

وثانيا : ما نقله ابن سيد الناس عن موسى بن عقبة ـ وجاء مجملا فى الرواية السابقة عن ابن سعد ـ أن رجلا كان يقال له مليح سرق طيب الكعبة فأرادوا أن يشيدوا بنيانها وأن يرفعوا بابها حتى لا يدخل إلا من شاءوا(١) ، وعبارة ابن سعد : « وسرق منه حلية وغزال من ذهب كان عليه در وجوهر ، وكان موضوعا بالأرض »(٢) .

وقال ابن اسحق : « وكانوا يهمون بذلك ـ أى : ببناء الكعبة ـ ليسقفوها ، ويهابون هدمها ، وإنما كانت رضما فوق القامة ، فأرادوا رفعها وتسقيفها .

وذلك : أن نفرا سرقوا كنزا للكعبة ، وإنما كان يكون فى بئر فى جوف الكعبة ، وكان الذى وجد عنده الكنز : دويكا ـ مولى لبنى مليح ابن عمرو من خزاعة .

ـ قال ابن هشام ـ : فقطعت قريش يده ، وتزعم قريش أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك(٣) .

وثالثا : ما روى ـ بإسناد صحيح ـ عن الزهرى ـ من أن امرأة أجمرت الكعبة فطارت شرارة من مجمرها فى ثياب الكعبة فاحترقت ،

---

(١) أنظر : عيون الأثر لابن سيد الناس ٥٢/١ .

(٢) هذه العبارة من جملة الرواية التى أثبتناها عن ابن سعد فى السبب الأول بعد قوله « فخافوا أن ينهدم » .

(٣) أنظر : سيرة ابن هشام ١٢٤/١ ط صبيح .

فتشاور القوم فى هدم البيت وإعادة بنائه(١) .

وقد نقل شارح المواهب عن شيخه الجمع بين هذه الأسباب الثلاثة إذ قال : « وقال شيخنا : يجوز أن خشية هدم السيل حصل من الحريق حتى أوهن بناءها ، ووجدت السرقة بعد ذلك أيضا(٢) .

خوارق عند الشروع فى هدم الكعبة وتجديد بنيانها :

عندما حان وقت تنفيذ المشيئة الإلهية بالشروع فى تجديد بيت الله العتيق : تضافرت الوسائل واندحرت الموانع ليوقن أولوا الألباب أن المشيئة والحول والطول والقوة بيد الله وحده جل وعلا ، فلما أجمع القوم أمرهم على تجديد البيت : أقبلت سفينة لرجل من تجار الروم حتى دنت من جدة رمى بها البحر فتحطمت(٣) ، وقيل إنها كانت لقيصر ملك الروم تحمل له آلات البناء من الرخام والخشب والحديد ، وكان قيصر قد سرحها

---

(١) أنظر : فتح البارى لابن حجر ٣/٣٤٥ وانظر سبل الهدى والرشاد ٢/٢٢٨ وشرح المواهب ١/٢٠٣

(٢) أنظر المصدر الأخير .

(٣) أنظر : إلى سيرة ابن هشام ١ / ١٢٤ ط الحلبى ، وهذه الرواية فيها تتفق مع ما ساقه ابن حجر فى الفتح (٣ /٣٤٥ ط البهية) عن الطبرانى والفاكهى من روايتهما عن أبى الطفيل أن باقوم — صاحب السفينة — كان يتجر إلى بندر وراء ساحل عدن ، فانكسرت سفينته بالشعيبة فقال لقريش : إن أجرتم عيرى مع عيركم إلى الشام أعطيتكم الخشب ، ففعلوا أ هـ

عليهم السلام(١) ، تلك أولى أمهات المؤمنين ، أول امرأة بنى بها سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ولم يتزوج عليها غيرها حتى لقيت ربها عز وجل راضية مرضية(٢) ، رضى الله تعالى عنها وعن سائر آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم .



---

(١) ، (٢) أنظر سيرة ابن هشام ١٣٢/١

الفصل العاشر

في ذكر شهود رسول الله صلى الله عليه وسلم

بنيان الكعبة ووضعه الحجر بيده ﷺ

الكعبة المشرفة أول بيت وضع لعبادة الله فى الأرض . كما قال تعالى شأنه : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة ، مباركا وهدى للعالمين »(١).

وقد تعددت المرويات والأقوال فى أولية من بنى الكعبة ، وفى عدد مرات بنائها :

فثمة ما يفيد أن الكعبة قد أنزلت أصلا إلى سيدنا آدم - أو معه - من الجنة ، إذ روى الطبرانى عن سيدنا عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أنه قال : « لما أهبط الله آدم من الجنة قال : إنى مهبط معك بيتاً أو منزلا يطاف حوله كما يطاف حول عرشى ويصلى عنده كما يصلى حول عرشى ، فلما كان زمن الطوفان : رفع ، وكان الأنبياء يحجونه ولا يعلمون مكانه ، فبوأه لإبراهيم فبناه من خمسة أجبل : حراء ، وثبير ، ولبنان ، وجبل الطور ، وجبل الخير ، فتمتعوا منه ما استطعتم »(٢).

---

(١) سوره آل عمران /٩٦

(٢) خرجه الهيثمى فى (مجمع الزوائد ٢٨٨/٣ ط / القدسى) عن الطبرانى فى الكبير موقوفاً وقال فيه (ورجاله رجال الصحيح) . وخرج الحافظ ابن حجر نحوه (فى فتح البارى ٣١٦/٦ ط / البهية) عن ابن أبى حاتم من طريق معمر عن قتاده .

وقال السهيلي في الروض : « وكانت الكعبة قبل أن يبنيها شيث - عليه السلام خيمة من ياقوته حمراء ، يطوف بها آدم ، ويأنس إليها ، لأنها أنزلت إليه من الجنة ، وكان قد حج إلى موضعها من الهند [1] ، وهذا القول مساوق - في جوهر فحواه - لما مر آنفاً من حديث الطبراني .

كذلك روى السهيلي ما يفيد أن الملائكة كانوا أول من بنى البيت [2] ، إذ قال : وروى في سبب بنيان البيت خبر آخر - وليس بمعارض لما تقدم - وذلك : أن الله سبحانه لما قال لملائكته : « إني جاعل في الأرض خليفة [3] » قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها [4] » : خافوا أن يكون الله عاتباً عليهم ، لاعتراضهم في علمه ، فطافوا بالعرش سبعاً يسترضون ربهم ويتضرعون إليه ، فأمرهم سبحانه أن يبنوا البيت المعمور في السماء السابعة ، وأن يجعلوا طوافهم به ، فكان ذلك أهون عليهم من الطواف بالعرش ، ثم أمرهم أن يبنوا في كل سماء بيتا ، وفي كل أرض بيتا ، قال مجاهد : هي أربعة عشر بيتا ، كل بيت منها منا صاحبه - أي في مقابلته - لو سقطت لسقط بعضها على بعض » [5] .

---

(١) أنظر : الروض الأنف ١/٢٢٢ وانظر هذا المتجه فيما نقله عن المحب الطبري شارح المواهب ١/٢٠٦

(٢) نقل الزرقاني في المصدر السابق عن الأزرقي رواية بناء الملائكة للبيت قبل سيدنا آدم عن سيدنا علي زين العابدين .

(٣) ، (٤) سورة البقرة / ٣٠

(٥) انظر : الروض الأنف ١/٢٢٢ - ٢٢٣ وانظر رواية ابن أبي حاتم عن مجاهد أن القواعد كانت في الأرض السابعة في فتح الباري لابن حجر ٦/٣١٣ ط - البهية .

وثمة ما يفيد - من الروايات - : أن سيدنا آدم - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - هو أول من بنى الكعبة ومعه زوجه ، فقد روى البيهقي - في الدلائل - بسنده عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه قال : قال النبي ﷺ : « بعث الله جبريل عليه السلام ، فجعل آدم يحفر وحواء فقال لهما : ابنيا لى بناء ، فخط لهما جبريل عليه السلام ، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل حتى أجابه الماء ، نودى من تحته : حسبك يا آدم ، فلما بنياه : أوحى الله تعالى إليه أن يطوف به ، وقيل له أنت أول الناس ، وهذا أول بيت ، ثم تناسخت القرون حتى حجه نوح ، ثم تناسخت القرون حتى رفع إبراهيم القواعد منه »(١) .

وأيضا يقول السهيلي : « وقد قيل : إن آدم هو أول من بناها - أى الكعبة - ذكره ابن إسحق فى غير رواية البكائى(٢) .

ويجمع بين هذا وبين ما مر من سبق بناء الملائكة للبيت : بأن المراد بالأولية هنا أولية بناء البشر .

ولا تعارض بين هذا القول وبين ما ذكر أولا من أن الكعبة قد أهبطت مع سيدنا آدم عليه السلام من الجنة ، للمغايرة بين الإنزال والبناء ، فمع وحدة المكان تعددت الأوصاف والأحوال ،

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٣٩٤/١) بتحقيق السيد صقر وقال : تفرد به ابن لهيعه هكذا مرفوعاً ، ونقل المحقق عن ابن كثير أنه أورده فى البداية (٢٩٩/٢) عن البيهقى ثم قال : هو ضعيف ووقفه على عبد الله بن عمرو أثبت وأقوى . كذلك خرجه الحافظ السيوطى عن البيهقى فى الدر المنثور ١٢٩/١

(٢) أنظر : الروض الأنف ٢٢٢/١ وانظر شرح المواهب (٢٠٦/١) حيث أثبت فيه هذا القول لعطاء من رواية عبد الرازق .

ومما يساوق هذا الإعتبار : ما ذكره ابن الجوزي - في الوفا - من قوله : « أول وضع البيت : أن الله تعالى أنزل البيت المعمور فجعله مكان الكعبة، وكان ياقوتة حمراء ، ثم رفع ، وبنى آدم مكانه البيت ، ثم بناه أولاده بالطين والحجارة ، ثم غرق فى زمن نوح وبقى مكانه أكمة لا يعلوها السيل ، إلى أن بناه الخليل ، ثم بنته العمالقة ، ثم بنته جرهم ، ثم بنته قريش »(١) .

كذلك نقل ابن حجر - فى الفتح - عن ابن الجوزى أنه قال : « وليس إبراهيم أول من بنى الكعبة ولا سليمان أول من بنى بيت المقدس فقد روينا أن أول من بنى الكعبة آدم ، ثم انتشر ولده فى الأرض ، فجائز أن يكون بعضهم قد بنى بيت المقدس ، ثم بنى إبراهيم الكعبة بنص القرآن » .

وقد أيد الحافظ ابن حجر ماذكره ابن الجوزى فقال : « وقد وجدت ما يشهد له ويؤيد قول من قال إن آدم هو الذى أسس كلا من المسجدين ، فذكر ابن هشام - فى كتاب التيجان - أن آدم لما بنى الكعبة أمره الله بالسير إلى بيت المقدس ، وأن يبنيه ، فبناه ، ونسك فيه ، وبناء آدم للبيت مشهور »(٢) .

ومن جملة ما تقدم : يتحصل لنا أن الكعبة - إلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم - قد بلغ عدد مرات وضعها وبنائها ثمانيا :

---

(١) أنظر الوفا بأحوال المصطفى ﷺ ١٤٦/١

(٢) أنظر : فتح البارى للحافظ ابن حجر ٣١٦/٦ ط / البهية المصرية ، (عبد الرحمن محمد) .

فأولاها : ما أفاده حديث الطبرانى عن سيدنا عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - من أن الله تعالى قد وضع البيت أولا ، لا ببناء أحد ، وذلك ما نقله شارح المواهب عن المحب الطبرى فى منسكه .

وثانيتها : فيما أورده السهيلى من بناء الملائكة للبيت ، وهو المروى عن سيدنا على بن مولانا الإمام الحسين ابن سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنهم أجمعين - من رواية الأزرقى عنه - .

وثالثتها : فيما رواه البيهقى - فى دلائل النبوة - من بناء سيدنا آدم عليه السلام للبيت ، وقد عاضد تلك الرواية روايات : - الأزرقى ، وأبى الشيخ ، وابن عساكر للحديث عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما موقوفا . قال الأثبات : وحكمه الرفع إذ لا يقال رأيا[١] .

ورابعتها : بناء سيدنا شيث بن سيدنا آدم - عليهما السلام - للكعبة بعد بناء أبيه لها ، وقد مر فيما ذكره ابن الجوزى فى الوفا أنه قال : « وبنى آدم مكانه البيت ، ثم بناه أولاده بالطين والحجارة » وقد نقل شارح المواهب رواية عبد الرزاق عن وهب بن منبه : أن أول من بنى البيت شيث بن آدم عليهما السلام[٢] .

كذلك قال السهيلى فى الروض : « وكان بناؤها - أى الكعبة - فى الدهر خمس مرات . الأولى : حين بناها شيث بن آدم »[٣] .

---

(١) أنظر شرح العلامة الزرقانى على المواهب اللدنية ١/٢٠٦

(٢) أنظر نفس المصدر .

(٣) أنظر الروض الانف ١/٢٢١

والخامسة : إذ بناها سيدنا إبراهيم الخليل - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - على قواعدها الأولى ، وقد زعم الزمخشرى وابن كثير أن سيدنا إبراهيم عليه السلام أول من بناه مطلقا وقد استدل لذلك ابن كثير بأنه لم يثبت عن معصوم أنه كان مبنيا قبله !! فيا للعجب من هذا القول مع تضافر الأحاديث والآثار الواردة بذلك لدى أساطين المحدثين . وهو الحافظ المحدث !! وكم كان العلامة الزرقانى حصيفا فى رده على ابن كثير بقوله : «قلت : ولم يثبت عن معصوم أنه أول من بناه»[١] !! ثم أورد تخريج حديث بناء سيدنا آدم عليه السلام للكعبة كما مر ذكره[٢] .

وأما السادسة والسابعة والثامنة :

فقد مر ذكرها فى قول ابن الجوزى : «ثم بنته العمالقة ثم بنته جرهم ، ثم بنته قريش» .

ويعزز ذلك ما أخرجه البيهقى - فى الدلائل - والحاكم - فى مستدركه وصححه وأقره الذهبى - عن سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه أنه قال : «إن إبراهيم لما أراد بناء البيت ضاق به ذرعا فلم يدر ما يصنع ، فأرسل الله السكينة - وهى ريح خجوج[٣] - فانطوت ، فجعل

---

(١) أنظر شرح المواهب ٢٠٦/١

(٢) وأضاف العلامة الزرقانى إلى تخريج الحديث المذكور : قوله : (وأخرج الشافعى عن محمد بن كعب القرظى قال : حج آدم فلقيته الملائكة فقالوا : بر نسكك يا آدم» ! !

(٣) خجوج : شديدة تلتوى فى هبوبها .

يبنى عليها كل يوم سافا - ومكة شديدة الحر - فلما بلغ موضع الحجر : قال لإسماعيل : اذهب فالتمس حجرا فضعه ها هنا ، فجعل يطوف بالجبال ، فجاءه جبريل بالحجر فوضعه ، فجاء إسماعيل فقال : من جاء بهذا ؟ - أو : من أين هذا أو من أين أتى بهذا ؟ - فقال : جاء به من لم يتكل على بنائى وبنائك ، فبناه ، ثم انهدم ، فبنته العمالقة ، ثم انهدم فبنته جرهم ، ثم انهدم فبنته قريش . . . »[1] .

وقد نقل شارح المواهب عن الزبير بن بكار والماوردى : أن قصى ابن كلاب جد النبى ﷺ قد بنى البيت بعد أن بنته جرهم وقبل بناء قريش : فتلك مرة ثامنة ويكون بناء قريش للكعبة مكملا للتسع[2] .

أما الأسباب التى حملت قريشا على بناء الكعبة فى عهده ﷺ : فتتمثل فيما يلى :

أولا : ما رواه ابن سعد - فى طبقاته عن الإمام ابن عباس ومحمد بن جبير بن مطعم وغيرهما[3] رضى الله عنهم أجمعين أنهم قالوا : كانت الجرف مطلة على مكة ، وكان السيل يدخل من أعلاها حتى يدخل البيت ، فانصدع ، فخافوا أن ينهدم[4] .

---

(١) أنظر مستدرك الحاكم ٤٥٨/١ — واللفظ منه — وأنظر دلائل النبوة للبيهقى بتحقيق السيد صقر ٤٠٧/١ ط / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) أنظر شرح الزرقانى على المواهب ٢٠٦/١

(٣) ساق ابن سعد سنده فى هذه الرواية أيضا إلى عمرو الهذلى ، وحكى ابن سيد الناس هذا القول عن موسى بن عقبة فى عيون الأثر ٥١/١

(٤) أنظر : طبقات ابن سعد ١٤٥/١

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئضىء(١)
معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتا
محجوجا ، وحرما آمنا . وجعلنا حكام الناس .

ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به
شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وإن كان فى المال قل(٢) فإن المال ظل زائل
وأمر حائل ، وعارية مسترجعة ، وهو والله — بعد هذا — له نبأ عظيم ،
وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة فى كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من
الصداق حكمكم عاجله وآجله : اثنتا عشرة أوقية ونشا »(٣) .

فقال عمرو بن أسد — عمها — هو الفحل لا يقدع أنفه ،
وأنكحها منه .

---

(١) الضئضىء — بوزن قنديل — هو الأصل والمعدن ، وله عدة صياغات
ومرادفات فى السيرة الشامية ٢٢٧/٢٠

(٢) القل — بضم القاف وتشديد اللام — مثل القلة ، ضد الكثرة ،
وضبطه الشامى بكسر القاف وفتح اللام المشددة مع التنوين : (قلا) بمعنى مقلا .

(٣) هكذا عبارة الشامى فى سيرته (٢٢٦/٢) أما فى السيرة الحلبية (١٦٥/١)
فالعبارة : (وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتى عشرة أوقية ونشا)
ثم فسره بقوله « أى : وهو عشرون درهما » والأوقية أربعون درهما ، أى
وكانت الأواق والنش من ذهب كما قال المحب الطبرى ، أى ، فيكون جملة الصداق
خمسمائة درهم شرعى . وقيل : أصدقها عشرين بكرة ، أى : كما تقدم ، أقول :
لا منافاة لجواز أن تكون البكرات عوضا عن الصداق المذكور » .

وذكر الحلبي أن قائل ذلك هو ورقة بن نوفل ، فإنه بعد أن خطب أبو طالب بما تقدم ، خطب ورقة فقال :

الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت ، وفضلنا على ما عددت ، فنحن سادة العرب وقادتها ، وأنتم أهل ذلك كله ، لا ينكر العرب فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم ، ورغبتنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا علي معاشر قريش أني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله ، ـ وذكر المهر ـ .

فقال أبو طالب : أحببت أن يشركك عمها ، فقال عمها : اشهدوا على معاشر قريش أني قد أنكحت محمدَّ بن عبد الله خديجة بنت خويلد .

وأولم عليها صلى الله عليه وسلم ، نحر جزورا ، وقيل جزورين ، وأطعم الناس .

وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ، ويضربن الدفوف ، وفرح أبو طالب فرحا شديدا وقال : الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب ودفع عنا الغموم ، وهي أول وليمة أولمها رسول الله صلى الله عليه وسلم »(١) .

وقد ذكر ابن اسحق أن السيدة خديجة قد ولدت لرسول الله ﷺ : ولده كلهم ـ إلا إبراهيم ـ : القاسم ـ وبه كان يكنى صلى الله عليه وسلم ـ والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة .

---

(١) أنظر السيرة الحلبية ١/١٦٥ — ١٦٦ والسيرة الشامية ٢/٢٢٤ .

مع شخص يدعى باقوم إلى الكنيسة التى أحرقها الفرس بالحبشة ، فلما بلغت مرساها من جدة : بعث الله تعالى عليها ريحاً فحطمتها(١) .

فخرج الوليد بن المغيرة فى نفر من قريش ، فابتاعوا خشبها . وكلموا الرومى باقوم — وكان بانياً — فقـدم معهم فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيف للكعبة(٢) .

هذه وسيلة يسرها الله تعالى وهيأها لهذا العمل الجليل ، وفى مقابلتها مانع أبعده الله :

يقول ابن اسحق : « ... وكان بمكة رجل قبطى نجار فتهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها ، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة — التى كان يطرح فيها ما يهدى لها كل يوم — فتتشرق على جدار الكعبة ، وكانت مما يهابون ، وذلك أنه كان لا يدنوا منها أحد إلا احزألت ، وكشت ، وفتحت فاها ، وكانوا يهابونها (٣) ، فبيناهى ذات يوم تتشرق على جدار الكعبة كما كانت تصنع . بعث الله إليها طائراً فاختطفها ، فذهب بها ، فقالت قريش .

---

(١) ، (٢) أنظر سبل الهدى والرشاد للشامى ٢ / ٢٢٨

(٣) أضاف العلامة الزرقانى (فى شرح المواهب ١ / ٢٠٤) عند هذه النقطة إضافة رائعة تعالى لبروز الحية . إذ ذكر أن الحية لما منعتهم اعتزلوا للتشاور عند مقام إبراهيم فأشار عليهم الوليد — وقيل أبو وهب المخزومى — أن لا يجعلوا فيها مالا غصباً ولا قطعت فيه رحم ولا انتهكت فيه حرمة ففعلوا وقالوا : اللهم إن كان لك فى هدمها رضا فأتمه وأشغل عنا هذا الثعبان فأقبل طائر من جو السماء فأخذها .

إنا نرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا : عندنا عامل رفيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية(١) ، أهـ

إن هذا المانع الذى أوردنا ذكره لم يكن إلا زاجراً عن إقتراف إثم فى حق بيت الله الحرام وهو بناؤه من مال يدخله الكسب الحرام ! ! وبالإقلاع عن الإثم إقتلعت الحية التى ربضت بالبيت خمسمائة عام(٢) ! ! .

ولقد كان من الخوارق التى حدثت إبان الشروع فى هدم البيت :

ماوقع لخال أبى سيدنا رسول الله ﷺ ، وهو أبو وهب بن عمرو بن مخزوم — وكان من أشراف قريش — إذ تناول من الكعبة حجراً فوثب الحجر من يده حتى رجع إلى موضعه !! فقال : يا قوم ، لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس(٣) .

ولظهور تلك الخوارق بالبيت . هاب العرب هدمه وفرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة . أنا أبدؤكم فى هدمها — وذلك بعد أن محضوا لها طيب المال واجتنبوا الخبيث — فأخذ المعول فقام عليها وهو يقول . « اللهم

---

(١) سيرة ابن هشام ١ / ١٢٤

(٢) نقل الشامى فى سيرته (٢/٢٢٩) عن ابن إسحق أن الحية قد أقامت فى البيت خمسمائة سنة ساكنة البئر ، وذكر السهيلى فى الروض (١/٢٢٥) أن طائر العقاب الذى اختطف الحية ألقاها بالحجون فالتقمتها الأرض .

(٣) أنظر سيرة ابن هشام ومعها الروض الآنف ١/ ٢٢٥ .

لم ترع »(١) — ويروى « اللهم لم ترع — اللهم لا نريد إلا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس تلك الليلة وقالوا : ننظر ، فان أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت . وإن لم يصبه شيء . فقد رضى الله صنعنا فهدمنا !! فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله ، فهدم ، وهدم الناس معه ، حتى انتهى الهدم بهم إلى الأساس الذى هو قواعد سيدنا إبراهيم — على نبينا وعليه الصلاة والسلام — أفضوا إلى حجارة خضر كالإسنمة آخذ بعضها بعضاً .

وآية أخرى عند التعرض لأساس الكعبة : يقول ابن اسحق . « فحدثنى بعض من يروى الحديث أن رجلا من قريش — ممن كان يهدمها — أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما ، فلما تحرك الحجر . تنقضت مكة بأسرها ! !(٢) .

---

(١) هى عبارة درج العرب على ترديدها لتسكين الروع وإظهار اللين والبر في القول ، ولا روع حينئذ فينفى !

(٢) نقل ذلك عن ابن اسحق : ابن هشام فى سيرته (١ / ١٢٦) وروى البيهقى — فى الدلائل ٤١١/١ — عن الإمام ابن عباس — رضى الله عنهما — أن أولية قريش لما اجتمعوا لينزعوا الحجارة وانتهوا إلى تأسيس إبراهيم وإسماعيل عمد رجل منهم إلى حجر من الأساس الأول ، فرفعه وهو لا يدرى أنه من الأساس الأول ، فأبصر القوم برقة تحت الحجر كادت تلتمع بصر الرجل ، ونزل الحجر من يده فوقع فى موضعه ، وفزع الرجل والبناة ، فلما استتر عنهم الحجر ما تحته عادوا إلى بنيانهم.

مشاركة الرسول الأعظم ﷺ فى تجديد بناء الكعبة :

شاء الله تعالى لنبيه الأكرم صلى الله عليه وسلم أن يشارك فى هذا الحدث الجلل وأن يتم به بناء بيته الحرام الذى جعله الله تعالى مثابة للناس وأمنا ، كما جعله منسكا ، وقياما لهم ، لذا حرصت قريش على أن تتجزأ الكعبة لتحرز لبطونها شرف الإسهام فى هذا العمل ، فكان شق الباب : لبنى عبد مناف وزهرة ، وما بين الركن الأسود والركن اليمانى : لبنى مخزوم -وقد شاركهم فيه بعض القبائل- وكان ظهر الكعبة : لبنى جمح وسهم ، وشق الحجر -وهو الحطيم- لبنى عبد الدار بن قصى ، وبنى أسد بن العزى بن قصى وبنى عدى بن كعب بن لؤى (١) .

ولقد شارك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : فى هذا العمل الجليل وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره المبارك ، فأسهم أولا : فى نقل حجارة الكعبة المشرفة ، ثم كان دوره العظيم فى وضع الحجر الأسود الشريف فى موضعه .

وكانت قريش قد نظمت العمل فى الإعداد للتجديد ، وفى التشييد والبناء فأفردت رجلين رجلين لنقل الحجارة ، وخصصت النساء لنقل الشيد (٢) وكان رفيق النبى ﷺ فى نقل حجارة البيت : عمه العباس بن عبد المطلب

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ١٢٥/١ — ١٢٦

(٢) الشيد — بكسر الشين — هو ماطلى به الحائط من جص أو طين أو نحوها أنظر القاموس المحيط (شاد) .

رضى الله تعالى عنه ، فقد روى البخارى بسنده عن عمرو بن دينار أنه قال: سمعت جابر بن عبد الله يحدث : أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة وعليه إزاره فقال له العباس عمه : يا ابن أخى ، لو حللت إزارك فجعلت على منكبيك دون الحجارة ، قال : فحله ، فجعله على منكبيه ، فسقط مغشيا عليه ، فما رؤى بعد ذلك عريانا » (١) .

وروى الإمام أحمد — بسنده — عن أبى الطفيل — وذكر بناء الكعبة فى الجاهلية — قال : فهدمتها قريش ، وجعلوا يبنونها ، فبينا النبى ﷺ يحمل حجارة من أجياد ، وعليه نمرة (٢) فضاقت عليه النمرة ، فذهب يضع النمرة على عاتقه فيرى عورته (٣) من صغر النمرة . فنودى : يا محمد ، خمر عورتك ، فلم ير عريانا بعد ذلك (٤) — زاد الطبرانى فى روايته بعد ذلك — « وكان يرى بين بناء الكعبة وبين ما أنزل عليه . خمس سنين وبين مخرجه وبنيانها : خمس عشرة سنة » (٥) .

---

(١) أنظر صحيح البخارى : كتاب الصلاة ٥٣/١ وكتاب المناقب ٢١١/٢ ط حجازي .

(٢) النمرة — بفتح النون وكسر الميم — هى إزار مخطط من صوف ، وتجمع على أنمار (أنظر مختصر بلوغ الأمانى للساعاتى ١٩٩/٢٠)

(٣) ذكر الزرقانى — تعليقا على حديث أبى الطفيل — فى شرحه على المواهب (٢٠٥/١) أنه ليس المراد العورة المغلظة .

(٤) أنظر المسند ٤٥٥/٥

(٥) من رواية الطبرانى فى معجمه الكبير ، وقد خرجها عنه الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٨٩/٣) وذكر أن رجاله رجال الصحيح

تحكيمه ﷺ فى رفع الحجر الأسود ووضعه ﷺ له فى الركن بيده الشريفة

يقول ابن إسحق : ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها ، حتى بلغ البنيان موضع الركن ، فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوروا ، وتحالفوا ، وأعدوا للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما !؟ ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم !! فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد ، وتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض أهل الرواية . أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم — وكان عامئذ أسن قريش كلها — قال . يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ، ففعلوا فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال ﷺ . هلم إلى ثوبا ، فأتى به ، فأخذ الركن — أى الحجر — فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيله بناحية من الثوب ، ثم أرفعوا ، حتى إذا بلغ به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه » (١) .

وتوثيقا أكثر لهذا الحدث العظيم :

يروى الإمام أحمد فى مسنده — بسنده — عن مجاهد عن مولاه —

---

(١) انظر سيرة ابن هشام بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ١٢٧/١

يعنى السائب بن عبد الله رضى الله تعالى عنه — أنه حدث أنه كان فيمن يبنى الكعبة فى الجاهلية ، قال : ولى حجر أنا نحته بيدى أعبده من دون الله تبارك وتعالى ، فأجيء باللبن الخاثر الذى أنفسه على نفسى (١) ، فأصبه عليه ، فيجيء الكلب فيلحسه ثم يشغر (٢) فيبول !!

فبنينا حتى بلغنا موضع الحجر ، وما يرى الحجر أحد ، فاذا هو وسط حجارتنا مثل رأس الرجل ، يكاد يتراءى منه وجه الرجل ، فقال بطن من قريش : نحن نضعه ، وقال آخرون : نحن نضعه . فقالوا : اجعلوا بينكم حكما ، قالوا : أول رجل يطلع من الفج ، فجاء النبى ﷺ فقالوا أتاكم الأمين !! فقالوا له ، فوضعه فى ثوب ثم دعا بطونهم ، فأخذوا بنواحيه معه فوضعه هو ﷺ (٣)

ويذكر السهيلى — نقلا عن بعضهم — أن إبليس كان حاضرا بين قبائل قريش وقت التخاصم والتحاكم وكان فى صورة شيخ نجدى !! وأنه صاح بأعلى صوته : يامعشر قريش : أرضيتم أن يضع هذا الركن — وهو شرفكم — غلام يتيم دون ذوى أسنانكم ؟ ؟ فكاد يشير شرا فيما بينهم ، ثم سكتوا عن ذلك (٤) لقد كان حضور نبى الرحمة ﷺ وقت التحاكم

---

(١) المعنى : فأجى باللبن الذى ثخن واشتد وصار مرعوبا حتى كنت أبخل به على نفسى .

(٢) يقال : شغر الكلب : إذا رفع رجليه ليبول .

(٣) أنظر المسند ٣/٤٢٥

(٤) أنظر الروض الأنف ١/٢٢٨

رحمة كبرى ، وقد نطق الحق على لسانهم إذ قالوا : « أتاكم الأمين » وهى كامه الحق التى تشير إلى مبعث الأمين المأمون على وحى الله ﷺ فما هى إلا خمس سنين بعد حدث تجديد الكعبة حتى أشرق نور الله بمبعثه ﷺ بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وجعلنا من خاصة أحبابه فى الدنيا ويوم الدين .

* * *

وبذا تم الجزء الأول من هدى النيرين فى سيرة سيد الكونين ﷺ

(فهرس مضامين الجزء الأول)

من هدى النيرين

الموضوع	الصفحة

	الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع ٨٤/١٥٨٢